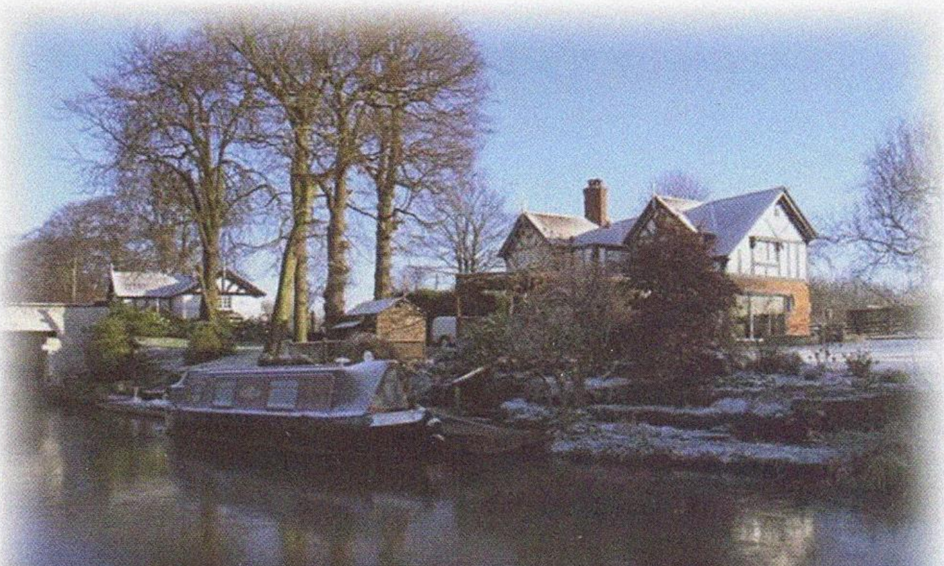
النص الكامل
الطبعة القانونية الأولى والوحيدة باللغة العربية

أغاثا كريستي



مِحنة البريء

٥٩

الأجيال
للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

Agatha Christie

أغاثا كريستي

مِحنَة البَريء

هذه هي الترجمة القانونية الوحيدة لهذا الكتاب
وهي تضم النص الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٥٨ بعنوان

Ordeal by Innocence

Arabic edition published by AJYAL *Publishers*
e-mail: agatha@al-ajyal.com

الطبعة الثانية

٢٠٠٦

التوزيع في المملكة العربية السعودية ودول الخليج
Pioneer House
الرياض ٤٧٩١٦٢٣ جدة ٦٧٥٠٠٥٣ الخبر ٨٩٩٥٢٣٣
دبي ٢٨٢٦٠٠٥ الكويت ٢٤٤٠٩٤٧ مسقط ٢٤٧٩٦٤١٤ البحرين ٧٢٩٣٦٢٩

أغاثا كريستي

مِحنَة البَريء

طُبعت للمرّة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٥٨

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسّون

الأجيال
للترجمة والنشر
AJIAL Publishers

بسم الله الرحمن الرحيم

الفصل الأول

كان الوقت غسقاً عندما وصل إلى القارب.

كان قادراً على الوصول إلى هناك في وقت أبكر من ذلك بكثير، والحقيقة أنه أجّل ذلك قدر استطاعته. بدايةً كان غداؤه مع أصدقاء له في ريدكي والحديث المتشعب غير الجدي وتبادل الشائعات حول الأصدقاء المشتركين. لم يكن ذلك كله يعني إلاّ أنه محجم -في داخله- عمّا هو مضطر لفعله. ثم دعاه أصدقاؤه للبقاء لتناول الشاي فوافق، ولكن جاء أخيراً الوقت الذي أدرك فيه أنه ليس باستطاعته تأجيل الأمور أكثر من ذلك.

كانت السيارة التي استأجرها في انتظاره، فودّع أصدقاءه وذهب ليقطع مسافة الأميال السبعة على طول طريق الساحل المزدحم، ثم صوب الداخل على الطريق الضيق المحفوف بالأشجار والذي ينتهي عند الرصيف الحجري الصغير للنهر. وهناك كان يوجد جرس ضخم قرعه سائق السيارة ليستدعي القارب من الطريق الآخر للنهر.

قال السائق: هل تريدني أن أنتظرك يا سيدي؟

ردّ عليه آرثر كالغاري: لا؛ لقد طلبتُ سيارة ستقابلني هناك خلال ساعة من الزمن لتقلّني إلى درايموث.

أخذ السائق أجرته وإكراميته، ثم قال وهو يحدّق عبر النهر في عتمة الغسق: القارب يقترب يا سيدي.

ودّع السائق زبونه ورجع بالسيارة إلى الوراء ثم قادها باتجاه التلة، وهكذا أمسى آرثر كالغاري وحيداً في انتظار القارب على جانب الرصيف. بقي وحيداً مع أفكاره ومع خشيته ممّا ينتظره. "يا لوحشة المنظر هنا"... هكذا كان يفكر. يمكن للمرء أن يتخيل نفسه عند بحيرة إسكتلندية نائية وهو في هذا المكان، ولكن الواقع على العكس من ذلك؛ فعلى مسافة قريبة كانت توجد الفنادق والمحلات التجارية والبيوت وأهالي ريدكي. وراح يفكر بالتباين الغريب بين المناظر الطبيعية في إنكلترا، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يفكر فيها بذلك.

سمع صوت المجاديف بينما كان القارب يقترب إلى جانب الرصيف الصغير. سار آرثر كالغاري على الطريق المنحدر وصعد إلى القارب بعد أن ثبته صاحبه بخطاف. كان رجلاً مسنّاً أعطى كالغاري انطباعاً غريباً بأنه وقاربه من جيل واحد.

هبت نسمات خفيفة باردة من البحر وهما يشقان طريقهما، فقال صاحب القارب: الجو بارد هذا المساء.

ردّ كالغاري ردّاً مناسباً، ثم وافقه على أن الجو أكثر برودةً من اليوم السابق. كان يدرك (أو هكذا يظن) وجودَ شيء من الفضول الخفي في عيني صاحب القارب؛ فها هو ذا يرى رجلاً غريباً بعدما انتهى الموسم السياحي تماماً. أضف إلى ذلك أن هذا الغريب كان يعبر النهر في ساعة غير عادية؛ ساعة متأخرة لا يعقل أن يكون فيها متوجهاً لشرب الشاي في المقهى القائم على الرصيف، ولم يكن

يحمل أمتعة مما يعني أنه لم يأت ليمكث طويلاً.

وتساءل كالغاري إن كان قد جاء متأخراً حقاً؟ هل كان ذلك لأنه كان يؤجّل تلك اللحظة في اللاشعور لكي يؤخر -قدر الإمكان- ما كان ينبغي فعله؟ خطر بباله نهر التيمز وهو يعبر الآن نهر روبيكون، وكان قد راح يحدّق إليه دون أن يراه (هل كان ذلك أمس فقط؟!) ثم التفت ثانية ليرى الرجل الجالس مقابله على الطاولة. تذكّرَ ذلك المشهد وتخيّلَ العينين المتيقظتين، كان فيهما شيء لم يستطع إدراك كنهه تماماً. فيهما تحفظ، فيهما شيء تم التفكير فيه ولكن لم يتم التعبير عنه. وفكّر في نفسه قائلاً: أحسب أنهما تعلّمتا ألا تُفصحا عمّا يفكر فيه صاحبهما.

كان الأمر بمجمله مخيفاً عندما يفكر فيه الإنسان ملياً. عليه أن ينجز ما عليه ثم ينسى بعد ذلك. وعبس وهو يتذكر الحديث الذي دار بالأمس؛ ذلك الصوت الهادئ المحايد يقول: أرى أنك عازم تماماً على عملك الذي تريد يا دكتور كالغاري؟

أجاب بحرارة: وما الذي يمكنني عمله غير ذلك؟ من المؤكد أنك تدرك ذلك؟ يجب أن توافق؛ إنه شيء لا أستطيع التهرب منه.

لكنه لم يستطع فهم معنى تلك النظرة في العينين الرماديتين المحايدتين وحيّره قليلاً ما سمعه من جواب: على المرء أن ينظر إلى الموضوع من كل جوانبه وأن يفكر فيه من كل النواحي.

- لا يمكن أن تكون في الأمر سوى ناحية واحدة من وجهة نظر العدالة.

تكلّم بحماسة ظانّاً -لوهلة- أن تلك كانت طريقة وضيعة للتغطية على الموضوع وإغلاقه.

- نعم، إلى حد ما. ولكن الأمر أبعد من ذلك كما تعرف. أبعد من... من العدالة إن جاز لنا التعبير.

- لا أوافقك؛ إذ توجد العائلة التي يجب أن تؤخَذ بعين الاعتبار.

قال الآخر على عجل: "تماماً، تماماً، نعم. أنا كنت أفكر فعلاً في أفراد العائلة"، (وهو ما بدا لكالغاري غير ذي معنى، لأنه لو كان المرء يفكر فيهم...) ثم مضى الرجل قائلاً بصوته الهادئ المريح: الأمر كله منوط بك يا دكتور كالغاري، وعليك بالطبع أن تعمل ما ترى أنه من واجبك عمله.

رسا القارب على اليابسة بعد أن قطع نهر روبيكون، وقال صاحبه بصوته الناعم وباللكنة الريفية: الأجرة أربعة بنسات يا سيدي، أم أنك تريد العودة؟

قال كالغاري: لا، لن تكون عودة (لَكَمْ بدت الكلمات حاسمة متنبئة).

دفع الأجرة ثم سأل: هل تعرف بيتاً يُقال له «صَني بوينت»؟

وعلى الفور لم يعد الفضول خافياً؛ فقد تفجر الاهتمام في عيني الرجل شديداً وقال: بالتأكيد. إنه هناك إلى يمينك، بإمكانك رؤيته من خلال تلك الأشجار. اصعد إلى التلة على طول الطريق الجديد وهو البيت الأخير في النهاية تماماً.

- شكراً لك.

- هل قلت «صني بوينت» يا سيدي؟ حيث كانت السيدة آرغيل قد...

قاطعه كالغاري فوراً حيث لم يشأ أن يناقش الأمر: نعم، نعم، إنه هو.

ارتسمت على شفتي الرجل ابتسامة خفيفة غريبة وبدا -فجأةً- كتمثال قديم لوجه خبيث: إنها هي التي سمّت البيت بهذا الاسم، وكان ذلك أثناء الحرب. كان منزلاً جديداً طبعاً، حديث البنيان، ولم يكن له اسم. ولكن الأرض التي بُني عليها، الأرض المشجّرة، كانت تدعى «فايبرز بوينت»، ولأن «فايبر» تعني «الحيّة» فإنها لم تجده اسماً ملائماً لمنزلها؛ لذا أطلقت عليه اسم «صني بوينت»، ولكننا ما زلنا ندعوه باسم «فايبرز بوينت».

شكره كالغاري بسرعة وتمنى له أمسية سعيدة ومشى صاعداً التلة. بدا وكأن الجميع في بيوتهم، ولكن تملكه إحساس بأن عيوناً غير مرئية كانت تتلصص عليه من خلال نوافذ الأكواخ، وكأن الكل يراقبونه ويعرفون وجهته، وكأنهم يقولون لبعضهم: "إنه ذاهب إلى فايبرز بوينت". يا لفظاعة هذا الاسم المعكوس! وخطر له مقطع شعري يقول: «أحدُّ من ناب الأفعى».

محّص أفكاره بسرعة، فعليه أن يتمالك نفسه ويقرر ما سوف يقوله بالضبط.

* * *

وصل كالغاري إلى نهاية الطريق الجديد وعلى جانبيه البيوت الجديدة الجميلة، ولكلٍّ منها حديقةٌ واسعة فيها النباتات الصخرية

وأزهار الأقحوان وغيرها من الأزهار. كان كل صاحب بيت يظهر ذوقه الخاص في تشكيلة حديقته.

وعند نهاية الطريق رأى بوابة كُتب عليها بخط قوطي: «صني بوينت». فتح كالغاري البوابة وعبَرَ ممشى قصيراً. كان البيت ينتصب أمامه هناك، بيتاً حديثاً جيد البنيان، مدخله مسقوف ولكن لا ملامح مميزة له. من شأن المرء أن يرى أمثال هذا البيت في أي موقع راقٍ في الضواحي أو أي مكان متطور آخر. كان المنزل -برأي كالغاري- غيرَ جدير بالمنظر الذي يُطِلّ عليه؛ فقد كان منظراً رائعاً. كان النهر هنا يلتف بحدة حول المكان حتى ليكاد يعود من حيث يجري، وكانت التلال المشجَّرة مقابله، وفي أعلى النهر إلى اليسار كان يوجد انعطاف آخر للنهر وكانت المروج والبساتين تظهر من بعيد.

نظر كالغاري إلى أعلى النهر وأسفله. كان يرى أن على المرء أن يبني قلعة في هذا المكان؛ قلعة خرافية غريبة؛ ولكن البيت الذي أُقيم هنا تميز -بدلاً من ذلك- بالذوق المتحفظ وكثرة ما أنفق عليه دون أن يكون فيه خيال أبداً. لم يكن المرء ليلوم عائلة آرغيل على ذلك؛ فقد اشتروا البيت ولم يبنوه. ومع ذلك فإن واحداً منهم هو الذي اختاره (أكانت السيدة آرغيل هي التي فعلت ذلك؟).

خاطب نفسه قائلاً: "لا يمكنني تأجيل الأمر أكثر من ذلك"، ثم ضغط الجرس الكهربائي عند الباب ووقف هناك ينتظر. وبعد فترة قصيرة ضغط على الجرس مرة أخرى.

لم يسمع وقع خطوات في الداخل، ولكن الباب فُتح فجأةً وبدون سابق إنذار. تراجع إلى الوراء جَفِلاً، ولأنه كان متحفزاً للمشهد سلفاً فقد رأى المأساة منتصبةً أمامه تسد عليه الطريق.

كان وجهاً شاباً، وفكر وهو يستجمع نفسه: "إنه من نوع الجمال الأيرلندي. زرقة العينين الغامقة والظل الداكن حولهما، والشعر الأسود المنتصب، والجمال الحزين لعظام الجمجمة والوجنتين".

وقفت الفتاة هناك، شابة يقظة عدائية. قالت: نعم؟ ماذا تريد؟

أجاب بشكل تقليدي: هل السيد آرغيل موجود؟

- نعم، لكنه لا يقابل الناس. أعني الناس الذين لا يعرفهم. إنه لا يعرفك، أليس كذلك؟

- نعم، لا يعرفني، ولكن...

شرعت تغلق الباب قائلة: إذن من الأفضل أن تكتب...

- أنا آسف، ولكنني أريد مقابلته لأمر خاص. هل أنت الآنسة آرغيل؟

أجابت بالإيجاب متذمرة: أنا هيستر آرغيل، نعم. لكن أبي لا يقابل الناس... لا يقابل دون موعد. فمن الأفضل أن تكتب له رسالة.

- لقد جئت من مسافة بعيدة.

لكنها لم تتأثر، بل قالت بما يشبه الاتهام: كلهم يقولون ذلك، لكني ظننت بأن مثل هذه الأمور قد توقفت أخيراً. أظن أنك صحفي؟

- لا، لا، أبداً.

نظرت إليه بارتياب كما لو أنها لم تصدقه ثم قالت: حسناً، ما الذي تريده إذن؟

رأى مِن ورائها في الصالة على مسافةٍ ما وجهاً آخر؛ وجهاً عادياً مسطّحاً، لو أراد وصفه لقال إنه يشبه الفطيرة المحلاة! وجه امرأة في العقد الأوسط من عمرها ذات شعر أجعد رمادي مصغر ملتصق على رأسها، وقد بدت وكأنها تحوم مترقبة مثل تنين يقظ.

- الأمر يخص أخاك يا آنسة آرغيل.

سحبت هيستر آرغيل نَفَساً حاداً وقالت غير مصدقة: مايكل؟

- لا؛ بل أخاك جاك.

انفجرت غاضبة وهي تقول: كنت أعرف ذلك. عرفت أنك أتيت بخصوص جاكو. لماذا لا تتركنا بسلام؟ كل شيء مضى وانتهى، فلماذا العودة إليه؟

- لا يمكنك أبداً القول إن شيئاً قد انتهى.

- ولكن هذا الأمر انتهى فعلاً؛ لقد مات جاكو، فلماذا لا تدعه وشأنه؟ كل شيء قد انتهى. إن لم تكن صحفياً فأظنك طبيباً أو أخصائياً نفسانياً أو شيئاً من هذا القبيل. اذهب أرجوك؛ لا يمكنك إزعاج الوالد فهو مشغول.

بدأت في إغلاق الباب، وعندها وبسرعة فعل كالغاري ما كان عليه أن يفعله منذ البداية. أخرج الرسالة من جيبه ودفع بها إليها وقال: لديّ رسالة هنا من السيد مارشال.

فوجئت بذلك. أمسكت بالمغلف بارتياب وقالت: من السيد مارشال في لندن؟

انضمت إليها الآن -فجأة- المرأة متوسطة العمر التي كانت

تتشاغل في زوايا القاعة. أخذت تنظر إلى كالغاري بإمعان وارتياب، ثم قالت: هل جئت من طرف السيد مارشال؟

كادت عبارتها تكون اتهاماً. أما هيستر فراحت تحملق في المغلف الذي أمسكته بيدها، ثم استدارت وأسرعت تصعد الدرج دون أن تنبس بكلمة.

ظل كالغاري عند عتبة الباب يتحمل نظرة الاتهام والارتياب التي كانت ترميه بها السيدة التنين. وراح يبحث عن شيء يقوله، لكنه لم يجد شيئاً، ولذلك آثر حكمة الصمت. وفي الحال جاءه صوت هيستر بارداً محايداً: يطلب الوالد منك الصعود إليه.

ابتعدت المرأة المرتابة جانباً على مضض دون أن تتغير ملامح الشك على وجهها. مرّ بها ثم وضع قبعته على أحد الكراسي، وصعد الدرج إلى حيث كانت هيستر تنتظره. وقد استرعى البيتُ انتباهَه، إذ أحس أن فيه شيئاً من المراعاة الغريبة لقواعد الصحة والنظافة إلى الحد الذي رآه معه أقرب إلى مستشفى باهظ التكاليف.

تقدمته هيستر على الممر ثم نزلت ثلاث درجات، وبعدها فتحت أحد الأبواب وأشارت له بالدخول، ثم تبعته وأغلقت الباب وراءها.

كانت الغرفة عبارة عن مكتبة، ورفع كالغاري رأسه شعوراً بالمتعة، فقد كان جو هذه الغرفة مختلفاً تماماً عن بقية البيت؛ إنها غرفة يمكن للمرء أن يعيش فيها ويعمل بارتياح. غطت الكتب الجدران، أما الكراسي فكانت فخمة عتيقة نوعاً ما لكنها مريحة، وكانت ثمة فوضى جميلة لأوراق متناثرة على المكتب وكذلك لكتب على الطاولات. وبسرعة لمح امرأة شابة وهي تغادر الغرفة من باب

في الطرف الأقصى، شابة جذابة نوعاً ما. ثم لفت انتباهه الرجل الذي نهض وأقبل لتحيته والرسالة مفتوحة بيده.

كان الانطباع الأول الذي كوّنه كالغاري عن ليو آرغيل أنه كان هزيلا جداً وكأنه خيال أو شبح إنسان! ولكن كان صوته عندما تكلم بهيجاً، رغم أن القوة تنقصه. قال: دكتور كالغاري؟ اجلس من فضلك.

جلس كالغاري مقابل مضيفه، وتمّ كل ذلك بغير استعجال كما لو أنه في عالم لا قيمة كبيرة للوقت فيه. كانت هناك ابتسامة واهنة لطيفة على وجه ليو آرغيل وهو يتكلم ويربت على الرسالة بلطف وبإصبع شاحب. قال: يقول السيد مارشال في رسالته إن لديك رسالة هامة تنقلها لنا، رغم أنه لم يحدد طبيعتها.

ثم كبرت ابتسامته وهو يضيف: المحامون يحرصون دوماً على ألاّ يُلزموا أنفسهم، أليس كذلك؟

خطر ببال كالغاري بشيء من الدهشة أن الرجل الجالس مقابله إنسان سعيد. ليس بمعنى السعادة المتقدة الحيوية كما هي السعادة عادةً، بل سعادة خاصة مبهمة لرجل رضي بالعزلة؛ كان هذا رجلاً لم يؤثّر العالم الخارجي عليه، وهو راضٍ لأن الأمور ينبغي أن تكون كذلك. لم يعرف لماذا سبب ذلك له الدهشة، ومع ذلك فقد كان مدهوشاً.

قال كالغاري: إنه من لطفك أن تراني.

كانت الكلمات مجرد مقدمة آلية، أضاف يقول بعدها: ظننت أن حضوري شخصياً أفضل من الكتابة.

ثم سكت قليلاً وبعدها قال بشيء من الانفعال المفاجئ: إن الأمر صعب، صعب جداً...

- خذ ما تشاء من الوقت.

كان ليو آرغيل لا يزال مؤدباً ومحايداً. مال إلى الأمام، وكان واضحاً أنه يحاول المساعدة بطريقته اللطيفة، ثم قال: طالما أنك أحضرت هذه الرسالة من مارشال فمن المفروض أن تكون لزيارتك علاقة بابني التعس جاكو، أعني جاك. كان جاكو هو الاسم الذي نناديه به بيننا.

طارت من ذهن كالغاري كل الكلمات والعبارات التي أعدها بعناية. جلس هناك يواجه الحقيقة المروِّعة لما كان عليه أن يرويه. تلعثم ثانية وهو يقول: من الصعب جداً...

تلا ذلك فترة صمت قال بعدها ليو بحذر: إن كان هذا يساعدك... فنحن ندرك تماماً أن جاكو لم يكن بالشخص السوي تماماً، ولن يدهشنا أي شيء مما ستقوله لنا. كنت مقتنعاً تماماً -رغم هول المأساة- بأن جاكو لم يكن مسؤولاً فعلاً عن أفعاله.

- طبعاً لم يكن.

كانت الكلمات الأخيرة هذه لهيستر مما جعل كالغاري يجفل منها؛ فلقد نسي وجودها للحظة. كانت جالسة على ذراع مقعد خلفه، وعندما أدار رأسه مالت إلى الأمام بلهفة وقالت كمن يذيع سراً: كان جاكو مريعاً دائماً... كان كالطفل الصغير تماماً. أعني عندما يفقد أعصابه؛ كان يمسك بأي شيء أمامه ويهجم عليك.

قال ليو آرغيل بصوت حزين: هيستر... هيستر، يا عزيزتي!

وضعت يدها على فمها بسرعة وقد جفلت. احمرّ وجهها وأخذت تتحدث بارتباك الشباب المفاجئ: أنا آسفة، لم أكن أقصد ذلك. لقد نسيت. ما كان لي أن... أن أتحدث بهذا الأسلوب. والآن. بعد أن... أعني بعد أن انتهى الأمر و ...

قال آرغيل: انتهى الأمر وانتهينا منه. كل هذا أصبح في الماضي. إنني أحاول... كلنا نحاول أن نشعر بأن الولد كان -دون شك- غير سوي، وأنه كان أحد الفلقات الخاطئة للطبيعة. هذا هو أفضل تفسير للمسألة حسب ظني.

ثم نظر إلى كالغاري وقال: أتوافقني؟

قال كالغاري: لا.

سادت فترة صمت قصيرة؛ فقد جفل مستمعاه كلاهما من نفيه القاطع الحاد الذي خرج فيما يشبه القوة المتفجرة. قال بارتباك وهو يحاول تخفيف أثر جوابه: إنني... إنني آسف. أنتم لم تفهموني بعد.

بدا آرغيل وكأنه يفكر. قال: "آه!"، ثم أدار رأسه نحو ابنته وقال: أظن يا هيستر أن من الأفضل أن تتركينا.

- لن أذهب! لا بد أن أسمع وأعرف كل شيء.

- قد لا يكون الأمر ساراً.

صرخت هيستر وقد نفد صبرها: ماذا يهم إن كان جاكو قد قام بأعمال مريعة أخرى؟ لقد انتهى الأمر.

تكلم كالغاري بسرعة: أرجوك، صدقيني؛ الأمر لا يتعلق بشيء فعله أخوك، بل على العكس من ذلك تماماً.

- لا أفهم.

فُتح الباب في الجهة المقابلة وعادت الفتاة التي كان كالغاري قد لمحها من قبل. كانت ترتدي معطفها استعداداً للمغادرة وتحمل حقيبة صغيرة بيدها. قالت تخاطب آرغيل: أنا ذاهبة الآن، هل تريد أي شيء آخر؟

تردد آرغيل قليلاً (ورأى كالغاري أن من شأن آرغيل أن يتردد دائماً) ثم وضع يده على ذراعها وسحبها إلى الأمام وقال: اجلسي يا غويندا. هذا هو الدكتور كالغاري. هذه الآنسة فوغان التي...

سكت ثانيةً وكأنه في شك ثم تابع: "التي هي سكرتيرتي منذ سنوات". ثم أضاف: لقد جاء الدكتور كالغاري ليقول لنا شيئاً ما، أو يسألنا بضعة أسئلة عن جاكو.

قاطعه كالغاري: جئت لأقول لكم شيئاً، وإنكم تعقِّدون عليّ الأمر رغم عدم إدراككم لذلك.

نظروا جميعاً إليه بدهشة، لكنه رأى في عيني غويندا فوغان التماعة أشبه بالاستيعاب. بدا الأمر وكأنه في حلف مؤقت معها... كما لو أنها قالت: "نعم؛ أنا أعرف، أعرف صعوبة التعامل مع عائلة آرغيل".

كانت فتاة جذابة كما رأى، مع أنها لم تكن صغيرة في السن كثيراً. ربما كانت في السابعة والثلاثين أو في الثامنة والثلاثين، ذات جسم ممتلئ وعينين سوداوين وشعر أسود وشكل عام يوحي بالحيوية والصحة، وقد أعطت انطباعاً بكفاءتها وذكائها.

قال آرغيل بشيء من البرود: لا أريد أبداً جعل الأمور صعبة

عليك يا دكتور كالغاري، لم يكن ذلك قصدي قطعاً. هلاّ تطرقت إلى الموضوع مباشرة.

- نعم، أدرك ذلك. اعذرني على ما قلت، لكنه إصرارك وإصرار ابنتك على التأكيد باستمرار بأن كل الأمور قد انتهت الآن وانتهيتم منها. لم تنتهِ الأمور. مَن ذلك الذي قال: "ما من شيء ينتهي أبداً ...."؟

أنهت الآنسة فوغان العبارة عنه: "حتى ينتهي بالشكل الصحيح". إنه قول كيبلنغ.

أومأت برأسها إليه مشجِّعة فشعر بالامتنان نحوها، ثم أكمل يقول: سوف أدخل في الموضوع، وستفهمون سبب ترددي بعد أن تسمعوا ما لديّ... بل ستفهمون مصابي. لا بد لي -بدايةً- من ذكر شيء عن نفسي. أنا متخصص بعلم فيزياء الأرض، وقد كنت مؤخراً واحداً من أفراد حملة استكشاف القطب الجنوبي، ولم أرجع إلى إنكلترا إلاّ منذ بضعة أسابيع.

سألته غويندا: هل كنت في حملة هايز بنتلي؟

التفت نحوها شاكراً لها وقال: نعم، كنت في حملة هايز بنتلي. إنني أخبركم بذلك لأوضّح لكم خلفيتي ولأوضح أيضاً بأنني كنت منقطعاً لمدة سنتين تقريباً عن... عن الحوادث الجارية.

أكملت تحاول مساعدته: تقصد بالحوادث أشياء من قبيل المحاكمات الجنائية؟

قال: "نعم يا آنسة فوغان، هذا ما عنيته بالضبط". ثم استدار نحو آرغيل وقال: أرجو أن تغفر لي إن كان وقع كلامي مؤلماً، ولكن

لا بد أن أدقّق معك في بعض الأوقات والتواريخ. في التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر) قبل سنتين، وفي نحو الساعة السادسة مساءً زاركم ابنك جاك آرغيل (أو جاكو كما تسمونه) وقابل والدته السيدة آرغيل.

- زوجتي، نعم.

- أخبَرَها أنه وقع في ورطة وطلب منها نقوداً. وقد حدث هذا من قبل.

قال ليو وهو يتنهد: مرات عديدة.

- وقد رفضت السيدة آرغيل طلبه، مما جعله عدوانياً ودفعه إلى تهديدها. ثم اندفع بقوة وغادر وهو يصيح ويعلن أنه سيعود وأن عليها "أن تدفع ما طلبه منها بالتأكيد". وقال: "أنتِ لا تريدينني أن أُسجَن، أليس كذلك؟"، وأجابته: "لقد بدأت أرى أن ذلك ربما كان الأفضل لك".

تململ ليو آرغيل في جلسته وقال: لقد تباحثنا في الأمر سوية؛ أنا وزوجتي. كنا منزعجَين من الولد تماماً، ولقد أنقذناه مرات عديدة وحاولنا إعطاءه فرصة بداية جديدة. لقد بدا لنا أن صدمة الحكم عليه بالسجن وما يلقاه هناك... ربما.

خفَتَ صوتُه ثم قال: أرجوك واصل كلامك.

أكمل كالغاري يقول: وفي وقت لاحق من ذلك المساء قُتلت زوجتك؛ هوجمت بالقضيب الحديدي للموقد وقُتلت، وقد وُجدت بصمات ابنك على القضيب، واختفى مبلغٌ كبير من النقود من أحد

أدراج المكتب كانت زوجتك قد وضعته فيه قبل ذلك. وقد وجدت الشرطة ابنك في درايموث ووجدت معه النقود. معظم النقود كانت أوراقاً نقدية من فئة الخمسة جنيهات، وقد كتب على إحداها اسمٌ وعنوانٌ ممّا مكّنَ البنكَ من التعرف عليها باعتبارها النقود التي صرفها للسيدة آرغيل صباح ذلك اليوم. وقد وُجّهت إلى جاكو التهمة وتمّت محاكمته.

صمت كالغاري قليلاً ثم قال: ثم دين بالقتل العمد.

ها قد خرجت الكلمة المشؤومة. «القتل»... ليست كلمة ذات صدى، بل هي كلمة مخنوقة. يمكن للكلمة أن تُخنَق وتُستهلَك، ولكن ذلك لا ينطبق على الفعل نفسه!

مضى كالغاري قائلاً: لقد أفهمني السيد مارشال، محامي الدفاع، بأن ابنكم قد أكّد براءته عندما أُلقي القبض عليه وذلك بأسلوب مرح واثق، إن لم نقل بأسلوب بالغ التأكيد. وقد أصرّ على أن لديه دفعاً كاملاً بالغيبة عن مكان حدوث الجريمة وقت وقوعها الذي حدّده الشرطة بين السابعة والسابعة والنصف. لقد قال جاك آرغيل إنه كان في ذلك الوقت يحاول إيقاف سيارة ما لتوصيله إلى درايموث، وإن سيارة أقلّته قبل السابعة والنصف بقليل على الطريق بين ريدمن ودرايموث، ذلك الطريق الذي يبعد مسافة ميل من هنا. لم يكن يعرف نوع السيارة (فقد كان الجو مظلماً وقتها) لكنه قال إنها سيارة سوداء أو زرقاء داكنة يقودها رجل متوسط العمر. وقد بذل الشرطة كل جهد لاقتفاء أثر السيارة وسائقها، ولكنْ لم يتسنَّ الحصول على تأكيد لهذه الأقوال. وكان المحامون أنفسهم على قناعة تامة بأن ذلك كان قصة لفقها الولد بسرعة وأن تلفيقه لم يكن ذكياً

أيضاً! وأثناء المحاكمة اعتمد الدفاع بشكل رئيسي على شهادة علماء النفس الذين حاولوا إثبات أن جاك آرغيل كان دوماً غير مستقر عقلياً، وكان القاضي لاذعاً بعض الشيء في تعليقاته على هذه الشهادة وانتهى بموقف معادٍ تماماً للمتهم. وقد حُكم على جاك آرغيل بالسجن مدة الحياة، ومات في سجنه بعد ستة أشهر من بداية تنفيذ الحكم نتيجةً لمرض ذات الرئة.

سكت كالغاري. كانت ثلاثة أزواج من العيون مثبتة عليه، وقد رأى الاهتمام والانتباه الشديد في عينَي غويندا فوغان، والشك المتبقي في عينَي هيستر، أما عينا ليو آرغيل فكانتا خاليتين من أي تعبير.

قال كالغاري: هل توافق على صحة ما ذكرتُه من حقائق؟

قال ليو: ما سردتَه صحيح تماماً، مع أنني لا أفهم ضرورة لسرد حقائق مؤلمة نحاول جميعاً نسيانها.

- أرجو أن تغفر لي، فأنا مضطر لذلك. لقد فهمتُ أنكم لا تختلفون مع المحكمة فيما أصدرته من حكم، أليس كذلك؟

- أعترف بأن الحقائق كانت كما وردت؛ أي أنك إن لم تبحث خلف الحقائق المجردة ستجد أنها جريمة قتل واضحة. ولكن إذا بحثت خلف الحقائق المجردة فسوف تجد الكثير من الظروف المخفِّفة. لقد كان الولد مضطرباً عقلياً ولكن ليس بالمعنى القانوني للاصطلاح مع الأسف. وأنا أؤكد -يا دكتور كالغاري- بأن راينا نفسها، زوجتي، ربما كانت أول من يغفر لذلك الولد البائس ويعذره لتصرفه المتهور. لقد كانت تملك تفكيراً متقدماً وإنسانياً وكانت ذات معرفة عميقة بالعوامل النفسية، وما كانت لتدينه.

قالت هيستر: كانت تعلم مدى ما يمكن أن يبلغه جاكو من فظاعة، وقد كان كذلك دائماً. بدا أنه لا يستطيع منع نفسه من هذا.

قال كالغاري ببطء: إذن جميعكم ليست لديكم شكوك؟ أعني شكوكاً في أنه مذنب؟

حملقت هيستر إليه وقالت: كيف تكون لدينا شكوك؟ كان مذنباً بالطبع.

عارضها ليو قائلاً: ليس مذنباً حقاً، إنني لا أحب هذه الكلمة.

سحب كالغاري نَفَساً عميقاً وقال: كما أنها ليست صحيحة؛ فقد كان جاك آرغيل... بريئاً!

* * *

الفصل الثاني

كان ينبغي لذلك الإعلان أن يكون مثيراً، إلاّ أن وقعه كان بارداً عليهم. كان كالغاري قد توقع ارتباكاً وفرحاً يمتزج بعدم التصديق ويتنازعه سوء الفهم أو أسئلة متلهفة، إلاّ أن شيئاً من ذلك لم يحدث. لم يظهر إلاّ الحذر والارتياب. بدت غويندا فوغان عابسة، وحملقت هيستر إليه وقد اتسعت عيناها دهشة. حسناً، ربما كان ذلك طبيعياً؛ فمثل هذا التصريح يصعب استيعابه على الفور.

قال ليو آرغيل متردداً: هل تعني -يا دكتور كالغاري- أنك توافقني على موقفي وأنك لا تراه مسؤولاً عن تصرفاته؟

- بل أقصد أنه لم يفعل ذلك! ألا يمكنك إدراك ذلك يا رجل؟ إنه لم يفعل ذلك. ما كان بوسعه قتلها، ولولا مجموعة الظروف المعقدة التعيسة شديدة الغرابة لكان بمقدوره إثبات براءته أو كان بمقدوري أنا أن أثبت براءته.

- أنت؟!

- أنا الرجل الذي أَقَلَّهُ في السيارة.

قالها ببساطة متناهية حتى إنهم لم يستوعبوا الأمر لأول وهلة،

وقبل أن يستطيعوا تمالك أنفسهم حدث ما قطع عليهم ذلك؛ إذ فُتح الباب ودخلت المرأة ذات الوجه القبيح. تحدثت مباشرة وفي صلب الموضوع قائلة: سمعت وأنا أمرّ بالباب من الخارج هذا الرجل يقول إن جاكو لم يقتل السيدة آرغيل. لماذا يقول ذلك؟ كيف له أن يعرف؟

بدا وكأن وجهها المشاكس العنيف قد بدأ يتجعد. قالت كمن يستدر الشفقة: لا بد أن أسمع أنا أيضاً، لا أستطيع البقاء في الخارج دون أن أعلم شيئاً.

قال ليو آرغيل: "طبعاً يا كريستي؛ فأنت واحدة من العائلة". ثم قال يقدمها: الآنسة ليندستروم، الدكتور كالغاري. الدكتور كالغاري يقول أشياء لا يمكن تصديقها.

دُهش كالغاري من اسم كريستي الإسكتلندي. نعم، كانت لغتها الإنكليزية ممتازة، ولكن بقيت تشوبها لكنة أجنبية خفيفة. خاطبته بلهجة اتهام قائلة: كان ينبغي ألا تأتي إلى هنا لتقول مثل هذه الأمور وتزعج الناس. لقد تقبلوا المحنة، وها أنت الآن تأتي لتزعجهم بما تقوله. إن ما حدث كان مشيئة الله.

اشمئز من قولها السطحي، وفكّر أنها ربما تكون واحدة من أولئك النساء اللاتي يستبشرن بالمصائب. حسناً، سوف يجردها الآن من كل ذلك. قال بصوت سريع جاف: في الساعة السابعة إلاّ خمس دقائق من ذلك المساء أركبت معي شاباً على الطريق الرئيسية ما بين ريدمن ودرايموث، وقد كان يشير إلى السيارات طالباً مَن يوصله. أركبته إلى درايموث وتبادلنا الحديث، وكان -على ما رأيت- شاباً جذاباً محبوباً.

قالت غويندا: "كانت لجاكو جاذبية كبيرة وكان الجميع يجدونه جذاباً، ولكن مزاحه الحاد هو الذي خذله". ثم أضافت متأملة: كما أنه كان ملتوياً بالطبع، ولكن الناس كانوا يستغرقون بعض الوقت لاكتشاف ذلك.

هاجمتها الآنسة ليندستروم قائلة: لا تقولي هذا، فهو ميت الآن.

قال ليو آرغيل بشيء من الحدة: أرجوك يا دكتور كالغاري أكمل كلامك. لماذا لم تتقدم للشهادة في ذلك الوقت؟

بدا صوت هيستر لاهثاً وهي تقول: نعم، لماذا تهربت من ذلك؟ لقد ظهرت في الصحف التماسات وإعلانات. كيف تصرفت بمثل هذه الأنانية... بمثل هذا الشر؟

زجرها والدها قائلاً: هيستر! ما زال الدكتور كالغاري يروي قصته.

خاطب كالغاري الفتاة مباشرة قائلاً: "أنا أُدرك جيداً ما تشعرين به وأدرك ما أحس به أنا نفسي... وما سوف أظل أحس به". ثم تمالك نفسه وواصل حديثه: والآن سأكمل قصتي. كانت الطرقات مزدحمة ذلك المساء، وكانت الساعة قد تجاوزت السابعة والنصف عندما أنزلت الشاب الذي لم أكن أعرف اسمه في وسط درايموث. وهذا -كما فهمت- يبرئه تماماً، طالما أن الشرطة على يقين تام بأن الجريمة قد وقعت ما بين السابعة والسابعة والنصف.

قالت هيستر: نعم، لكنك...

- اصبري من فضلك. حتى أجعلَ الأمر واضحاً أمامكم لا بد

لي من الرجوع إلى الوراء قليلاً. لقد كنت أمضي يومين في درايموث في شقة لأحد أصدقائي، وكان هذا الصديق (وهو بحار) في رحلة بحرية وقتها، وقد أعارني سيارته. في ذلك اليوم المشهود، التاسع من تشرين الثاني (نوفمبر)، كان على وشك العودة إلى لندن. قررت أن أذهب بقطار المساء وأن أقضي عصر ذلك اليوم بزيارة ممرضة عجوز كانت عائلتي على علاقة حميمة بها، وهي تسكن في بيت صغير في بولغارث على بعد نحو أربعين ميلاً إلى الغرب من درايموث. وقمت بالزيارة، ومع أنها كانت مسنة أصابها شيء من الخرف إلاّ أنها عرفتني وفرحت برؤيتي كثيراً، وزاد من انفعالها أنها كانت قد قرأت في الصحف عن رحلتي إلى القطب الجنوبي كما قالت. مكثتُ عندها وقتاً قصيراً حتى لا أرهقها، وبعد مغادرتي قررت ألا أرجع إلى درايموث مباشرةً على طول الطريق الساحلي الذي سلكتُه عند مجيئي، وبدلاً من ذلك عزمت على الذهاب شمالاً إلى ريدْمن لكي أرى رجلاً عجوزاً يدعى كانُنْ بيزمارْش. لقد كانت مكتبته تحتوي على بعض الكتب النادرة، ومن ضمنها بحث قديم عن الملاحة كنت متلهفاً على نسخ جزء منه. وكان ذلك العجوز يرفض تركيب هاتف في بيته معتبراً إياه بدعة شيطانية، وكذلك المذياع والتلفزيون والسينما والطائرات النفاثة! ولذلك كان عليّ أن أجازف بالذهاب دون موعد علّني أجده في البيت، إلاّ أنني لم أكن محظوظاً، فقد كان بيته مقفلاً ولم يكن فيه. وهكذا عدت إلى درايموث سالكاً الطريق الرئيسية ومكملاً -بذلك- الضلع الثالث في مثلث هذه الجولة، وكنت قد تركت لنفسي من الوقت ما يكفي للعودة لأخذ حقيبتي من الشقة وإعادة السيارة إلى مرآبها واللحاق بالقطار.

وفي طريقي -كما أخبرتكم- أركبت شاباً كان يشير للسيارات

لتوصيله، وبعد أن أنزلته في المدينة تابعت برنامجي الخاص. وبعد وصولي إلى المحطة كان عندي مزيد من الوقت، لذلك خرجت من المحطة إلى الشارع الرئيسي لأشتري بعض الحلوى، وبينما كنت أعبر الطريق دارت شاحنة عند إحدى الزوايا بسرعة كبيرة وصدمتني. وحسبما ذكره المارة، فقد قمت غير مصاب كما يبدو وكان تصرفي طبيعياً، وقلت لهم إنني على خير ما يرام وإن عليّ اللحاق بالقطار، وأسرعت نحو المحطة. وعندما وصل القطار إلى محطة بادينغتُن فقدت الوعي ونُقلت إلى المستشفى بسيارة إسعاف حيث تبين أنني كنت أعاني من ارتجاج في الدماغ، ويبدو أن ذلك التأخير في الشعور بالإصابة مسألة شائعة. وعندما استعدت وعيي (بعدها بعدة أيام) لم أتذكر شيئاً عن الحادث أو عن مجيئي إلى لندن، وكان آخر ما استطعت تذكّره هو ذهابي لزيارة الممرضة العجوز في بولغارث، وبعد ذلك لا شيء أبداً. وقد طمأنني ما قاله الأطباء لي بأن هذا الحادث شائع جداً، ولم يكن من داعٍ للاعتقاد بأن هذه الساعات التي ضاعت من حياتي كانت ذات أهمية كبيرة؛ إذ لم يكن لديّ أو لدى أي إنسان آخر أدنى فكرة بأنني قدت سيارة على طول الطريق من ريدمن إلى درايموث ذلك المساء.

ولم يكن أمامي وقت طويل قبل أن أغادر إنكلترا. وقد بقيت في المستشفى في هدوء تام وبلا صحف، ثم غادرت المستشفى إلى المطار للسفر إلى أستراليا والانضمام إلى الحملة الاستكشافية. كان في قدرتي الجسدية على الذهاب شك إلاّ أنني تغلبت على ذلك. وقد كنت مشغولاً جداً في استعداداتي وتلهفي مما لم يدع لي مجالاً للاهتمام بقراءة التقارير عن الجرائم وسواها من الأحداث في الصحف، وعلى أية حال كانت الإثارة تتلاشى بعد اعتقال المشتبه

بهم، وفي الوقت الذي قُدِّمت فيه القضية إلى المحاكمة وحظيت بتغطية صحفية كاملة كنت أنا في طريقي إلى القطب الجنوبي.

سكت برهة فيما الجميع يصغون إليه باهتمام شديد، ثم أكمل يقول: ومنذ نحو شهر، وبعد عودتي مباشرة إلى إنكلترا، اكتشفت الحقيقة. كنت قد طلبت بعض الصحف القديمة لتغليف بعض العيّنات، وأحضرَتْ لي صاحبةُ البيت كومةً من الصحف القديمة التي كانت عندها، وحين نشرت إحدى الصحف على الطاولة رأيت صورة شاب بدا وجهه مألوفاً لي. حاولت جهدي أن أتذكر أين قابلته ومن يكون، فلم أستطع. ولكن الغريب أنني تذكرت مع ذلك أنني قد أجريت حديثاً مع هذا الشاب، وكان الحديث حول سمك الإنكليس. كانت قصة حياة سمكة الإنكليس قد أثارت اهتمامه وفَتَنته. ولكن متى كان ذلك؟ وأين؟ ثم قرأت الخبر، فعرفت أن ذلك الشاب هو جاك آرغيل المتهم بالقتل. وقرأت أنه أخبر الشرطة بأن رجلاً أركبه معه في سيارته السوداء.

ثم استعدت ذاكرتي عن تلك الفترة الضائعة من ذاكرتي فجأةً؛ تذكّرت أنني أركبت هذا الشاب ذاته وأوصلته إلى درايموث، وتذكرت افتراقنا هناك وعودتي إلى الشقة وعبوري الشارع على قدمي، وتذكرت لمحة بسيطة عن الشاحنة وهي تصدمني، وبعدها لم أتذكر شيئاً حتى دخولي المستشفى، وما زلت لا أذكر ذهابي إلى المحطة وركوب القطار إلى لندن. أعدت قراءة الخبر مرات كثيرة. جرت المحاكمة وانتهت منذ سنة ونيف، وقد نُسيَت القضية تقريباً. قالت لي صاحبة المنزل وهي لا تكاد تتذكر: "أظنه الشاب الذي قتل أمه". وقالت إنها لا تدري ما حدث وإنها تظن أنهم أعدموه. قرأت

التقارير الأخرى التي نشرتها الصحف وقتها، ثم ذهبت إلى مكتب السيد مارشال للمحاماة الذي تولى الدفاع عن الشاب، وعندها علمت بأنني قد تأخرت كثيراً في تبرئة الولد التعس، إذ أنه قد توفي نتيجة لالتهاب رئوي أصابه وهو في السجن. ورغم أنه لم يعد بالإمكان تحقيق العدالة له، إلاّ أنه يمكن تحقيق العدالة لذكراه؛ وهكذا ذهب مع السيد مارشال إلى الشرطة. لقد وُضعت القضية الآن أمام النائب العام، ويكاد السيد مارشال يجزم بأن النائب العام سيحيلها إلى وزير الداخلية، وسوف تتلقون تقريراً وافياً منه بالطبع. وقد تأخر في إرساله لأنني كنت مهتماً بأن أكون أول من يطلعكم على الحقيقة، فقد شعرت بأن تلك محنة يتوجب عليّ خوضها. أنتم تدركون -بلا ريب- بأنني سأظل أشعر بالذنب طوال حياتي. لو كنت أكثر حرصاً في قطع الشارع!

سكت قليلاً ثم أكمل: أعلم أن مشاعركم تجاهي لن تكون طيبة أبداً، رغم أنني غير مُلام من الناحية الفنية، إلاّ أنكم جميعاً لا بد أن تضعوا عليّ اللوم.

أسرعت غويندا فوغان تقول بصوت لطيف دافئ: نحن لا نلومك أبداً بالطبع؛ إنه مجرد حادث يقع أحياناً. صحيح أنه مأساوي ولا يصدق، ولكنه يحصل.

قالت هيستر: وهل صدّقوك؟

نظر إليها وقد فوجئ بسؤالها. قالت مرة أخرى: الشرطة... هل صدقوك؟ لماذا لم يظنوا أنك قد لفقت هذه القصة؟

ابتسم قليلاً رغماً عنه وقال: إنني شاهد ذو سمعة مرموقة

وليست لي مصلحة شخصية أبغيها، وقد دققوا في روايتي جيداً وحصلوا على الشهادة الطبية وتفاصيل عديدة مؤيِّدة من درايموث. نعم؛ كان مارشال حذراً -بالطبع- كأي محامٍ آخر، فلم يشأ أن يبعث فيكم الآمال إلاّ بعد التأكد تماماً من النجاح.

تململ ليو آرغيل في كرسيه وتكلم للمرة الأولى قائلاً: ما الذي تعنيه بالنجاح بالضبط؟

أسرع كالغاري يقول: أنا آسف؛ إنها ليست الكلمة المناسبة. كان ابنكم متهماً في جريمة لم يرتكبها وقد حوكم عليها وتمت إدانته، ثم مات في سجنه. وقد جاءته العدالة متأخرة. ولكن ما يمكن تحقيقه من تلك العدالة سيتم تحقيقه بالتأكيد، وهناك مَن سيهتم بالقيام بذلك، وربما التمس وزير الداخلية من الملكة إصدار عفو عنه.

ضحكت هيستر وقالت: عفو... عن شيء لم يفعله؟

- أعرف؛ فالتسميات تبدو غير واقعية، لكني أعلم أن العادة جرت على أن تثار المسألة في مجلس العموم، وسوف يأتي الجواب موضحاً بأن جاك آرغيل لم يرتكب الجريمة التي حُكم عليه بها، وسوف تنقل الصحف تلك الحقيقة.

سكت وسكت معه الجميع. لاحظ أن الخبر كان صدمة كبيرة عليهم، لكنها صدمة مفرحة على أية حال.

وقف على قدميه وقال بشيء من الشك: أخشى أنه لم يعد لديّ ما أضيفه. أكرر أسفي الشديد وحزني على ما حدث، وأرجو منكم الصفح والغفران، كما أرجو أن تتفهموا الأمر جيداً. إن المأساة التي أنهت حياته قد جعلت حياتي حالكة، ولكن على الأقل... لا بد أن

الأمر يعني شيئاً ما. أقصد أن تعرفوا بأنه لم يفعل هذا العمل الرهيب، وأن اسمه... أو اسمكم، سوف لا تشوبه شائبة في عيون الناس.

ولئن كان يتوقع منهم رداً فإنه لم يحصل عليه. جلس ليو آرغيل مرتخياً في كرسيه، وتثبتت عينا غويندا على وجه ليو، وجلست هيستر تحملق أمامها بعينين واسعتين مأساويتين. أما الآنسة ليندستروم فتمتمت بشيء من بين أسنانها وهزت رأسها.

وقف كالغاري عند الباب يائساً ينظر إلى الخلف نحوهم. كانت غويندا فوغان هي التي استلمت زمام الوضع؛ تقدمت نحوه ووضعت يدها على ذراعه وقالت بصوت خفيض: من الأفضل أن تغادر الآن يا دكتور كالغاري. لقد كانت صدمة كبيرة ويحتاج الأمر إلى بعض الوقت حتى يستوعبوها.

أومأ برأسه وخرج، وأمام الباب انضمت إليه الآنسة ليندستروم وقالت: سأرافقك إلى الخارج.

وقبل أن يُغلَق الباب خلفه لمح -وهو ينظر إلى الوراء- غويندا فوغان وهي تجثو على ركبتها إلى جانب كرسي ليو آرغيل مما أدهشه قليلاً.

وعلى استراحة الدرج واجهته الآنسة ليندستروم ووقفت وقفة حارس وقالت بحدة: لن تستطيع إعادته إلى الحياة، فلماذا أعدت الأمر إلى أذهانهم؟ كانوا حتى هذه اللحظة قد أذعنوا للأمر، وها أنت قد جعلتهم الآن يعانون. من الأفضل دوماً ترك الأمور كما هي عليه.

كانت تتكلم باستياء، فقال آرثر كالغاري: يجب تبرئة اسمه.

- مشاعر جميلة! إنهم جميعاً على ما يرام، لكنك لا تفكر حقاً فيما يعني ذلك كله. إن الرجال لا يفكرون.

ثم ضربت الأرض بقدمها وقالت: إنني أحبهم جميعاً. وقد أتيت إلى هنا لأساعد السيدة آرغيل عام ١٩٤٠، عندما افتتحت هنا ملجأ للأطفال الذين نُسفت بيوتهم أثناء الحرب. كان هذا قبل ثمانية عشر عاماً تقريباً، ولا زلت أقيم هنا حتى بعد موتها لأعتني بالأولاد ولأحافظ على نظافة البيت وراحته وحتى أضمن لهم طعاماً جيداً. إنني أحبهم جميعاً. نعم، إنني أحبهم. وجاكو... لم يكن صالحاً! آه، نعم، لقد أحببته أيضاً، ولكنه لم يكن صالحاً!

ثم استدارت فجأةً وذهبت، وقد بدا أنها نسيت عرضها بأن توصله إلى الباب. نزل كالغاري الدرج على مهل، وبينما كان يعالج الباب الخارجي الذي نُصب عليه قفل أمان (لم يفهم سبباً لوجوده) سمع وقع خطوات خفيفاً على الدرج ورأى هيستر تنزل بسرعة.

فتحت القفل والباب، ووقف الاثنان يحدق كل منهما إلى الآخر. لم يفهم أبداً لماذا واجهته بتلك النظرة المأساوية التأنيبية. قالت بكلمات تكاد تتنفسها تنفساً: لماذا أتيت؟ آه، لماذا أتيت؟

نظر إليها يائساً وقال: أنا لا أفهمك. ألا تريدين تبرئة اسم أخيك؟ ألا تريدين له العدالة؟

أعادت إليه الكلمة قائلة: آه... العدالة!

كرر كلامه قائلاً: أنا لا أفهم.

- أنت لا تفتأ تذكر العدالة! ما الذي يستفيده جاكو من ذلك الآن؟ إنه ميت. ليس جاكو هو المهم الآن؛ بل نحن من يهم!

- ماذا تقصدين؟

- ليس المذنب هو المهم، إنما المهم البريء.

أمسكت بذراعه غارسة أصابعها فيه وقالت: نحن الذين نهم. ألا ترى ما فعلته بنا جميعاً؟

حملق إليها. وفي الظلمة في الخارج لاح شبح رجل ما لبث أن قال: دكتور كالغاري... سيارة الأجرة هنا يا سيدي لتقلّك إلى درايموث.

- آه، شكراً لك.

التفت كالغاري نحو هيستر مرة أخرى، لكنها كانت قد دخلت إلى البيت وانصفق الباب الخارجي.

* * *

الفصل الثالث

صعدت هيستر الدرج بخطوات متثاقلة وهي تدفع شعرها الأسود عن جبينها، وعند رأس الدرج قابلتها كريستي ليندستروم وقالت: هل ذهب؟

- نعم؛ ذهب.

- كانت صدمة لك يا هيستر.

وضعت كريستي ليندستروم يدها العطوفة على كتفها وقالت: تعالي معي؛ سأعطيك بعض العصير المنعش. إن ما حدث قد أثّر عليك كثيراً.

- لا أظنني أريد شيئاً يا كريستي.

- ربما لا تريدينه، ولكنه سيفيدك.

ودون أن تبدي مقاومة لحقت الفتاة بكريستي ليندستروم عبر الممر وصولاً إلى غرفة كريستي الصغيرة، وهناك أحضرت لها كأساً من عصير البرتقال فأخذته وبدأت ترشف منه رشفات خفيفة. قالت كريستي بصوت فيه نبرة من السخط: حدث هذا الأمر كله فجأةً. كان ينبغي إعطاء إنذار ما. لماذا لم يكتب لنا السيد مارشال أولاً؟

- أظن أن الدكتور كالغاري لم يسمح له، فقد أراد أن يأتي ويخبرنا بنفسه.

- يأتي ويخبرنا بنفسه؟! كيف عساه ظنّ وقع الخبر علينا؟

قالت هيستر بصوت غريب لا نبرة فيه: أظنه حسب أننا سنكون مسرورين.

- سررنا أو لم نُسَر، فإن من شأن الخبر أن يشكل صدمة لنا. ما كان ينبغي عليه فعل ذلك.

قالت هيستر وقد استعادت شيئاً من حيويتها: لكنه عمل شجاع من طرفه بطريقة ما. أقصد أنه لا يمكن أن يكون عملاً سهلاً... أن يأتي ويخبر أفراد أسرة بأن فرداً منها أدين بتهمة قتل ومات في السجن كان في الحقيقة بريئاً. نعم، أظن أنه عمل شجاع منه. لكني -مع ذلك- تمنيت لو لم يأت.

- كلنا كنّا نأمل ذلك.

نظرت هيستر إليها باهتمام ظهر فجأةً على وجهها الغارق في التفكير وقالت: إذن فأنت تشعرين بهذا أيضاً يا كريستي؟ كنت أظن أنني الوحيدة التي أشعر بذلك.

ردّت عليها الآنسة ليندستروم بحدّة: لست بالحمقاء؛ بإمكاني تخيل احتمالات معينة يبدو أن الدكتور كالغاري هذا لم يفكر بها أبداً.

نهضت هيستر وقالت: لا بد أن أذهب إلى والدي.

وافقتها كريستي قائلة: نعم، لقد أتيح له الآن من الوقت ما يفكر به بأفضل ما ينبغي فعله.

وعندما ذهبت هيستر إلى المكتبة كانت غويندا فوغان مشغولة في الحديث بالهاتف. أشار والد هيستر لها بالدخول فدخلت وجلست على ذراع كرسيّه. قال: إننا نحاول الاتصال بماري وميكي؛ ينبغي إخبارهما فوراً بهذا الأمر.

قالت غويندا فوغان: مرحباً، السيدة ديورانت؟ ماري؟ معك غويندا فوغان. والدك يريد التحدث إليك.

ذهب ليو وأخذ السماعة: ماري؟ كيف حالك؟ كيف حال فيليب؟... جيد. لقد حدث شيء غريب رأيت أنه من الواجب إبلاغك به على الفور. لقد جاء قبل قليل شخص يدعى الدكتور كالغاري لزيارتنا، وقد أحضر معه رسالة من أندرو مارشال، وهي بخصوص جاكو. يبدو أن... الواقع أنه شيء غريب جداً... يبدو أن رواية جاكو التي قالها في المحكمة عن شخص أركبه معه في سيارته إلى درايموث رواية صحيحة تماماً. الدكتورَ كالغاري هذا هو الشخص الذي أركبه معه.

سكت وهو يصغي إلى ما كانت ابنته تقوله على الطرف الآخر من الهاتف، ثم قال: نعم، لن أخوض في كل التفاصيل الآن يا ماري فيما يتعلق بسبب عدم تقدمه للشهادة في ذلك الوقت. لقد وقع له حادث... ارتجاج في الدماغ. يبدو أن روايته كلها موثقة تماماً. لقد اتصلت لأنني أرى أن علينا أن نعقد اجتماعاً هنا في أقرب وقت ممكن، ومن الممكن دعوة مارشال إلى المجيء لنناقش معه المسألة. أظن أن علينا أن نحصل على أفضل مشورة قانونية. هل

يمكنك المجيء ، م فيليب؟ نعم... نعم... أعرف، لكني أعتقد أنه أمر هام يا عزيزتي. نعم .. خابريني فيما بعد إن شئت. يجب أن أحاول الاتصال بميكي.

ثم وضع السماعة، فجاءت غويندا فوغان إلى الهاتف وقالت: هل أحاول الاتصال بميكي الآن؟

قالت هيستر: إن كان هذا سيأخذ منك وقتاً فأرجو أن تسمحي لي بالاتصال أولاً؛ فأنا أريد مكالمة دونالد.

قال ليو: بالطبع. هل ستخرجين معه هذا المساء؟

قالت هيستر: كنت سأخرج.

نظر والدها إليها نظرة حادة وقال: هل ضايقك هذا الأمر كثيراً يا عزيزتي؟

- لا أدري، لا أدري حقيقة شعوري بالضبط.

فسحت غويندا لها الطريق لكي تتصل بالهاتف، وطلبت هيستر الرقم: هل يمكنني الحديث مع الدكتور كريغ من فضلك؟ نعم، نعم؛ هيستر آرغيل هي التي تتكلم.

تأخر الطرف الآخر بضع لحظات ثم قالت هيستر: أهذا أنت يا رونالد؟ لقد اتصلت لأقول بأنني لن أتمكن من الذهاب معك إلى المحاضرة هذه الليلة. لا، لست مريضة... ليس الأمر هكذا... إنه، إنه... فقط بسبب تلقينا بعض الأخبار الغريبة قبل قليل.

ومرة أخرى تحدث الدكتور كريغ. التفتت هيستر إلى والدها وقد ضعت يدها على سماعة الهاتف وقالت تخاطبه: أهو سر؟

ردّ عليها ليو ببطء: لا، لا، ليس سراً بالضبط ولكن... أرجو أن يبقي رونالد الأمر سراً في الوقت الحالي. تعرفين كيف تدور الشائعات وتكبر.

- نعم، أعرف.

ثم عادت تتحدث بالهاتف: أظن أنه خبر يمكنك أن تعتبره ساراً إلى حد ما يا رونالد، ولكنه مزعج بعض الشيء. من الأفضل ألاّ أتحدث به عبر الهاتف. لا... لا، لا تأتِ إلى هنا... أرجوك لا تفعل. ليس هذه الليلة، غداً في أي وقت. إنه بخصوص جاكو. نعم، نعم، أخي. لقد اكتشفنا أنه لم يقتل والدتي بعد كل هذا. ولكن أرجو ألاّ تخبر أحداً بشيء من هذا يا رونالد. سأخبرك غداً بكل شيء... لا يا دونالد، لا... لا أستطيع رؤية أحد هذه الليلة... ولا أنت. أرجوك، ولا تقل شيئاً لأحد.

ثم وضعت السماعة وأشارت إلى غويندا لتأتي وتتصل. طلبت غويندا رقماً في درايموث، وقال ليو بهدوء: لِمَ لا تذهبين إلى المحاضرة مع رونالد يا هيستر؟ سوف يُنسيك ذلك ما حدث.

- لا أريد ذلك يا أبي؛ لا أستطيع.

- لقد تكلمتِ... أعطيتِه انطباعاً بأنه ليس خبراً جيداً، لكنك تعرفين -يا هيستر- أن الأمر ليس كذلك. لقد فوجئنا لكننا جميعاً سعداء جداً بخصوصه... مسرورون جداً. وإلاّ كيف عسانا نكون؟

- هذا ما سنقوله، أليس كذلك؟

قال ليو محذراً: يا ابنتي العزيزة!

- لكنه ليس صحيحاً. إنه ليس خبراً ساراً، بل هو مزعج جداً.

قالت غويندا: ميكي على الخط.

جاء ليو مرة أخرى وتناول منها السماعة. تحدث مع ابنه كما تحدث مع ابنته من قبل، لكن ميكي تلقى الخبر بطريقة مختلفة عمّا تلقته أخته ماري ديورانت، فميكي لم يحتجّ أو يذهل أو يبدي عدم تصديق، بل كانت موافقته سريعة.

قال ميكي: ما هذا؟ بعد كل هذا الوقت؟ الشاهد المفقود! حسناً، حسناً، كان حظ جاكو سيئاً في تلك الليلة.

تحدث ليو ثانية. أصغى ميكي ثم قال: نعم؛ أتفق معك فيما قلت. من الأفضل أن نجتمع في أسرع وقت ممكن وأن نحضر مارشال لسماع نصيحته أيضاً.

ثم ضحك ضحكة سريعة مفاجئة، الضحكة التي يتذكرها ليو جيداً من الولد الصغير الذي كان يلعب في الحديقة خارج النافذة، ثم قال: وما هو الرهان الآن؟ من منّا فعلها؟

وضع ليو السماعة وترك الهاتف فجأةً.

سألته غويندا: ماذا قال؟

أخبرها ليو بما قال، فقالت غويندا: يبدو لي أنها مزحة سخيفة هذه التي قالها.

نظر ليو إليها نظرة سريعة ثم قال بلطف: ربما لم تكن مزحة تماماً.

* * *

دخلت ماري ديورانت الغرفة ورفعت عن الأرض بعض أوراق النبات التي تساقطت من طاقة زهر كانت في إحدى المزهريات، ثم وضعتها في سلة المهملات بحذر. كانت ماري شابة في السابعة والعشرين من عمرها، طويلة القامة هادئة المظهر. وعلى الرغم من عدم ظهور التجاعيد على وجهها إلاّ أنها بدت أكبر سنّاً من عمرها الحقيقي، الأمر الذي ربما كان ناتجاً عن نضجها الوقور الذي بدا جزءاً من تركيبتها. كانت لها ملامح جميلة دون أثر للفتنة أو الجاذبية؛ ملامح عادية، وبشرة جيدة، وعينان زرقاوان تشعان حيوية، وشعر أشقر ممشط إلى الخلف ومجمَّع في كتلة ضخمة خلف رقبتها، وهي تسريحة صدف أن كانت «موضة» الموسم، رغم أن ذلك لم يكن السبب الذي جعلها ترتب شعرها بتلك الطريقة. لقد كانت امرأة تحافظ دوماً على أسلوبها الخاص، وكان مظهرها -مثل بيتها- أنيقاً مرتباً، إذ كان من شأن أي غبار أو فوضى أن يزعجها.

ابتسم الرجل المقعد الذي كان جالساً يرقبها وهي تضع الأوراق الساقطة في سلة المهملات، ابتسم ابتسامة تشي بشيء من التهكم وقال: امرأة مرتبة دوماً؛ مكان لكل شيء وكل شيء في مكانه.

ثم ضحك ضحكة فيها أثر خفيف من الخبث. لكن ماري لم تنزعج أبداً وقالت: أحب أن يكون كل شيء مرتباً فعلاً. أنت تعرف -يا فيل- أن البيت لو كان في حالة فوضى لما رضيت أنت بذلك.

ردّ عليها زوجها بنبرة فيها أثر من المرارة: إنني -على أية حال- لا أملك فرصة جعله كذلك.

بعد زواج فيليب ديورانت بوقت قصير وقع ضحية الشلل. وقد أصبح -بالنسبة لماري التي كانت تحبه حباً جمّاً- طفلها إضافة إلى

كونه زوجها، حتى لقد أحس في بعض الأحيان بشيء من الحرج من حبها التملكي. لم يكن لديها من الخيال ما يجعلها تدرك أن ما تجده من متعة في اعتماده عليها كان يزعجه أحياناً.

أكمل يقول بسرعة وكأنه يخشى صدور كلمة عطف أو مواساة منها: لا بد من القول بأن خبر والدك هذا يجلّ عن الوصف! بعد كل هذا الوقت؟ كيف يمكنك البقاء هادئة بخصوصه؟

- إنني لا أكاد أستوعب الأمر... إنه خبر غريب جداً. في البداية لم أستطع تصديق ما كان أبي يقوله. لو كانت هيستر هي التي أخبرتني لظننت أنها تتخيل الأمر كله، فأنت تعرف طبيعتها.

فقَدَ وجهُ فيليب ديورانت قليلاً من مرارته، قال بهدوء: إنها فتاة عاطفية جداً، تنطلق في هذه الحياة بحثاً عن المتاعب، وهي تجدها بالتأكيد.

نحَّت ماري تحليله بإشارة من يدها، إذ لم تكن تهتم بشخصيات الآخرين. وقالت بارتياب: أتظن الأمرَ صحيحاً؟ أم أتظن أن هذا الرجل ربما كان يتخيل ما قاله؟

- بسبب الشرود الذهني للعلماء؟ من شأن هذا الظن أن يكون مريحاً، ولكن يبدو أن أندرو مارشال قد أخذ الأمر على محمل الجد. وأؤكد لك أن مارشال وشركة المحاماة التي يديرها ليسوا من النوع الذي يقتنع بسهولة.

قالت ماري ديورانت عابسة: ماذا سيعني ذلك عملياً يا فيليب؟

قال فيليب: يعني أن جاكو ستتم تبرئته تماماً. هذا إذا اقتنعت

السلطات المعنية... وأظن أنه ما من خيار أمامها سوى الاقتناع.

- حسناً، أظن الأمر كله رائعاً تماماً.

ضحك فيليب مرة أخرى نفس الضحكة الساخرة المريرة وقال: بولي! ستكونين سبب موتي.

وحده زوجها الذي كان يناديها باسم «بولي». كان اسماً لا يناسب مظهرها المهيب أبداً. نظرت إلى فيليب بشيء من الدهشة وقالت: لا أفهم ما الذي قلتُه وجعلك مسروراً إلى هذا الحد.

- لقد قلتِ عبارتك تلك بكثير من الجلال! كأنك ليدي تثني على معرض خيري للّوحات في بعض المعارض الفنية.

قالت ماري وعلامات الحيرة على وجهها: ولكنه فعلاً رائع! لا يمكنك الزعم أن وجود قاتل في العائلة كان أمراً يبعث على الرضا.

- ليس في العائلة حقيقة.

- الأمر نفسه عملياً. أقصد كان أمراً مزعجاً ويبعث على القلق. كان الناس متلهفين وفضوليين، ولقد كرهت ذلك كله.

- ولكنك تعاملت مع الأمر بشكل جيد جداً؛ لقد جمّدتِهم بنظراتك الباردة وجعلتِهم يخرسون ويخجلون من أنفسهم. كانت قدرتك على عدم إظهار أي انفعال مسألة رائعة.

- لقد كرهت ذلك كله. كان عملاً بغيضاً جداً، لكنه مات وانتهى كل شيء على أي حال. والآن أظن أن كل شيء سيثار من جديد. أمر مضجر جداً.

قال فيليب ديورانت متأملاً: "نعم"، ثم حرّك كتفيه قليلاً وقد ارتسم على وجهه تعبير ألم بسيط.

أسرعت زوجته إليه وقالت: هل تشعر بتشنج؟ انتظر. دعني آخذ هذه الوسادة. جيد. هل هذا أفضل؟

- كان يجب أن تكوني ممرضة.

- ليست عندي أية رغبة في تمريض أحد من الناس سواك.

قالتها ببساطة متناهية، ولكن كانت وراء هذه الكلمات المجردة مشاعر عميقة. رنّ الهاتف فذهبت ماري ورفعت السماعة: آلو... نعم، تتكلم. آه، هذا أنت؟

ثم قالت تخاطب فيليب: إنه ميكي.

- نعم، نعم، سمعنا. لقد اتصل والدي بنا... بالطبع... نعم، نعم. يرى فيليب أنه إن كان المحامي مقتنعاً بالأمر فلا بد أنه صحيح تماماً. لا أدري لماذا أنت متضايق جداً يا ميكي... لا أرى سبباً يدعوك لوصفي بالغباء... الحقيقة، ميكي، لا أظن أنك... آلو... آلو!

قالت تخاطب زوجها غاضبة: "لقد وضع السماعة"، ثم وضعت سماعة الهاتف وقالت: الحق يا فيليب أنني لا أستطيع فهم ميكي.

- ما الذي قاله بالضبط؟

- يبدو أنه متوتر. قال إنني غبية وإنني لا أدرك العواقب. "سندفع الكثير"، هكذا قال. ولكن لماذا؟ إنني لا أفهم.

قال فيليب متأملاً: كان مذعوراً، أليس كذلك؟

- ولكن لماذا؟

- إنه على حق؛ ستكون عواقب.

بدت ماري محتارة بعض الشيء وقالت: هل تقصد أنه سيظهر اهتمام بالقضية من جديد؟ إنني مسرورة لأن جاكو بريء بالطبع، ولكن سيكون من المزعج أن يبدأ الناس الحديث عن القضية من جديد.

- الأمر ليس ما سيقوله الجيران، بل إن فيه ما هو أبعد من ذلك.

نظرت إليه متسائلة فقال: الشرطة أيضاً سيهتمون.

ردّت ماري بحدة: الشرطة؟ وما علاقتهم بالأمر؟

- فكري يا عزيزتي.

عادت ماري وجلست بجانبه. قال فيليب: لقد عادت الآن جريمة لم تُحَلّ.

- ولكن لا أظنهم سيهتمون... بعد مضي كل هذا الوقت؟

- هذا خير مثال للرأي الذي يقوله صاحبه أملاً في أن يكون صحيحاً، ولكنه رأي غير صحيح.

- من المؤكد أنهم لن يرغبوا بإثارة الموضوع ثانية بعد أن ظهر غباؤهم في اتهام جاكو بالجريمة.

- قد لا يرغبون بذلك... ولكن ربما اضطروا لإثارة الأمر؛ فالواجب هو الواجب.

- آه، أنا واثقة من أنك مخطئ يا فيليب. لن تكون إلاّ بعض الأقاويل، ثم يهدأ كل شيء.

ردّ عليها فيليب هازئاً: وبعدها سنعيش حياتنا بسعادة وهناء.

- ولِمَ لا؟

هزّ رأسه بالنفي وقال: الأمر ليس بهذه السهولة. والدك على حق؛ يجب أن نجتمع جميعاً ونتشاور ونطلب من مارشال القدوم أيضاً كما قال والدك.

- هل تعني... أن نذهب إلى «صني بوينت»؟

- نعم.

- لا يمكننا ذلك.

- ولِمَ لا؟

- هذا ليس عملياً. فأنت عاجز و...

أجابها فيليب غاضباً: لست عاجزاً. إنني قوي معافى. كل ما في الأمر أنني فقدت القدرة على استخدام ساقيّ، ولكن يمكنني الذهاب إلى أقصى الأرض بوسيلة مواصلات مناسبة.

- أنا متأكدة أنه ليس من المناسب لك الذهاب إلى «صني بوينت»، مع إثارة ذلك الموضوع الكريه من جديد.

- ليس عقلي هو المصاب.

- كما أنني لا أفهم كيف سنترك البيت. لقد حدثت سرقات كثيرة في الفترة الأخيرة.

- نحضر شخصاً لينام هنا.

- من السهل قول هذا... إنك تقوله وكأنه أسهل شيء في العالم.

- إن أية امرأة عجوز يمكنها المجيء كل يوم. يكفي هذه الاعتراضات يا بولي؛ الحقيقة أنك أنت التي لا تريدين الذهاب.

- نعم؛ لا أريد.

قال فيليب يطمئنها: لن يطول بنا المقام هناك، لكني أرى أننا يجب أن نذهب. هذا وقتٌ ينبغي فيه على العائلة أن تُظهر موقفاً موحداً أمام العالم. يجب أن نعرف بالضبط ما هو وضعنا.

* * *

تناول كالغاري عشاءه مبكراً في فندقه في درايموث ثم صعد إلى غرفته. لقد أحس بعميق التأثر ممّا مرّ به في «صني بوينت». كان يتوقع أن تكون مهمته مؤلمة، وقد تطلب الأمر منه كل عزم وحسم لينجزها، ولكن الأمر كله كان مؤلماً ومزعجاً بصورة مختلفة تماماً عن الشكل الذي توقعه. ألقى بنفسه على السرير وبدأ يفكر ويفكر بذلك الأمر.

أوضحُ صورة تراءت لمخيلته كانت وجه هيستر في لحظة الافتراق تلك ورفضها المزدري لعذره بالسعي لتحقيق العدالة. ما الذي قالته؟ "إن البريء هو الذي يهم وليس المذنب". ثم قالت: "ألا تدرك ما فعلتَه بنا جميعاً؟". ولكن ما الذي فعله؟ لم يفهم.

والآخرون. المرأة التي يسمونها كريستي (لماذا كريستي؟ إنه

اسم إسكتلندي. لكنها لم تكن إسكتلندية، بل ربما كانت دانمركية أو نرويجية). لماذا كانت تتكلم بقسوة وصرامة، بأسلوب اتهامي؟

كان ثمة شيء غريب أيضاً في موقف ليو آرغيل في حياديته وابتعاده كما في يقظته وترقبه. لم يكن لسان حاله يقول: "الحمد لله لأن ابني كان بريئاً" الأمر الذي كان -بالتأكيد- ردَّ فعلٍ طبيعياً.

وتلك الفتاة... سكرتيرة ليو. كانت لطيفة وساعدته، لكنها -أيضاً- تصرفت بطريقة غريبة. تذكر الطريقة التي جثت بها على ركبتها بجانب كرسي آرغيل وكأنها... وكأنها كانت تتعاطف معه وتواسيه. تواسيه على ماذا؟ على أن ابنه لم يكن مذنباً بتهمة القتل؟! يوجد بالتأكيد... نعم، بالتأكيد يوجد أكثر من مجرد مشاعر سكرتيرة نحو مديرها... حتى لو كانت سكرتيرة قديمة. لماذا كان كل ذلك؟ لماذا كان الجميع...

رنّ الهاتف على الطاولة قرب السرير. رفع السماعة قائلاً: نعم؟

- دكتور كالغاري؟ يوجد هنا شخص يسأل عنك.

- يسأل عني؟

لقد فوجئ؛ فحسب علمه لم يكن أحد يعرف أنه كان يقضي الليلة في درايموث. سأل: من هو؟

سكت الموظف على الطرف الآخر قليلاً ثم قال: إنه السيد آرغيل.

- آه، أخبره...

أمسك آرثر كالغاري عن القول بأنه سينزل لمقابلته؛ فإن كان ليو آرغيل قد تبعه إلى درايموث لسبب معين وتمكّن من معرفة مكان إقامته، فإنه سيكون من المحرج مناقشة ما يريد في قاعة مكتظة بالزوار. قال للموظف: قل له أن يصعد إلى غرفتي من فضلك.

نهض من سريره وراح يمشي في الغرفة جيئة وذهاباً إلى أن سمع دقات على الباب. ذهب وفتح الباب: تفضل يا سيد آرغيل، إنني...

ثم سكت وقد فاجأه ما رآه. لم يكن الزائر هو ليو آرغيل، بل كان شاباً في أوائل العشرينيات؛ شاباً ارتسمت على وجهه الأسمر الوسيم أمارات المرارة. كان وجهاً متهوراً غاضباً. قال الشاب: أنت لم تتوقعني، توقعت أن يكون والدي. أنا مايكل آرغيل.

- تفضل.

أغلق كالغاري الباب بعد أن دخل زائره، ثم سأله: كيف عرفت أنني هنا؟

ضحك مايكل آرغيل ضحكة قصيرة كريهة وقال: هذه سهلة! اتصلت بالفنادق الرئيسية لمعرفة أين يمكن أن تقضي هذه الليلة، ونجحت من ثاني محاولة.

- ولماذا تريد رؤيتي؟

ردّ عليه مايكل آرغيل ببطء: أردت أن أرى أي نوع من الرجال أنت.

ثم نظر إلى كالغاري نظرة تقييم ليرى انحدار كتفيه وشعره

الأشيب ووجهه النحيل الحساس، ملاحظاً الكتفين المحدودبتين قليلاً والشعر الرمادي، ثم أكمل يقول: إذن فأنت أحد الرجال الذين ذهبوا في حملة هايس بنتلي الاستكشافية إلى القطب. إنك لا تبدو قوي البنية.

ابتسم آرثر كالغاري ابتسامة باهتة وقال: المظاهر تخدع أحياناً؛ لقد كنت قوياً بما فيه الكفاية. لم تكن الحاجة الفعلية إلى القوة العضلية، بل إلى صفات هامة أخرى كالقدرة على التحمل والصبر والمعرفة التقنية.

- كم عمرك، خمسة وأربعون عاماً؟

- بل ثمانية وثلاثون.

- تبدو أكبر من ذلك.

- نعم، نعم، أظن ذلك.

عبرت وجهَه -للحظة- مشاعرُ حادة من الحزن وهو يواجه الشباب النشط المتدفق للولد الجالس قبالته، ثم ما لبث أن سأله فجأةً: ولماذا تريد رؤيتي؟

صاح الآخر: إنه أمر طبيعي، أليس كذلك؟ بعد سماعي بالخبر الذي جئت به، الخبر المتعلق بأخي العزيز.

لم يردّ عليه كالغاري، فأكمل مايكل آرغيل يقول: لقد جاء الخبر متأخراً بعض الشيء بالنسبة له، أليس كذلك؟

قال كالغاري بصوت خفيض: نعم؛ لقد تأخر الوقت بالنسبة له.

- ولماذا سكتّ كل هذه المدة؟ ما هذا الذي تقوله بخصوص ارتجاج المخ؟

أخبره كالغاري صابراً، والغريب أن خشونة الولد ورعونته قد شجعتا كالغاري على الكلام، فها هو يرى -على الأقل- شخصاً يشعر شعوراً قوياً تجاه أخيه. وأخيراً قال مايكل: النقطة الرئيسية هي أن قصتك تعطي جاكو دليل براءة، أليس كذلك؟ وكيف تعرف أن الأوقات التي قلتها كانت دقيقة ومضبوطة؟

قال كالغاري بقوة وحزم: إنني متأكد تماماً من الأوقات.

- ربما تكون قد أخطأت، فأنتم -معشر العلماء- ميّالون لأن تكونوا شاردي الذهن أحياناً عندما يتعلق الأمر بأشياء بسيطة مثل الأوقات والأماكن.

أبدى كالغاري بعض السرور وقال: لقد رسمتَ لنفسك صورة أخذتها من القصص حول العالم شارد الذهن. يرتدي جوارب غريبة، ولا يعرف تماماً في أي يومٍ هو أو في أيّ مكان. ولكن العمل التقني -أيها الشاب العزيز- يحتاج إلى دقة كبيرة: مقادير مضبوطة وأوقات مضبوطة وحسابات مضبوطة. أؤكد لك عدم وجود احتمال لوقوعي في الخطأ. لقد أركبت أخاك بسيارتي قبل السابعة بقليل وأنزلته في درايموث في الساعة السابعة وخمس وثلاثين دقيقة.

- ربما تكون ساعتك غير صحيحة، أو أنك اعتمدت ساعة سيارتك.

- كانت ساعتي وساعة السيارة تشيران إلى نفس الوقت بالضبط.

- ربما ضلّلك جاكو على نحو ما، فقد كان كثير الحيل والمكائد.

قال كالغاري: "لم تكن في المسألة أية حيل. لماذا أنتم حريصون كل هذا الحرص على إثبات خطئي؟". ثم أكمل بانفعال: كنت أتوقع صعوبة في إقناع السلطات المعنية بأنها دانت رجلاً وحكمت عليه ظلماً، ولكني لم أتوقع مواجهة مثل هذه الصعوبة في إقناع عائلته!

- إذن فقد وجدت صعوبة في إقناع جميع أفراد العائلة؟

- لقد بدا ردّ فعلكم غريباً بعض الشيء.

نظر ميكي إليه بإمعان وقال: ألم يريدوا تصديقك؟

- كاد... كاد الأمر يبدو كذلك!

- بل إنه كان كذلك فعلاً، وهو أمر طبيعي أيضاً إن فكرت فيه.

- ولكن لماذا؟ لماذا يكون طبيعياً؟ لقد قُتلت أمك واتُّهم أخوك ودين بالجريمة، وقد ظهر الآن أنه كان بريئاً. يجب أن تكون مسروراً وتحمد الله فهو أخوك.

- لم يكن أخي... وهي لم تكن أمي.

- ماذا؟!

- ألم يخبرك أحد؟ كلنا أبناء بالتبني، جميعنا. ماري، «أختي» الكبرى، تمّ تبنيها في نيويورك، أمّا بقيتنا فأثناء الحرب. إن «أمي» -كما نسميها- لم تستطع إنجاب أطفال، ولذلك كونت لنفسها عائلة صغيرة وجميلة عن طريق التبني. ماري وأنا وتينا وهيستر وجاكو... وكان بيتاً مريحاً مترفاً فيه الكثير من عاطفة الأمومة، إذ أظن أنها نسيت أننا لم نكن أولادها الحقيقيين. لكنها لم تكن محظوظة عندما أحضرت جاكو وتبنته.

قال كالغاري: لم أكن أعرف.

- لذلك لا تقل لي «أمك» و«أخوك»... كان جاكو ولداً خسيساً!

- لكنه لم يكن قاتلاً.

كان صوته جازماً. نظر ميكي إليه ثم قال: حسناً؛ هذا ما تقوله أنت، وستصرّ عليه. جاكو لم يقتلها. هذا جيد... مَن الذي قتلها إذن؟ إنك لم تفكر في هذا، أليس كذلك؟ فكر فيه الآن. فكر فيه... وعندها ستبدأ فهم الحقيقة، ما تفعله بنا جميعاً!

ثم استدار وخرج من الغرفة فجأةً.

* * *

الفصل الرابع

قال كالغاري معتذراً: شكراً على تكرمك وموافقتك على رؤيتي مرة أخرى يا سيد مارشال.

قال المحامي: لا يوجد ما يستحق الشكر.

- كما تعرف؛ فقد ذهبت إلى «صني بوينت» ورأيت عائلة جاك آرغيل.

- صحيح.

- أظن أن أنباء زيارتي قد وصلتك؟

- نعم يا دكتور كالغاري، هذا صحيح.

- قد تجد صعوبة في فهم سبب عودتي إليك ثانية، ولكن الأمور لم تسر تماماً كما حسبتُها ستسير.

- نعم، نعم؛ ربما لم يجرِ ذلك.

كان صوته -كعادته- جافاً خالياً من العاطفة، ومع ذلك كان فيه ما شجع آرثر كالغاري على الاستمرار: كنت أظن أن ذلك سيكون نهاية المطاف. كنت مستعداً لمواجهة قدر ما من... من السخط

الطبيعي من جانبهم. ورغم أن ارتجاج الدماغ أمر لا بد للإنسان فيه إلاّ أنه يمكن للمرء -إذا ما نظر إلى الأمر من منظورهم- أن يغفر لهم مثل ذلك السخط، لكنني رجوت في نفس الوقت أن أجد مقابل ذلك السخط شيئاً من العرفان الذي سيشعرون به لأنه تمّ تبرئة جاكو آرغيل. غير أن الأمور لم تجرِ كما توقعت، أبداً.

- فهمت.

- ربما كنتَ قد توقعتَ شيئاً ممّا حدث يا سيد مارشال! أذكر أن موقفك قد حيّرني عندما جئت إليك أول مرة. هل توقعت الموقف الذي كنت سأواجهه؟

- أنت لم تخبرني يا دكتور كالغاري عن حقيقة ذلك الموقف بعد.

سحب آرثر كالغاري كرسيه إلى الأمام وقال: كنت أحسب أنني أضع نهاية لشيء، أو لنقل أضع نهاية مختلفة لفصل مكتوب أصلاً. لكنهم جعلوني أشعر (بل جعلوني أفهم...) أنني بدلاً من إنهاء شيء كنت أبدأ شيئاً، شيئاً جديداً تماماً. هل تعتقد أن هذا وصف حقيقي للموقف؟

أومأ السيد مارشال برأسه ببطء وقال: نعم، يمكنك التعبير عنه هكذا. عليّ أن أقول إنني رأيتك غيرَ مدرك تماماً لكل ما ينطوي عليه الموقف، وما كان لأحدٍ أن يتوقع ذلك منك لأنك -طبعاً- لا تعلم شيئاً عن خلفية الأحداث وحقائقها باستثناء ما ورد في تغطية الصحافة للقضية.

قال كالغاري: "بلى، بلى؛ إنني أفهم هذا الآن. أفهمه بكل

وضوح". ثم ارتفع صوته وهو يكمل حديثه منفعلاً: لم يكن ما شعروا به ارتياحاً أو عرفاناً، بل شعروا بالخوف؛ الخوف من شيء قد يأتي. هل كلامي صحيح؟

ردّ عليه مارشال بحذر: أظن أن كلامك ربما كان صحيحاً، ولكن أرجو أن تنتبه إلى أنني لا أتكلم من خلال معرفةٍ شخصية أمتلكها.

أكمل كالغاري يقول: وفي هذه الحالة فإنني لم أعد أشعر أن باستطاعتي العودة إلى عملي راضياً مطمئناً إلى قيامي بالإجراء الوحيد الذي قصدت منه تصحيح الأمور؛ فأنا ما زلت معنياً بالأمر. إنني مسؤول عن إدخال عامل جديد في حياة عدة أشخاص، ولا يمكنني ترك الأمر هكذا ببساطة.

تنحنح المحامي ثم قال: ربما تكون هذه وجهة نظر غريبة بعض الشيء يا دكتور كالغاري.

- لا أظن أنها كذلك... أبداً. يجب أن يكون المرء مسؤولاً عن أفعاله، وليس عن أفعاله فقط بل عن نتائج أفعاله أيضاً. قبل سنتين فقط أركبت عابر سبيل على الطريق، ولقد أطلقتُ -بعملي ذاك- سلسلة من الأحداث التي لا أظن أن باستطاعتي فكّ ارتباطي بها.

استمر المحامي في هزِّ رأسه دلالة على عدم الاقتناع، فقال كالغاري بنفاد صبر: حسنٌ إذن. سمِّها خيالاً إن شئتَ، ولكن أحاسيسي ما تزال معنية، وكذلك ضميري. كانت أمنيتي الوحيدة إصلاح أمر لم يكن منعه ضمن طاقتي، ولكنني لم أصلح الأمر، بل

إنني ساهمت -بطريقة غريبة ما- في زيادة الأمور سوءاً بالنسبة لأناس كانوا قد عانوا أصلاً. لكني ما زلت لا أفهم السبب فهماً واضحاً.

قال مارشال ببطء: نعم، نعم، ما كنتَ لتفهم السبب؛ فأنت منذ ثمانية عشر شهراً أو قريباً من ذلك لم تكن على اتصال بهذا العالم ولم تقرأ الصحف اليومية وما نشرته من تقارير حول هذه العائلة. وربما لم تكن لتقرأها حتى لو كنت هنا، ولكنك في تلك الحالة لم يكن بوسعك تجنب سماع بعضٍ منها. الحقائق بسيطة جداً يا دكتور كالغاري. إنها ليست سرية، لقد أذيعت ونشرت في ذلك الوقت. إذا لم يكن جاك آرغيل قد ارتكب الجريمة (وحسب روايتك لا يمكن أن يكون قد ارتكبها) فمن الذي فعلها إذن؟ إن هذا يعيدنا إلى الظروف والملابسات التي وقعت فيها الجريمة. لقد وقعت بين الساعة السابعة والسابعة والنصف من ليلة من ليالي نوفمبر في بيت كانت المرأة القتيلة محاطة فيه بأفراد أسرتها وخدمها. كان البيت مقفلاً بأمان، ولئن كان شخص غريب قد دخله من الخارج فلا بد أن تكون السيدة آرغيل هي التي أذنت له بالدخول أو أن يكون قد دخل باستخدام مفتاحه الخاص؛ بمعنى أنه لا بد أن يكون شخصاً تعرفه. هل فهمت الآن -يا دكتور كالغاري- لماذا بدا القلق على أفراد العائلة ولم يظهر عليهم الارتياح من الخبر الذي سقته لهم؟

قال كالغاري ببطء: أتعني أنهم يفضّلون كونَ جاك آرغيل مذنباً؟

- آه، نعم، نعم، إنهم يفضلون ذلك بالتأكيد. لو كان لي أن أعبر عن ذلك بأسلوب متهكم تشكيكي لقلت إن جاك آرغيل كان الحلَّ المثالي لتلك الجريمة الكريهة في العائلة؛ فقد كان طفلاً

مشاكساً صعب الانقياد، ثم صبياً منحرفاً، ثم رجلاً ذا مزاج عنيف. وقد كان بالإمكان تبرير أعماله، وقد كانت تبرَّر فعلاً داخل العائلة. كان بوسعهم أن يحزنوا عليه ويتعاطفوا معه ويعلنوا بينهم وبين أنفسهم وللعالم أجمع بأن الجريمة لم تكن حقاً نتيجة خطأ منه، وقد يستطيع علماء النفس توضيح كل شيء! نعم، كان هذا الاعتقاد مناسباً تماماً لهم.

قال كالغاري: أما الآن...

قال السيد مارشال: أما الآن، فالأمر مختلف بالطبع، مختلف تماماً. بل ربما كان مخيفاً.

قال كالغاري بمكر: أظنك أنت أيضاً لم ترحب بالخبر الذي جئتُ به، أليس كذلك؟

- لا بد أن أعترف بالحقيقة. نعم، نعم؛ يجب أن أعترف بأنني كنت... متضايقاً. قضية انتهت نهاية مُرْضية... نعم، سأظل أستخدم كلمة «مُرْضية»... والآن يُعاد فتحها.

سأل كالغاري: هل هذا كلام رسمي؟ أقصد هل سيعاد فتح القضية من وجهة نظر الشرطة؟

- آه، بلا شك. عندما وُجد جاك آرغيل مذنباً بدليل لا لبس فيه (ولم تستغرق لجنة المحلفين سوى ربع ساعة لاتخاذ قرارها) كان ذلك نهاية الأمر من وجهة نظر الشرطة، ولكن الآن عندما يُمنح المذنب عفواً وتُبرَّؤ ساحته، لا بد من فتح القضية من جديد.

- وهل سيقوم الشرطة بتحقيقات جديدة؟

- بالتأكيد. ولكن من المشكوك فيه بالطبع (بعد كل هذه الفترة) أن يتمكن الشرطة من التوصل إلى أية نتيجة بسبب الخصائص الغريبة للقضية. أنا أشك في ذلك شخصياً. قد يعرفون أن أحد أفراد البيت هو المجرم، وقد يبلغ بهم الأمر حدَّ تكوين فكرة عن هوية ذلك الشخص، لكن الحصول على دليل قاطع لن يكون عملاً سهلاً.

- فهمت... فهمت. نعم، هذا ما كانت تقصده.

قال المحامي بحدة: مَن هي التي تتكلم عنها؟

- الفتاة؛ هيستر آرغيل.

- آه، نعم؛ الشابة هيستر. وماذا قالت لك؟

- لقد تكلمت عن البريء... قالت إن البريء هو الذي يهم وليس المذنب، وقد فهمت الآن ما كانت تعنيه.

نظر مارشال إليه نظرة حادة وقال: ربما تكون قد فهمت فعلاً.

- كانت تعني ما قلتَه أنت لي الآن. كانت تعني أن العائلة ستكون في موضع الشبهة مرة أخرى.

قاطعه مارشال: ليس مرة أخرى؛ إذ لم تكن العائلة تحت الشبهات من قبل. لقد أشير إلى جاك آرغيل بإصبع الاتهام منذ البداية.

تجاهل كالغاري المقاطعة وأكمل يقول: ستكون العائلة تحت الشبهات وقد تظل هكذا لفترة طويلة، وربما إلى الأبد. إن كان أحد أفراد العائلة مذنباً فمن الممكن أن لا يعرف البقية من هو. سينظر كل منهم إلى الآخر نظرات ارتياب وتساؤل. نعم، هذا هو أسوأ ما في

الأمر. هم أنفسهم لن يعرفوا من هو المجرم من بينهم.

سكت الرجلان. راقب مارشال كالغاري بنظرات تقييم هادئة، ولكنه لم يقل شيئاً. قال كالغاري: إنه أمر فظيع.

ظهر الانفعال على وجهه الحساس، ثم أضاف قائلاً: نعم، إنه أمر فظيع... أن تمر السنة تلو الأخرى وهم ينظرون إلى بعضهم البعض دون أن يعرفوا الحقيقة، وقد يؤثر هذا الشك على علاقتهم بالناس ويدمّر الحب ويدمر الثقة.

تنحنح مارشال وقال: ألست... ألست ترى أنك تعرض الأمر بشيء من المبالغة؟

- لا، لا أظن ذلك. أرجو أن تسمح لي يا سيد مارشال بالقول إنني أرى هذه الحقيقة بوضوح أكثر مما تراه أنت. يمكنني تخيل ما يمكن أن يعنيه ذلك.

ومرة أخرى خيمّ الصمت على المكان قليلاً، ثم قال كالغاري: إنه يعني أن البريء هو الذي سيعاني ويتألم... والبريء يجب ألاّ يعاني أو يتألم؛ وحده المذنب الذي يجب أن يعاني ويتألم. هذا هو... هذا هو السبب الذي يدفعني لعدم التخلي عن هذه القضية. لا أستطيع الرحيل قائلاً: "لقد فعلت الصواب وقمت بتصحيح الأمر قدر استطاعتي وخدمت قضية العدالة". لأن ما فعلتُه -كما ترى- لم يخدم قضية العدالة. إنه لم يؤدِّ إلى إدانة المذنب، إنه لم يخلص البريء من شكوك الذنب.

- أظن أنك ترهق نفسك بعض الشيء يا دكتور كالغاري. إن

لما تقوله أساساً من الصحة لا شك، لكني لا أرى ما الذي يمكنك أن تفعله حيال هذا الأمر.

ردّ عليه كالغاري بصراحة: نعم، ولا أنا أيضاً. لكنه يعني أن عليّ أن أحاول. وهذا ما جعلني آتي إليك يا سيد مارشال. أريد أن... أظن أن من حقي أن أعرف... الخلفية.

قال السيد مارشال وقد ازدادت قليلاً سرعة حديثه: آه، بالتأكيد. لا وجود لأي سر في الأمر كله. بإمكاني إطلاعك على أية حقيقة تريد معرفتها، لكني لست في موقعٍ يسمح لي بإعطائك أكثر من الحقائق، فلم أكن على علاقة وثيقة معَ أي واحد من أفراد العائلة. لقد مثلت شركتنا مصالح السيدة آرغيل لسنوات عديدة، وقد تعاونّا معها على تأسيس العديد من الصناديق الائتمانية وأشرفنا على الشؤون القانونية. كنت أعرف السيدة آرغيل شخصياً معرفة كافية كما كنت أعرف زوجها أيضاً، أما الجو في بيتها وأمزجة وشخصيات أفراد العائلة الذين يعيشون فيه فإن معلوماتي غير مباشرة وهي من خلال ما كانت تخبرني به السيدة آرغيل نفسها.

قال كالغاري: إنني أفهم هذا تماماً، لكن يجب أن أبدأ من مكان ما. وقد علمت أن الأولاد ليسوا أولادها الحقيقيين بل هم أولادها بالتبني، أليس كذلك؟

- هذا صحيح. كان اسم السيدة آرغيل قبل الزواج هو راينا كونستام، وكانت الابنة الوحيدة لرودلف كونستام، وكان رجلاً ثرياً جداً، ووالدتها أميركية وكانت ثرية جداً هي أيضاً. وكانت لرودلف كونستام اهتمامات خيرية كثيرة، وقد ربّى ابنته على الاهتمام بهذه

المشاريع الخيرية. وقد توفي وزوجته في حادث تحطم طائرة، فكرست رابنا الثروة الضخمة التي ورثتها عن أبيها وأمها للأعمال والمشاريع الخيرية. وقد أولت اهتماماً شخصياً بهذه الأعمال وقامت بنفسها بالعمل في بعض مشاريع التوطين، وأثناء عملها في هذه المشاريع الأخيرة تعرفت على ليو آرغيل (الذي كان أحد كبار الأساتذة في جامعة أكسفورد وله اهتمامات كبيرة بالاقتصاد والإصلاح الاجتماعي). وحتى تفهم السيدة آرغيل عليك أن تعرف أن أعظم مأساة في حياتها هي عدم قدرتها على إنجاب أطفال. وكما هي الحال مع كثير من النساء فإن هذا العجز ألقى بظلاله على حياتها كلها تدريجياً، وعندما تأكدت بعد زياراتها لكل أنواع الأطباء الاختصاصيين أن لا أمل لها في أن تكون أماً كان عليها أن تجد شيئاً يخفف عنها حزنها قدر المستطاع؛ فذهبت وتبنّتْ أولاً طفلة من أحد الأزقة الفقيرة في نيويورك (وهي التي تدعى الآن السيدة ديورانت). لقد كرست السيدة آرغيل معظم حياتها تقريباً للجمعيات الخيرية المعنية بالأطفال، وعند اندلاع الحرب عام ١٩٣٩ أسست تحت رعاية وزارة الصحة نوعاً من دار رعاية للأطفال الذين أثّرت عليهم الحرب واشترت البيت الذي قمتَ بزيارته.

قال كالغاري: الذي كان يسمى في الماضي «فايبرز بوينت»؟

- نعم، نعم، أعتقد أن ذلك هو اسمه الأصلي. وفي عام ١٩٤٠ كان لديها نحو اثني عشر طفلاً إلى ستة عشر طفلاً ومعظمهم من الذين لم يكن لهم أولياء أمور يقومون على رعايتهم بشكل جيد أو من الذين لم يكن بالإمكان إخلاؤهم مع عائلاتهم. وقد تمّ تقديم كل شيء لهؤلاء الأطفال، لقد عاشوا حياة منزلية مرفهة. وقد اعترضتُ عليها وأوضحت لها بأنه سيكون من الصعب على الأطفال

-بعد عدة سنوات من الحرب- العودة إلى منازلهم بعد هذه الحياة المرفهة، لكنها لم تلقِ لي بالاً. كانت تحب الأطفال حبّاً عميقاً، ثم أخيراً قامت بمشروعها القاضي بإلحاق الأيتام منهم أو من ينتمون إلى عائلات فقيرة بعائلتها. وقد نتج عن هذا عائلة من خمسة أفراد: ماري (المتزوجة الآن بفيليب ديورانت)، ومايكل (الذي يعمل في درايموث)، وتينا (وهي طفلة مولّدة)، وهيستر وجاكو بالطبع. وقد شبّوا وهم يعتبرون السيدة آرغيل أمهم والسيد آرغيل أباهم، وتلقّوا أفضل تعليم يمكن للمال أن يوفره، ولو كانت البيئة معياراً لكان عليهم أن ينجحوا نجاحاً عظيماً. لقد حصلوا على كل الامتيازات بالتأكيد. كان جاك (أو جاكو كما يسمونه) كان دوماً غير مقنع. سرق نقوداً في المدرسة ولذلك وجب إبعاده، ووقع في مشكلات في أول سنة دراسية له بالجامعة، وقد نجا مرتين من عقوبة السجن بأعجوبة. كان دوماً ذا مزاج لا يستطيع السيطرة عليه، وقد تسترت عائلة آرغيل على عمليتي اختلاس قام بهما ودفعت له العائلة الأموال مرتين ليؤسس حياته العملية، وفي المرتين كانت مشاريعه تنتهي بالفشل. وبعد وفاته تمّ دفع نفقة ما زالت تدفع لأرملته.

مال كالغاري إلى الأمام ذاهلاً وقال: أرملته؟ لم يخبرني أحد بأنه كان متزوجاً.

- يا إلهي! كنت مهملاً؛ لقد نسيت أنك لم تقرأ أخبار الصحف. أظن أن أحداً من عائلة آرغيل لم يكن يعلم بزواجه. بعد اعتقاله مباشرة ظهرت زوجته وجاءت إلى «صني بوينت» وهي في حالة اكتئاب كبيرة، وكان السيد آرغيل طيباً جداً معها. كانت فتاة شابة عملت مضيفة في قاعة رقص في درايموث. ربما نسيت أن أخبرك

عنها لأنها تزوجت ثانية بعد وفاة جاك ببضعة أسابيع. أظن أن زوجها الحالي يعمل كهربائياً في درايموث.

- لا بد أن أذهب لرؤيتها. كان يجب أن تكون أول شخص أراه.

- بالتأكيد، بالتأكيد؛ سأعطيك العنوان. لا أدري حقاً لماذا لم أذكر لك الأمر عندما جئت إليّ أول مرة.

بقي كالغاري صامتاً، فقال المحامي معتذراً: لقد كانت المرأة عاملاً مُهمَلاً في القضية. حتى الصحف لم تعرها الكثير من الاهتمام... وهي لم تزر زوجها في السجن أبداً ولم تُبدِ به أي اهتمام.

كان كالغاري مستغرقاً في التفكير، ثم ما لبث أن قال: هل بوسعك أن تخبرني من الذي كان موجوداً في البيت ليلة مقتل السيدة آرغيل بالضبط؟

نظر إليه مارشال نظرة حادة وقال: ليو آرغيل بطبيعة الحال، والابنة الصغيرة هيستر، وماري وزوجها المقعد حيث كانا في زيارة للمنزل، وكان الزوج قد خرج من المستشفى لتوه. بالإضافة إلى كريستي ليندستروم (وأظن أنك قابلتها). إنها ممرضة سويدية مدربة جاءت أصلاً لمساعدة السيدة آرغيل في دار رعاية الأطفال من ضحايا الحرب وظلت هناك منذ ذلك الحين. لم يكن مايكل أو تينا هناك... مايكل يعمل بائعاً للسيارات في درايموث وتينا تعمل في المكتبة العامة للمقاطعة في ريدمين وتعيش في شقة هناك.

سكت مارشال قليلاً قبل أن يكمل: كانت هناك أيضاً الآنسة

فوغان سكرتيرة السيد آرغيل، وكانت قد غادرت المنزل قبل اكتشاف الجريمة.

قال كالغاري: لقد قابلتها أيضاً؛ يبدو أنها متعلقة بالسيد آرغيل كثيراً.

- نعم، نعم. أتوقع إعلان مشروع خطوبة عمّا قريب.

- آه!

قال المحامي وفي نبرته بعض التأنيب: لقد عاش في وحدة شديدة منذ وفاة زوجته.

- تماماً، ولكن ماذا بشأن الدافع يا سيد مارشال؟

- يا عزيزي، لا أستطيع الحدس في هذا.

- أظن أنك تستطيع؛ فكما قلت بنفسك فإن الحقائق يمكن التحقق منها.

- لم تحدث أي استفادة مالية مباشرة لأي شخص؛ فقد دخلت السيدة آرغيل في سلسلة من الصناديق الائتمانية المختارة، وهي -كما تعلم- صيغة شائعة كثيراً هذه الأيام. وهذه الصناديق لمصلحة جميع الأولاد، ويديرها ثلاثة من الأوصياء أنا واحد منهم (إضافة إلى ليو آرغيل، والثالث محامٍ أمريكي هو ابن عم بعيد للسيدة آرغيل). ويدير هؤلاء الأوصياء الجزءَ الأعظم من الأموال ويمكن لهم التعديل في صرف تلك الأموال بحيث يستفيد منها أولئك الأشد حاجة إلى المال من المستفيدين.

- وماذا عن السيد آرغيل؟ هل يستفيد مالياً من وفاة زوجته؟

- ليس كثيراً. كما قلت لك فإن معظم ثروتها قد ذهبت إلى صناديق الائتمان. لقد تركت له بقية عقاراتها لكنها لا تساوي مبلغاً كبيراً من المال.

- وماذا عن الآنسة ليندستروم؟

قال مارشال: "كانت السيدة آرغيل قد خصصت راتباً سنوياً ضخماً جداً للآنسة ليندستروم قبل مقتلها بسنوات". ثم أضاف بانزعاج: الدافع؟ يبدو لي أنه لا يوجد أي دافع أبداً، وبالتأكيد لا يوجد دافع مالي.

- وماذا عن المجال العاطفي؟ هل وُجد أي... خلاف أو احتكاك خاص؟

قال مارشال جازماً: في هذا المجال أخشى ألاّ أستطيع مساعدتك؛ فلم أكن مراقباً لحياة العائلة.

- هل من شخص يستطيع مساعدتي؟

فكر مارشال بعض الوقت، ثم قال بشيء من التردد: تستطيع الذهاب لرؤية الطبيب المحلي... الدكتور ماكماستر، أظن أن هذا هو اسمه. إنه متقاعد الآن لكنه ما زال يعيش في نفس المنطقة. كان هو الطبيب القائم على رعاية دار الرعاية زمن الحرب، ولا بد أنه عرف وشاهد الكثير من ملامح الحياة في «صني بوينت». إن إمكانية إقناعه بأن يخبرك بأي شيء مسألةٌ تعتمد عليك، لكني أظن أنه لو أراد مساعدتك فإنه يستطيع. على الرغم من السؤال الذي يحيرني (وأرجو

المعذرة في قول هذا) وهو: هل تعتقد أنك ربما تستطيع إنجاز شيء لا يستطيع الشرطة إنجازه بطريقة أسهل بكثير؟

- لا أدري؛ ربما لا، لكني أعرف أن عليّ المحاولة. نعم، يجب أن أحاول.

* * *

الفصل الخامس

ارتفع حاجبا رئيس الشرطة ببطء صعوداً إلى جبينه حتى كادا يصلان إلى خط شعره الرمادي النازل. رفع بصره إلى السقف ثم خفضه ثانية لينظر إلى الأوراق على مكتبه، ثم قال: أمرٌ يجل عن الوصف!

قال الشاب الذي كان جلُّ عمله إطلاق العبارات المناسبة استجابة لرئيسه: نعم يا سيدي.

تمتم الرائد فيني: هذا حقاً ما يدعى «حيص بيص»! ثم نقر بأصابعه على الطاولة وقال: هل هوش موجود؟

- نعم يا سيدي؛ لقد عاد الضابط هوش قبل خمس دقائق.

- جيد، أرسله لي.

كان الضابط هوش رجلاً طويل القامة حزين المظهر، وكانت الكآبة التي تبدو عليه من العمق بحيث أن أحداً لم يكن ليصدِّق أن بمقدوره أن يكون النجم المحوري لحفلة أطفال، يفجر ضحكاتهم بنكاته ويثير متعتهم بألعابه السحرية. قال له مدير الشرطة: صباح الخير يا هوش. قضيتنا هذه تبدو محيِّرة تماماً، ما رأيك بها؟

تنفس الضابط هوش بعمق ثم جلس على الكرسي وقال: يبدو أننا أخطأنا قبل سنتين. إن هذا الرجل الذي لا أذكر اسمه...

قلّب رئيس الشرطة أوراقه وقال: كالوري... لا بل كالغاري. إنه أستاذ جامعي. ربما كان من شاردي الذهن أولئك؛ إن أمثاله غالباً ما يفتقرون إلى الدقة فيما يتعلق بالأوقات والتفاصيل، أليس كذلك؟

ربما كان في نبرة رئيس الشرطة وهو يقول ذلك أثر للمناشدة والتمني، ولكن هوش لم يجبه بل قال: فهمت أنه عالم من نوعٍ ما.

- إذن فأنت ترى أن علينا أن نقبل ما يقوله؟

- يبدو أن السير ريجنالد قد قبل كلامه، وهو شخص لا يفوته شيء أبداً.

كانت تلك إشارة ثناء منه للنائب العام، فقال الرائد فيني كارهاً: نعم؛ إذا كان النائب العام مقتنعاً فيجب تقبّل الأمر كحقيقة، وهذا يعني فتح ملف القضية من جديد. هل أحضرت معك المعلومات ذات العلاقة كما طلبت منك؟

- نعم يا سيدي، وهي موجودة هنا.

وضع الضابط عدة أوراق على الطاولة، فسأله رئيس الشرطة: هل درستها؟

- نعم يا سيدي، لقد تفحصتها كلها الليلة الماضية. إنني أتذكر الأحداث جيداً؛ إذ لم يمضِ عليها وقت طويل على أية حال.

- حسناً، دعنا نستعرض الأمر يا هوش. أين نقف الآن؟

- إذا عدنا إلى البداية يا سيدي نجد أن المشكلة هي أنه لم تكن لدينا أية شكوك في ذلك الوقت.

- نعم، فقد بدت قضية واضحة تماماً. لا تظن أنني ألومك يا هوش؛ فقد كنت أقف وراءك مئة بالمئة.

- لم يكن أمامنا أي شيء آخر نفكر به غير ما فعلنا. وصلتنا مكالمة هاتفية تقول بأنها قد قُتلت، ثم المعلومات التي تقول إن الولد كان موجوداً هناك وهدّدها، ودليل بصمات الأصابع... أصابعه هو على قضيب الموقد، والنقود. لقد أمسكنا به على الفور تقريباً وكانت النقود بحوزته.

- ما هو الانطباع الذي خلفه لديك في ذلك الوقت؟

فكر هوش ثم قال: انطباع سيء. كان شديد الغرور، وقد خرج وهو يتحدث بكل سرعة ويسر عن أوقاته وأين قضاها، ويبرهن على غيابه عن مكان الجريمة. بدا مغروراً، وأنت تعرف هذا النوع. القتلة مغرورون في العادة؛ يعتقدون أنهم أذكياء جداً، يعتقدون أن أفعالهم ستنتهي إلى خير مهما كانت دون النظر إلى ما تخلفه تلك الأفعال على الآخرين. كان شاباً منحرفاً بلا شك.

وافقه فيني قائلاً: نعم، كان شاباً منحرفاً. سوابقه تثبت هذه الحقيقة، ولكن هل شعرت واقتنعت على الفور بأنه قاتل؟

فكر الضابط ثم قال: لا يمكن التأكد من مثل هذا الأمر. أظنه كان من النوع الذي ينتهي به المطاف قاتلاً في الغالب، مثل قضية هارمون عام ١٩٣٨: كانت له سوابق عديدة في سرقة الدراجات الهوائية والتحايل والخداع لاكتساب المال من النساء العجائز، وأخيراً

قتل امرأة وسكب عليها الحمض، واغتر بنفسه وبدأ يعتاد على هذا العمل. أظن أن جاكو كان من نفس النوع.

قال رئيس الشرطة ببطء: ولكن يبدو أننا كنا مخطئين.

رد هوش: "نعم؛ كنا مخطئين، كما أن الشاب قد مات. إنه أمر سيء". ثم أضاف بحماسة مفاجئة: تذكّرْ أنه كان شاباً منحرفاً. ربما لم يكن قاتلاً (والواقع أنه لم يكن قاتلاً كما عرفنا ذلك الآن) لكنه كان منحرفاً.

- حسناً، هيا يا رجل، من الذي قتلها إذن؟ تقول بأنك درست القضية الليلة الماضية عن كثب. شخص ما قتلها. المرأة لم تضرب نفسها على مؤخرة رأسها بقضيب تحريك النار! شخص آخر هو الذي فعل ذلك، فمن هو؟

تنهد الضابط هوش وأسند ظهره إلى الكرسي ثم قال: لا أدري إن كنّا سنعرف ذلك قط.

- نعم، لقد برد الأثر الآن ولن يبقى سوى القليل من الأدلة التي يمكن اكتشافها، بل أظن أن الأدلة لم تكن كثيرة أصلاً.

- أتقول ذلك باعتبار أن القاتل كان أحد أفراد العائلة، شخصاً قريباً منها؟

- لا أرى احتمالاً آخر. كان شخصاً موجوداً هناك، في البيت، أو شخصاً هي التي فتحت له الباب وأدخلته. كانت عائلة آرغيل ممن يقفلون بيوتهم دوماً بالأقفال، أقفال ضد السرقة على الشبابيك، وسلاسل وأقفال إضافية على الباب الرئيسي، وقد وقعت سرقة

عندهم قبل ذلك بسنتين ممّا جعلهم يحذرون من عمليات السرقة. المشكلة يا سيدي هي أننا لم نبحث في مكان آخر في ذلك الوقت. كانت القضية ضد جاكو آرغيل مكتملة لا ريب فيها، وقد عرفنا الآن بالطبع أن القاتل استفاد من ذلك.

- تعني أنه استفاد من حقيقة وجود الولد هناك ومشاجرته مع أمه وتهديده لها؟

- نعم؛ كل ما كان يلزم ذلك الشخص هو الدخول إلى الغرفة وأخذ قضيب الموقد وهو يرتدي قفازاً من المكان الذي ألقاه جاكو فيه على الأرض ثم يتجه إلى الطاولة حيث كانت السيدة آرغيل تكتب فيكيل لها ضربة على رأسها.

قال الرائد فيني كلمة واحدة بسيطة: لماذا؟

أومأ هوش برأسه وقال: نعم يا سيدي، هذا ما يجب معرفته. ستكون تلك إحدى المصاعب، أقصد غياب الدافع.

قال قائد الشرطة: لم يبدُ في ذلك الوقت أن في الأمر دافعاً مُلِحّاً إذا صح التعبير، فقد دخلت القتيلة (كغيرها من النساء اللاتي يملكن عقارات وثروات كبيرة) في مشاريع شديدة التنوع بقدر ما يسمح به القانون بغية تجنب ضرائب التركات. كان صندوق الصرف على المستفيدين من أفراد العائلة موجوداً من البداية، وكان أولادها يتلقون معاشات من الصندوق قبل موتها، وليس من شأنهم أن يحصلوا على شيء إضافي إذا ماتت. كما أنها لم تكن امرأة مكروهة أو بخيلة أو متسلطة. لقد أنفقت عليهم بسخاء ما يكفيهم طول حياتهم، كما منحتهم تعليماً جيداً وأموالاً ليوظفوها في مشاريع خاصة بهم، إضافةً

إلى إعانات منتظمة لهم جميعاً. كانت امرأة ودودة لطيفة محسنة.

- هذا صحيح يا سيدي. من حيث الظاهر لا يوجد سبب يدعو أي واحد منهم لقتلها، ولكن...

قال هوش ذلك ثم سكت فجأة، فسأله رئيسه: نعم يا هوش؟

- علمت أن السيد آرغيل يفكر بالزواج ثانية. سوف يتزوج الآنسة غويندا فوغان التي تعمل سكرتيرة له منذ عدة سنوات.

قال الرائد فيني متأملاً: حسناً، أظن أن في هذا دافعاً؛ دافعاً لم نكن نعرفه في ذلك الوقت. كما تقول بأنها تعمل عنده منذ سنوات. هل تظن إمكانية وجود علاقة بينهما وقت ارتكاب الجريمة؟

- أشك في ذلك يا سيدي؛ فإن مثل هذا الأمر ينتشر بسرعة في القرية.

قال قائد الشرطة: ولكن ربما كانت قد تملكته رغبة ملحة في الزواج بغويندا فوغان.

- إنها فتاة جميلة حسنة الشكل، ولكنها ليست ذات فتنة تخطف الأبصار.

- ربما كانت تحبه منذ سنوات؛ يبدو أن السكرتيرات يقعن دوماً في حب رؤسائهن!

- ها نحن أولاء قد حصلنا على دافع من نوع ما لدى هذين الاثنين. ثم هناك خادمة السيدة، المرأة السويدية. ربمّا لم تكن تحب السيدة آرغيل كل هذا الحب الذي يبدو عليها، ربما أخذت على سيدتها حالات ازدراء صحيحة أو متخيَّلة، أو أشياء أخرى أثارت

سخطها. إنها لم تستفد مادياً من وفاتها لأن السيدة آرغيل كانت قد خصصت لها أصلاً معاشاً سنوياً كبيراً. إنها -في الظاهر- امرأة لطيفة مراعية وليست من النوع الذي يمكنك تخيله يضرب شخصاً على رأسه بقضيب! ولكن المرء لا يستطيع الجزم، أليس كذلك؟

- نعم؛ لا أحد يستطيع الجزم. ألا يوجد احتمال بأن يكون الفاعل شخصاً خارجياً؟

- أبداً، لا أظن. الدُّرج الذي كانت فيه النقود كان مسحوباً ومفتوحاً. لقد حاول الفاعل جعل الغرفة تبدو وكأن عملية سرقة قد حدثت لكنها كانت محاولة ساذجة جداً، الأمر الذي يتناسب تماماً مع شخصية جاكو إذا ما حاول إيجاد مثل ذلك التأثير.

- الشيء الغريب بالنسبة لي هو المال.

- نعم، يصعب جداً فهم ذلك. إحدى الأوراق النقدية من فئة الخمسة جنيهات التي كانت مع جاك آرغيل كان البنك قد سلمها للسيدة آرغيل صباح ذلك اليوم (وكان مكتوباً على ظهرها اسم سيدة تدعى بوتلبري). قال جاكو إن أمه أعطته تلك النقود، لكن السيد آرغيل وغويندا فوغان يجزمان تماماً بأن السيدة آرغيل دخلت المكتبة الساعة السابعة إلاّ ربعاً وأخبرتهما عن طلب جاكو نقوداً منها، وقالت بوضوح إنها رفضت إعطاءه أية نقود.

أشار قائد الشرطة قائلاً: من المحتمل بالطبع (مع ما علمناه الآن) أن يكون آرغيل والفتاة فوغان يكذبان.

- نعم، هذا ممكن. أو ربما...

سكت الضابط، فشّجعه فيني: نعم يا هوش؟

- لنفترض أن شخصاً ما (سوف نسميه أو نسميها "س") قد سمع المشاجرة والتهديدات التي أطلقها جاكو. لنفترض أنه وجدها فرصة، فحصل على النقود ثم ركض خلف الولد وقال له إن أمه تريده أن يأخذها، ممّا يمهد الطريق لأفضل وأذكى مكيدة للإيقاع بالصبي. وقد حرص ذلك الشخص على استخدام القضيب الذي رفعه جاكو وهددّها به دون إفساد بصمات أصابعه عليه.

قال قائد الشرطة غاضباً: تباً لهذا كله! لا شيء من هذا يتطابق مع ما أعرفه عن العائلة. من كان موجوداً تلك الليلة في البيت إلى جانب آرغيل وغويندا فوغان وهيستر آرغيل والمرأة ليندستروم هذه؟

- الابنة الكبرى المتزوجة، ماري ديورانت، كانت هناك مع زوجها.

- إنه مقعد، أليس كذلك؟ هذا يخرجه من دائرة الاتهام. ماذا عن ماري ديورانت؟

- إنها فتاة هادئة جداً يا سيدي. لا يمكنك أن تتخيلها في حالة انفعال أو وهي تقتل أحداً.

- والخدم؟

- كلهم يعملون في النهار فقط، وقد عادوا إلى بيوتهم الساعة السادسة مساءً.

- أطلعني على الأوقات.

وضع الضابط الورقة أمامه فقال: نعم، فهمت. كانت السيدة

آرغيل في الساعة السابعة إلاّ ربعاً في المكتبة تتحدث مع زوجها بخصوص تهديدات جاكو. كانت غويندا فوغان حاضرة لجزء من النقاش، ثم ذهبت إلى بيتها بعد السابعة بقليل. هيستر آرغيل رأت أمها على قيد الحياة الساعة السابعة إلاّ دقيقتين أو ثلاث دقائق. بعد ذلك لم ير أحد السيدة آرغيل حتى السابعة والنصف عندما وجدت الآنسة ليندستروم جثتها. بين السابعة والسابعة والنصف كانت توجد الكثير من الفرص. يمكن أن تكون هيستر هي التي قتلتها، وغويندا فوغان أيضاً بعد خروجها من المكتبة وقبل مغادرتها البيت. ويمكن أن تكون الآنسة ليندستروم هي التي قتلتها عندما اكتشفت الجثة. وليو آرغيل كان يجلس في المكتبة وحيداً من الساعة السابعة وعشر دقائق إلى حين أن صرخت الآنسة ليندستروم عند اكتشافها الجثة؛ من الممكن أن يكون قد ذهب إلى غرفة جلوس زوجته في أي وقت خلال العشرين دقيقة هذه وقتلها. وماري ديورانت (التي كانت في الطابق العلوي) كان يمكن لها أن تنزل خلال نصف الساعة تلك وتقتل أمها. كما أن السيدة آرغيل نفسها ربما أدخلت شخصاً ما من الباب الرئيسي. إذا كنت تذكر فقد قال ليو آرغيل بأنه يظن بأنه سمع صوت جرس الباب وصوت الباب الأمامي وهو يفتح ثم يغلق، لكنه لم يستطع تحديد الوقت بدقة. وقد افترضنا أن ذلك حدث عندما عاد جاكو وقتلها.

قال هوش: لم تكن به حاجة لكي يدق الجرس؛ فقد كان يحمل مفتاحه الخاص. كلهم يحملون مفاتيح.

- يوجد أخ آخر، أليس كذلك؟

- بلى، مايكل. يعمل بائع سيارات في درايموث.

- يستحسن أن تعرف ماذا كان يعمل في تلك الأمسية.

- بعد سنتين؟ من غير المحتمل أن يتذكر أحدٌ ما حدث تلك الليلة.

- هل تمّ سؤاله في ذلك الوقت؟

- فهمنا أنه خرج لفحص سيارة أحد الزبائن. لم يكن لدينا سبب وقتها للاشتباه به، لكنه كان يحمل مفتاحاً وكان من الممكن أن يأتي ويقتلها.

تنهد رئيس الشرطة وقال: لا أدري كيف ستعمل في هذه القضية يا هوش، ولا أدري إن كنّا سنتوصل إلى أي شيء قط.

- بودّي -شخصياً- أن أعرف مَن قتلها. حسب ما يمكنني استنتاجه فقد كانت امرأة طيبة، وقد عملت الكثير لصالح الناس ولصالح الأطفال البائسين ولصالح الجمعيات الخيرية. إنها من النوع الذي لا ينبغي أن يُقتل. نعم، أريد أن أعرف، حتى لو لم نستطع أبداً الحصول على دليل يرضي النائب العام فإنني أريد أن أعرف.

- أتمنى لك حظاً سعيداً يا هوش. ولحسن الحظ لا توجد عندنا في الوقت الحالي الكثير من القضايا ولكن لا تيأس إن لم تحقق نجاحاً في عملك. إنها مطاردة بَعُدَ العهد بها. نعم... بَعُدَ العهد بها كثيراً.

* * *

الفصل السادس

اشتعلت الأضواء في السينما وظهرت الإعلانات على الشاشة، وتجولت مرشدات السينما بين المتفرجين وهن يحملن علب العصير والمرطبات. تفحصهن آرثر كالغاري: فتاة ممتلئة الجسم ذات شعر بني، وأخرى طويلة القامة سمراء، وثالثة صغيرة الجسم شقراء الشعر. كانت الأخيرة هذه هي التي جاء لرؤيتها. إنها زوجة جاكو (أو أرملة جاكو بالأصح)، وهي الآن زوجة رجل يدعى جو كليغ. كانت ذات وجه جميل جامد غطته مساحيق التجميل، وقد حدّدت حاجبها وصففت شعرها بتسريحة متموجة رخيصة بشعة. اشترى كالغاري منها علبة مرطبات، وقد كان معه عنوان منزلها وكان يعتزم زيارتها، لكنه أراد أن يراها أولاً وهي لا تعرفه. حسناً، هذا ما حدث؛ رأى أنها ليست الكنّة التي كانت السيدة آرغيل ستهتم بها كثيراً، ولا شك أن هذا ما جعل جاكو يبقي زواجه سراً.

تنهد وأخفى علبة المرطبات تحت كرسيه واستند بظهره على الكرسي بينما أطفئت الأضواء وظهر على الشاشة فلم جديد، وسرعان ما نهض من مكانه وغادر الصالة.

وفي الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ذهب إلى

العنوان الذي أُعطي له. فتح البابَ غلامٌ في السادسة عشرة من عمره وقال ردّاً على سؤال كالغاري: السيدة كليغ؟ الطابق العلوي.

صعد كالغاري الدرج وطرق أحد الأبواب ففتحت له مورين كليغ. بدت فتاة مختلفة في غياب زيها الأنيق ومساحيق التجميل على وجهها؛ لقد ظهر الآن وجه صغير تافه، وجه يدل على طبيعة سمحة ولكن ليس فيه ما يثير الاهتمام. نظرت إليه بارتياب وعبوس فقال: اسمي كالغاري. أظن أنك تلقيت رسالة من السيد مارشال بخصوصي.

اختفى العبوس عن وجهها وقالت: آه، إذن فأنت هو؟ تفضل بالدخول.

تراجعت إلى الوراء لتسمح له بالدخول ثم قالت: "أنا آسفة لأن البيت غير مرتب؛ لقد كنت مشغولة ولم أستطع ترتيبه". ثم أزاحت بعض الثياب المبعثرة ودفعت جانباً بقايا إفطار انتهى منذ مدة طويلة وقالت: تفضل بالجلوس. إنه لطف منك أن تأتي.

قال كالغاري: لقد شعرت بأن هذا أقل ما يمكنني عمله.

ضحكت ضحكة صغيرة مرتبكة وكأنها لم تفهم ما كان يعنيه، ثم قالت: لقد كتب لي السيد مارشال في الأمر. بخصوص القصة التي اخترعها جاكو... وكيف تبين أنها صحيحة في نهاية الأمر... أن شخصاً قد أركبه معه فعلاً في سيارته تلك الليلة وأوصله إلى درايموث. إذن فهو أنت، أليس كذلك؟

- بلى؛ أنا.

- لا أستطيع حقاً نسيان ذلك. لقد تحدثت مع جو حول ذلك طوال الليل وقلت إن ذلك يشبه أفلام السينما. لقد مضى على ذلك سنتان أو نحو ذلك، أليس كذلك؟

- تقريباً، بلى.

- إنها كتلك القصص التي نراها في الأفلام ويعتبرها المرء هراء ولا يمكن أن تحدث في الحياة الواقعية. لكن هذا ما حدث، لقد حدث فعلاً! إنه شيء مثير نوعاً ما، أليس كذلك؟

- أظن أنك تستطيعين اعتباره هكذا.

كان يرقبها وهو يشعر بنوع من الضيق الغامض. وأكملت تقول بفرحة: ها هو ذا جاكو المسكين قد مات دون أن يعرف حقيقة ما سيحدث. لقد أصيب بالتهاب الرئتين وهو في السجن... أظن أنه بسبب الرطوبة.

أدرك كالغاري أن في ذهنها صورة رومنسية محددة للسجن: رطوبة في زنازين تحت الأرض والجرذان تقضم أصابع المساجين. وأكملت تقول: أظن أن وفاته كانت أفضل له في ذلك الوقت.

- نعم، أظن ذلك... نعم.

- أقصد أنه كان سيقضي خلف القضبان سنوات وسنوات. قال جو إن من الأفضل لي الحصول على الطلاق وكنت قد شرعت في ذلك.

- كنت تريدين الطلاق منه؟

- ليس من المفيد الارتباط برجل سيظل في السجن سنوات،

أليس كذلك؟ كما أن جاكو -على الرغم من حبي له وتعلقي به- لم يكن من النوع الثابت. لم أفكر أبداً في أن زواجنا سيدوم حقاً.

- هل كنت قد شرعت في إجراءات الطلاق عندما توفي؟

- نعم؛ إلى حد ما... أقصد أنني ذهبت إلى أحد المحامين. جو هو الذي دفعني إلى الذهاب، ولم يكن جو يطيق جاكو بالطبع.

- جو هو زوجك؟

- نعم، إنه يعمل في الكهرباء. لقد حصل على وظيفة ممتازة، وهم يحترمونه كثيراً. كان يقول لي دائماً إن جاكو لا يفيدني لكني كنت طفلة وغبية وقتها. كانت لجاكو طريقة في جذب النساء.

- هذا ما يبدو من كل ما سمعته عنه.

- كان بارعاً في إغواء النساء. لا أعرف حقاً السبب في ذلك، فهو لم يكن جميل المظهر أو وسيماً، بل كنت أناديه دائماً «صاحب الوجه القردي». لكن كانت له مع ذلك طريقة خاصة، فكنت ترى نفسك تفعل كل ما يريده منك. وقد أفاده ذلك في بعض المناسبات؛ فبعد زواجنا بقليل وقع في مشكلة في الورشة التي كان يعمل فيها بخصوص عمل قام به في سيارة أحد الزبائن. لم أفهم أبداً حقيقة تلك المشكلة. على أية حال كان رئيسه غاضباً منه، لكن جاكو استطاع إغواء زوجة رئيسه. كانت كبيرة بالسن، تكاد تبلغ الخمسين، لكن جاكو جعل يمدحها ويطريها ويخدعها حتى لم تعد تعرف رأسها من قدمها وحتى أصبحت مستعدة لفعل أي شيء من أجله في نهاية الأمر، فتملقت زوجها وأقنعته أن لا يقاضي جاكو إن أعاد النقود. لكنه لم يعرف أبداً من أين جاءت النقود؛ فزوجته نفسها هي التي

أعطته النقود! ولطالما ضحكنا من هذا الأمر أنا وجاكو!

نظر كالغاري إليها باشمئزاز وقال: أكان ذلك... مضحكاً إلى هذا الحد؟

- آه، أظن ذلك، كان شيئاً مضحكاً بالفعل. امرأة عجوز كتلك مجنونة بجاكو تدفع له كل مدخراتها.

تنهد كالغاري وأحس أن الأمور لا تكون أبداً بالصورة التي قد يتخيلها المرء. إنه يجد نفسه كل يوم أقل حماسة للدفاع عن الرجل الذي تجشم لتبرئته كل هذا العناء. لقد أوشك على تفهم وتقبل وجهة نظر أهله في «صني بوينت» التي سبق وأذهلته. ثم قال: لقد جئت يا سيدة كليغ لكي أرى إن كان يوجد أي شيء يمكنني... يمكنني فعله لإصلاح ما قد حدث.

بدت مورين كليغ محتارة وقالت: هذا من لطفك، ولكن لماذا تفعل ذلك؟ نحن بخير. جو ناجح في عمله ويكسب جيداً وأنا لديّ وظيفتي؛ إنني مرشدة سينما.

- نعم، أعرف.

أكملت الفتاة تقول بفخر: سنشتري تلفزيوناً الشهر القادم.

قال كالغاري: أنا سعيد جداً، سعيد جداً لأن هذه المأساة لم تترك أي أثر دائم عليكم.

وجد صعوبة في اختيار الكلمات المناسبة وهو يتحدث مع هذه الفتاة التي كانت زوجة لجاكو، فكل شيء قاله كان يبدو متكلفاً مصطنعاً. لماذا لا يتحدث إليها حديثاً طبيعياً؟ ثم قال: كنت أخشى

أن يكون ما قد حدث قد سبب لك الحزن والضيق.

حدقت إليه بعينيها الزرقاوين الواسعتين عاجِزةً عن فهم ما كان يقصده، ثم قالت: كان الأمر فظيعاً في ذلك الوقت. كل الجيران كانوا يتحدثون، مع ما يسببه كل ذلك من قلق. رغم أن الشرطة كانوا لطفاء معنا. لقد تحدثوا معي بأدب وتكلموا معي كلاماً طيباً حول كل شيء..

تساءل في نفسه إن كانت تحمل للرجل الميت أية مشاعر. وسألها فجأة: هل كنت تظنين أنه فعلها؟

- هل تقصد أن يكون قد قتل والدته؟

- نعم، هذا ما أعنيه.

- بالطبع... إن... إن... نعم، أظن أنني ظننت ذلك إلى حد ما. وقد أنكر ذلك بالطبع لكنك لا تستطيع أن تصدق ما كان يقوله جاكو، وقد بدا أنه قتلها. يمكن لجاكو أن يتحول إلى رجل سيء إذا ما وقفت في وجهه. أعرف أنه كان في ورطة مالية. لم يكن يحدثني عن ذلك كثيراً لكن عندما سألته عنها غضب في وجهي، وفي ذلك اليوم ذهب وهو يقول إن كل شيء سيسير على ما يرام. قال إن أمه ستدفع عنه ديونه وإنها ستضطر إلى ذلك، ولذلك صدقته بالطبع.

- علمت أنه لم يخبر عائلته بأمر زواجكما. أنت لم تقابليهم؟

- نعم، لم أفعل. إنهم أناس من طبقة عالية ولهم بيت كبير، ولم أكن لألقى قبولاً طيباً منهم. قال جاكو إن أفضل شيء هو كتمان زواجنا عنهم، كما أنه قال إنه لو أخذني إليهم فإن أمه ستطلب إدارة

شؤوني تماماً كما تفعل معه، وقال إنها لا تستطيع التخلص من عادتها في إدارة شؤون الناس وتوجيههم وإنه قد نال ما يكفيه من ذلك.

بدا وكأنها لم تكن مستاءة وتعتبر تصرف زوجها السابق تصرفاً طبيعياً.

- أظن أنك أصبت بصدمة كبيرة عندما اعتقل؟

- أمر طبيعي. ومع ذلك تساءلت في نفسي هل يمكن أن يفعل ذلك؟ لكنك لا تستطيع التهرب من الأشياء التي حولك. كانت أعصابه تثور دوماً عندما يتضايق من شيء.

- لنكن صريحين. ألم تدهشي أبداً أو تفاجئي من حقيقة قيام زوجك بقتل أمه بضربة على رأسها ثم سرقته لمبلغ كبير من المال منها؟

- إنني يا... سيد كالغاري... أرجو المعذرة في أن أقول لك إن كلماتك هذه قاسية. لا أظن أنه قصد ضربها بهذه القوة، لا أظن أنه كان ينوي قتلها. لقد رفضت أن تعطيه بعض النقود فأمسك بقضيب الموقد وهددها، وعندما أصرت على موقفها فقد أعصابه وضربها. لا أظن أنه كان يريد قتلها وإنما كان ذلك من حظه العاثر فقط. كان بحاجة شديدة إلى النقود، فقد كان سيدخل السجن لو لم يحصل على النقود.

- إذن... فأنت لا تلومينه؟

- لقد لمته بالطبع. لا أحب مثل هذا السلوك العنيف البغيض. ومع مَن؟ مع أمه! نعم، لا أظن أنه عمل طيب أبداً. بدأت أرى أن

جو كان محقاً عندما قال لي إنني كان يجب أن أقطع كل علاقة لي مع جاكو، ولكنك تعلم كم هو صعب بالنسبة لفتاة أن تحزم أمرها. كان جو من النوع المستقر الثابت. كنت أعرفه منذ وقت طويل، أما جاكو فكان مختلفاً؛ لقد تلقى تعليماً جيداً وكان يبدو ثرياً ويبذر أمواله هنا وهناك، وكان يحصل على ما يريد كما قلت. كان يستطيع إغواء أي شخص وقد أغواني دون شك. قال لي جو وقتها: "ستندمين على ذلك يا فتاتي". كنت أظن أن ذلك بسبب الغيرة والحسد، ولكن اتضح في النهاية أن كلام جو كان صحيحاً.

نظر كالغاري إليها وتساءل إن كانت ما تزال لا تفهم كل مضامين قصته. سألها: صحيح من أية ناحية بالضبط؟

- في إيقاعي في الورطة التي أوقعني فيها. أقصد أننا كنا عائلة محترمة دائماً؛ فقد ربتنا أمنا تربية جيدة، وكانت أمورنا تسير بشكل طبيعي ولم يكن أحد يتكلم علينا. ثم يأتي الشرطة ويعتقلون زوجي! وجميع الجيران عرفوا بما حدث. لقد نشر الخبر في كل الصحف وجاء كثير من الصحافيين يطرحون عليّ أسئلتهم. لقد وضعني ذلك في موقع حرج للغاية.

- لكنك تعرفين الآن -يا عزيزتي- أنه لم يقتلها؟

بدا الوجه الجميل الأبيض حائراً للحظة، ثم قالت: بالطبع! لقد نسيت. ومع ذلك... فإنه ذهب إلى هناك وعمل ضجة ومشكلة وهددها. لو لم يفعل ذلك لما اعتُقل أبداً، أليس كذلك؟

- بلى، بلى؛ هذا صحيح تماماً.

ظن أن هذه الطفلة الجميلة الحمقاء ربما تكون واقعية أكثر منه.

وأكملت مورين تقول: آه، كان الأمر صعباً للغاية. لم أعرف ماذا أفعل، ثم قالت لي والدتي إنه من الأفضل أن أذهب مباشرة لرؤية أهله، وقالت إنه يتعين عليهم فعل شيء من أجلي وإن لي حقوقاً ومن الأفضل أن أريهم أنني أحسن متابعة تلك الحقوق، ولذلك ذهبت. كانت تلك المرأة الأجنبية هي التي فتحت لي الباب، ولم أستطع حملها على فهمي في البداية. ويبدو أنها لم تصدقني؛ فقد ظلت تقول: "هذا مستحيل"، "مستحيل أن يتزوجك جاكو"... وقد جرح ذلك مشاعري بعض الشيء، فقلت لها إننا متزوجان ولكننا لم نسجل زواجنا في السجل المدني وإنما في كنيسة، وهو الأمر الذي أوصتني أمي بقوله! لكنها قالت إن ذلك غير صحيح وإنها لا تصدق، ثم جاء السيد آرغيل وكان طيباً للغاية؛ طلب مني ألاّ أقلق قدر الإمكان وقال إنهم سيبذلون كل جهد للدفاع عن جاكو، وسألني عن أحوالي المالية وأرسل لي راتباً منتظماً كل أسبوع، وهو ما زال يرسله لي حتى الآن. إن جو لا يعجبه قبولي لتلك النقود، ولكنني أقول له: "لا تكن سخيفاً؛ فالمال فائض عن حاجتهم"، أليس كذلك؟ وقد أرسل لي شيكاً محترماً هدية لزفافي أنا وجو وقال لي إنه مسرور جداً ويأمل بأن يكون هذا الزواج أفضل من الأخير. نعم، إن السيد آرغيل لطيف جداً.

ثم التفتت إلى الباب الذي فُتح وقالت: آه، ها قد وصل جو.

كان جو شاباً أشقر الشعر رقيق الشفتين، وقد استقبل توضيحات مورين وتعريفها بالزائر ببعض العبوس ثم قال باستياء: كنت آمل أن نكون قد انتهينا من هذا كله. أرجو المعذرة يا سيدي، فليس من المفيد إثارة الماضي، هذا ما أشعر به. كانت مورين سيئة الحظ، هذا كل ما يمكن أن يقال في هذا المجال.

قال كالغاري: نعم؛ إنني أتفهم وجهة نظرك تماماً.

قال جو كليغ: كان يجب ألاّ تتزوج رجلاً كهذا أبداً. كنت أعرف أنْ لا فائدة منه؛ فقد كانت تدور حوله شبهات قبل ذلك. لقد أُطلق سراحه ووُضع تحت مراقبة الشرطة مرتين، وعندما يبدأ امرؤٌ مثلَ هذا العمل فإنه يستمر فيه. يبدأ بالاختلاس أو الاحتيال على النساء للحصول على أموالهن وينتهي بالقتل.

قال كالغاري: لكن هذه لم تكن جريمة قتل.

- هذا ما تقوله أنت يا سيدي.

أظهر نفسه وكأنه غير مقتنع أبداً، فقال كالغاري: كان جاك آرغيل يملك دفعاً بالغيبة عن مكان وقوع الجريمة لا يرقى له الشك. كان معي في السيارة حيث أركبته إلى درايموث؛ ولذلك لم يكن بوسعه أن يقتلها يا سيد كليغ.

- ربما كان الأمر كذلك يا سيدي، ومع ذلك أرجو أن تسمح لي بالقول بأن إثارة هذا الأمر الآن شيء مؤسف. إنه الآن ميت ولا يهمه، كما أن هذا يجعل الجيران يتكلمون من جديد ويضربون أخماساً في أسداس.

نهض كالغاري وهو يقول: حسناً، ربما هذا من وجهة نظرك الخاصة، ولكن هناك شيئاً اسمه العدالة يا سيد كليغ.

- لقد اقتنعت دوماً أن المحاكمات الإنكليزية تتميز بأكبر قدر ممكن من الإنصاف.

- إن أدق نظام في هذا العالم يمكن أن يخطئ. إن القائمين على العدالة بشر، والبشر عرضة للخطأ.

بعد أن تركهما ومشى في الشارع أحس بداخله باضطراب أكثر مما كان يعتقد. تساءل في نفسه: أكان -حقاً- من الأفضل لو أنني لم أستعد ذكريات ذلك اليوم؟ فكما قال هذا الشاب المعتدّ بنفسه قبل قليل: «إن الرجل قد مات». لقد رحل إلى قاضي القضاة الذي لا يخطئ أبداً، ولا فرق لديه الآن إن تذكره الناس قاتلاً أو مجرد لص تافه.

ثم ثارت في نفسه موجة غضب مفاجئة فحدّث نفسه قائلاً: ولكن لا بد أن يشكّل ذلك فرقاً لشخص ما! لا بد أن يسعد شخص ما ببراءة ذلك الشاب، فلماذا لا يسعدون؟! هذه الفتاة أستطيع فهم موقفها جيداً؛ ربما فُتنت بجاكو لبعض الوقت، لكنها لم تحبه أبداً، وربما كانت غير قادرة على حب أحد. ولكن ما بال الآخرين: والده، أخته، مربيته...؟ كان يجب أن يفرحوا. كان ينبغي أن يُبدوا لحظة تفكير به قبل أن يبدؤوا بالخوف على أنفسهم. نعم، كان ينبغي لأحد ما أن يهتم!

* * *

- الآنسة آرغيل؟ إنها على المكتب الثاني هناك.

وقف كالغاري لحظة يرقبها. أنيقة الثياب، صغيرة الجسم، يانعة الهدوء والكفاءة. كانت ترتدي ثوباً أزرق داكناً ذا ياقة وأساور بيضاء، وكان شعرها الأسود ملتفاً بشكل جميل حول رقبتها، فيما كانت بشرتها سمراء أكثر مما يمكن لبشرة إنكليزية أن تكونه، وكانت

رقيقة العظام أيضاً. هذه هي الطفلة المولَّدة التي تبنتها السيدة آرغيل وضمتها إلى العائلة.

كانت العينان اللتان رفعتهما لتنظر إليه سوداوين غامضتين تماماً ولا تشيان بشيء. قالت بصوت خافت متعاطف: هل يمكنني مساعدتك؟

- هل أنت الآنسة آرغيل؟ الآنسة كريستينا آرغيل؟

- نعم.

- اسمي كالغاري، آرثر كالغاري. ربما سمعت...

- نعم، سمعت بذلك؛ والدي كتب لي رسالة.

- أرغب كثيراً بالحديث معك.

رفعت بصرها إلى الساعة المعلقة وقالت: ستغلق المكتبة أبوابها بعد نصف ساعة. هل يمكنك الانتظار حتى ذلك الحين؟

- بالتأكيد، ربما أمكنني أن أقدّم لك فنجان شاي في مكان ما؟

قالت: "أشكرك". ثم التفتت عنه إلى رجل كان قد جاء ووقف وراءه وقالت: نعم، هل يمكنني مساعدتك؟

ابتعد آرثر كالغاري. تجوّلَ في أرجاء المكتبة وتفحص الكتب على الرفوف وهو يراقب تينا آرغيل طول الوقت، وظلت هي على سجيتها بلا أي أثر لقلق أو اضطراب. ومرّ الوقت بطيئاً بالنسبة إليه، لكن جرس المغادرة قُرع أخيراً فأومأت إليه وقالت: سأقابلك في الخارج خلال بضع دقائق.

لم تجعله ينتظر طويلاً. وحين جاءته لم تكن ترتدي قبعة، بل معطفاً سميكاً داكناً فقط. سألها عن مكان مقترح ثم قال مفسراً: أنا لا أعرف ريدمن جيداً.

- يوجد مقهى قرب الكاتدرائية. إنه ليس ممتازاً لكنه -لهذا السبب- أقل ازدحاماً من المقاهي الأخرى.

وسرعان ما جلسا متقابلين على طاولة صغيرة، وجاءت مضيفة ضجرة متعَبة وسجلت طلباتهما بفتور تام.

قالت تينا معتذرة: لن يكون الشاي جيداً، لكني اعتقدت بأنك تريد مكاناً منعزلاً بعض الشيء.

- هذا صحيح. لا بد أن أوضح لك أسباب طلبي منك الخروج معي؛ لقد قابلت أفراد عائلتك الآخرين بما فيهم زوجة أخيك جاكو... أرملته. أنت الوحيدة التي لم ألتقِها من العائلة. آه، نعم، وأيضاً أختك المتزوجة بالطبع.

- هل ترى أن من الضروري مقابلتنا جميعاً؟

طرحت عليه هذا السؤال بأدب، ولكن كان في صوتها شيء من الحيادية التي جعلت كالغاري يشعر بعدم الارتياح بعض الشيء. وافقها بنبرة جافة: ليس بمعنى الضرورة الاجتماعية، كما أنه ليس بدافع الفضول المحض (ألم يكن الأمر حقاً كذلك؟). ثم أردف قائلاً: كنت أريد فقط أن أعبّر شخصياً -لكم جميعاً- عن عميق أسفي لأنني فشلت في إثبات براءة أخيك أثناء محاكمته.

- فهمت.

- إن كنت تحبينه... هل كنت تحبينه؟

فكرت لحظة ثم قالت: لا؛ لم أكن أحب جاكو.

- ومع ذلك فقد سمعتُ من كل الأطراف بأنه كان يملك... جاذبية كبيرة.

قالت بوضوح ولكن دون عاطفة: كنت لا أثق فيه ولا أحبه.

- ألم تراودك أبداً شكوك (وأرجو المعذرة لهذا السؤال) بأنه قتل والدتك فعلاً؟

- لم يخطر ببالي أبداً إمكانية وجود حلٍّ آخر.

أحضرت المضيفة لهما الشاي. كان الخبز والزبدة بائتين والمربى عبارة عن سائل هلامي غريب الشكل والكعك بلا مذاق، وكان الشاي خفيفاً. رشف منه قليلاً ثم قال: يبدو... أو هكذا جعلتموني أفهم... بأن هذه المعلومات التي قلتها والتي تبرئ أخاك من تهمة القتل قد تكون لها عواقب غير مستحبة. إنها قد تجلب مشاكل جديدة لكم جميعاً.

- الآن القضية سيعاد فتحها؟

- نعم. يبدو أنك فكرت في ذلك، أليس كذلك؟

- يظن والدي أن هذه مسألة حتمية.

- إنني آسف، آسف حقاً.

- لماذا تأسف يا دكتور كالغاري؟

- لا أحب أن أكون سبباً في جلب متاعب جديدة لكم.

- ولكن هل كنت سترضى أن تظل صامتاً؟

- هل تفكرين من وجهة نظر العدالة؟

- نعم. وأنت؟

- بالطبع. العدالة تبدو هامة جداً بالنسبة لي. لقد بدأت أتساءل الآن إن كانت توجد أية أمور أكثر أهمية.

- مثل ماذا؟

طارت أفكاره نحو هيستر. قال: ربما... مثل البراءة.

ازداد الغموض في عينيها، فسألها: بماذا تشعرين يا آنسة آرغيل؟

صمتت لبعض الوقت ثم قالت: إنني أفكر في تلك الكلمات في وثيقة الحقوق المسماة «الماغنا كارتا»: «لن نبخل بالعدالة على أي إنسان».

قال: فهمت؛ هذه هي إجابتك.

* * *

الفصل السابع

كان الدكتور ماكماستر عجوزاً ذا حاجبين كثين وعينين رماديتين ذكيتين وذقن بارزة. استند إلى ظهر كرسيه العتيق وتفحص زائره بعناية، ورأى أنه أحب الذي يراه أمامه.

ومن جانب كالغاري أيضاً كان هناك إحساس بالحب، فلأول مرة منذ عودته إلى إنكلترا أحس بأنه يتحدث إلى رجل يقدّر أحاسيسه ووجهة نظره. قال: جميل منك أن وافقت على مقابلتي يا دكتور ماكماستر.

- أبداً. إنني أشعر بملل قاتل منذ تقاعدي عن ممارسة الطب. طلب مني الأطباء الشباب الجلوس هنا كالدمية والاهتمام بقلبي المتعب، ولكن لا تحسبنَّ أنني مرتاح لذلك، بل أنا غير مرتاح أبداً. إنني أصغي إلى المذياع وسخافاته وأحياناً تقنعني مدبرة منزلي بمشاهدة التليفزيون وتُرّهاته. كنت رجلاً مشغولاً طول حياتي فلم أتعود الجلوس دون عمل، والقراءة تتعب نظري. لذلك لا تعتذر عن إضاعتك وقتي.

قال كالغاري: أول ما ينبغي عليّ شرحه لك هو سبب بقائي مهتماً بهذا الأمر كله. إنني أحسب -من الناحية المنطقية- أنني فعلت

ما جئت لفعله...لأقول الحقيقة المرة حول ارتجاج الدماغ الذي عانيت منه وفقدان الذاكرة وتبرئة الولد. والأمر الوحيد المنطقي والمعقول بعد ذلك هو أن أمضي في طريقي وأحاول نسيان هذا الأمر كله. إيه، أليس هذا صحيحاً؟

قال الدكتور ماكماستر: ربما. هل لديك ما يقلقك؟

- نعم؛ كل شيء يقلقني. الحال أن الخبر الذي جئت به لم يُستقبل بالطريقة التي توقعتها.

- آه، لا غرابة في هذا؛ إنه أمر يحدث كل يوم. إننا نتصور شيئاً في أذهاننا قبل حدوثه، ولا يهم ما هو هذا الشيء (استشارة مع طبيب آخر، طلب يد فتاة للزواج، كلام مع ابنك قبل عودته إلى مدرسته...) وعندما يحدث هذا الشيء فإنه لا يحدث بالطريقة التي فكرت بها. إنك تفكر في الأشياء التي ستقولها، وفي العادة تقرر ما ستكون عليه الإجابات. وهذا بالطبع ما يضللك في كل مرة، فالإجابات لا تكون أبداً كما توقعت لها أن تكون. أظن أن هذا يزعجك؟

- نعم.

- ما الذي توقعته؟ هل توقعت أن يصغوا لك بكل جوارحهم؟

فكر كالغاري ثم قال: كنت أتوقع... اللوم؟ ربما. الاستياء؟ محتمل جداً. لكني توقعت أيضاً الامتنان.

قال ماكماستر متأففاً: ولم تجد الامتنان، كما لم تجد أشياء كما ينبغي؟

اعترف كالغاري قائلاً: شيء من هذا القبيل.

- ذلك لأنك لم تعرف الظروف إلاّ عندما ذهبت إلى هناك. لماذا جئت إليّ بالتحديد؟

ردّ عليه كالغاري ببطء: لأنني أريد أن أفهم المزيد عن العائلة. لا أعرف الآن إلاّ الحقائق المقبولة والمعروفة: امرأة طيبة غير أنانية تبذل جهدها من أجل الأطفال الذين تتبناهم، امرأة تحب العمل العام وذات شخصية رائعة جداً. ومقابل هذه الشخصية شخصية طفل انحرف... شخصية الشاب المنحرف، هذا كل ما أعرفه. لا أعرف أي شيء آخر... لا أعرف أي شيء عن السيدة آرغيل نفسها.

- كلامك صحيح. إنك تضع إصبعك على القضية الهامة، وإذا ما فكرت في هذا تجد دائماً أنه الجزء المثير في أية جريمة قتل، فالناس دوماً ينشغلون بالسؤال عن تفكير القاتل وشخصيته، ولكن: ما هي طبيعة شخصية القتيل؟ ربما فكرت في أن السيدة آرغيل ليست من النوع الذي ينبغي أن يُقتل.

- أظن أن الجميع شعروا بذلك.

- إنك محق تماماً من الناحية الأخلاقية. ولكن... أليس الصينيون هم الذين رأوا أن الإحسان ينبغي اعتباره إثماً وليس فضيلة؟ كلامهم هذا فيه بعض الصحة؛ فالعمل الخيري يفعل أشياء للناس، يجمعهم ويقوي الصلات بينهم. كلنا يعرف الطبيعة البشرية. ابذل خدمة لشاب ترَ أنك تشعر نحوه بعاطفة، تحبه، ولكن هل يشعر الشاب المستفيد من خدمتك بنفس الشعور نحوك؟ هل يحبك حقيقة؟ يجب عليه ذلك، بالطبع، ولكن هل يحبك فعلاً؟

ثم أضاف الطبيب بعد لحظة من الصمت: حسناً، هذا ينطبق

على حالتنا. كانت السيدة آرغيل ما يمكن تسميته «الأم الرائعة»، لكنها بالغت كثيراً في عمل الخير، لا شك في ذلك. أو أنها أرادت المبالغة، أو حاولت ذلك بالتأكيد.

- إنهم لم يكونوا أبناءها.

- نعم. وهذا -بالضبط- هو سبب المشكلة كما أظن. ما عليك إلاّ أن تنظر إلى أية قطة، فعندما تنجب صغارها تراها شديدة الحدب عليها والحرص على حمايتها حتى لتخمش أي شخص يقترب منها. ثم بعد أسبوع أو نحو ذلك تبدأ استئناف حياتها الخاصة بها، فتخرج وتطارد وترتاح قليلاً من صغارها. إنها تبقى تمارس حماية صغارها من هجوم أي شخص، لكنها لا تعود مهووسة بحمايتهم طول الوقت. إنها تلعب معهم قليلاً ثم لا تلبث أن تنقلب عليهم عندما يُبدون شيئاً من الخشونة، فتلطمهم وتفهمهم أنها تريد البقاء بمفردها لبعض الوقت. إنها تعود إلى الطبيعة والفطرة، وكلما كبر أولادها كلما قلّ اهتمامها بهم وانطلقت تهتم أكثر فأكثر بالهررة الذكور في منطقتها. هذا ما يمكنك أن تسميه بالنمط المعتاد لحياة الأنثى. لقد رأيت كثيراً من النساء والفتيات ذوات الغريزة الأمومية القوية يحرصن كثيراً على الزواج بدافع من غريزة الأمومة (رغم أنهن قد لا يعرفن هذه الحقيقة تماماً)، ثم ينجبن الأطفال فيشعرن بالسعادة والرضا وتعود حياتهن إلى الانسجام والاعتدال، فيستطعن الاهتمام بأزواجهن وبالشؤون المحلية العامة وبالكلام الذي يدور من حولهن وبأطفالهن بالطبع. وهذا كله يحدث في تناغم وانسجام. لقد أُشبعت غريزة الأمومة لديهن بالمعنى المادي الصرف للكلمة. أما بالنسبة للسيدة آرغيل فقد كانت غريزة الأمومة قوية جداً لكن الإشباع المادي لهذه الغريزة

عن طريق حمل جنين في بطنها لم يحدث أبداً، ولذلك فإن هاجسها الأمومي لم يضعف أبداً. كانت تريد أطفالاً، الكثير من الأطفال، ولم تستطع الحصول على كثير منهم. كان عقلها مشغولاً ليل نهار بهؤلاء الأطفال، ولم يعد زوجها يهمها كثيراً؛ أصبح فقط فكرة مجردة في خلفية المشهد. كان الأطفال بالنسبة لها كل شيء: إطعامهم، وكساؤهم، ولعبهم، وكان كل شيء مرتبطاً بهم. لقد عملت لهم الكثير، ولكن الأمر الوحيد الذي لم تعطهم إياه (وكانوا بحاجة إليه) هو القليل من الإهمال لما فيه مصلحتهم. لم تكن لتتركهم يخرجون ببساطة إلى الحديقة لكي يلعبوا كغيرهم من أطفال الريف، بل كان عليهم اللعب في جو صناعي بألعاب صناعية. ولم يكن طعامهم عادياً بسيطاً، بل إن الخضار التي كان أولئك الأطفال يأكلونها كانت تُطحن لهم وتنخل حتى يبلغوا الخامسة من أعمارهم، وكان حليبهم معقماً والماء يشربونه بعد فحصه والسعرات الحرارية والفيتامينات يتناولونها بمقدار وحساب معين! عندما أتحدث إليك بهذه الطريقة فلا يعني أنني أخالف قواعد مهنة الطب، فالسيدة آرغيل لم تكن مريضة عندي في يوم من الأيام، وعندما كانت تحتاج إلى طبيب كانت تذهب إلى الأطباء في شارع هارلي في لندن، لكنها -مع ذلك- لم تكن تتردد عليهم كثيراً، فقد كانت امرأة قوية الجسم وتتمتع بصحة جيدة. لكني كنت الطبيب المحلي الذي تستدعيه لمعالجة أطفالها، رغم أنها كانت تميل إلى الاعتقاد بأنني لا أهتم بحالاتهم كما ينبغي. لقد أوصيتها بتركهم يأكلون التوت من أشجار السياج وقلت لها إنهم لن يتضرروا من ابتلال أقدامهم بالماء ومن إصابتهم بنزلة برد بين حين وآخر وإنها لا توجد مشكلة خطيرة إذا ما ارتفعت درجة حرارة الطفل قليلاً... كانت تبذل لأولئك الأطفال كل رعاية في الملبس والمأكل والحب ولم يكن ذلك -في كثير من حالاته- ينفعهم.

قال كالغاري: تقصد أن ذلك لم ينفع جاكو؟

- الحق أنني لم أكن أفكر بجاكو فقط. أحسب أن جاكو كان معرضاً للانحراف من البداية. إن التسمية الحديثة له هي «طفل مجنون مشوش»... إنها تسمية جيدة له. لقد بذلت السيدة آرغيل وزوجها كل شيء من أجله، كل شيء يمكن فعله. لقد مرّ عليّ في حياتي الكثير من أمثال جاكو؛ عندما ينحرف الولد انحرافاً لا يُرجى معه صلاح يقول والداه: "ليتنا كنّا حازمين معه عندما كان صغيراً"، أو ربما قالا: "لقد قسونا عليه كثيراً، ليتنا تعاملنا معه بلطف أكثر". لا أظن أن بين الحالتين فرقاً أبداً؛ فمن الأولاد من ينحرف لأنه يعيش حياة قاسية غير سعيدة ويشعر بأنه غير محبوب، ومنهم أيضاً من ينحرف لأنه سينحرف في كل الأحوال مع أقل ضغط سيواجهه. وهذه الحالة الأخيرة تنطبق على جاكو.

- إذن لم تفاجأ عند اعتقاله بتهمة القتل؟

- بصراحة: لقد فوجئت. ليس لأن من شأن جاكو أن يمقت فكرة القتل بشكل خاص، فقد كان شاباً عديم الضمير. لكن نوع الجريمة التي ارتكبها هو ما فاجأني. أعزف أنه كان عنيف الطبع، فعندما كان طفلاً صغيراً كان كثيراً ما يلقي بنفسه على طفل آخر أو يضربه بلعبة ثقيلة أو بقطعة من خشب، لكنه كان يضرب في العادة طفلاً أصغر منه، كما أن ذلك لم يكن ينتج -عادة- عن غضب أعمى بقدر ما كان رغبة في الإيذاء والحصول على شيء كان يريده شخصياً. إن الجريمة التي كان من شأني أن أتوقع من جاكو ارتكابها -إن كان سيرتكبها أصلاً- هي من النوع الذي يحدث عندما يخرج صبيّان في غارة ثم تطاردهما الشرطة فيقول أمثال جاكو: "اضربه على رأسه أيها

الفتى... اقتله". إنهم راغبون برؤية جرائم القتل ومستعدون للتحريض على القتل، لكنهم لا يمتلكون الجرأة لقتل أحد بأنفسهم وبأيديهم. هذا ما كنت سأقوله، ويبدو الآن أنني كنت على صواب.

نظر كالغاري إلى السجادة على الأرض. كانت سجادة بالية لا يكاد المرء يتبين نقشتها، ثم قال: لم أكن أعرف ما أنا مقدم عليه. لم أدرك ماذا كان ذلك سيعني للآخرين. لم أعرف أنه يمكن... أنه لا بد...

كان الطبيب يومئ برأسه موافقاً بلطف، وما لبث أن قال: نعم، هذا ما يبدو. يبدو وكأنك مضطر لوضع التهمة هناك، في وسط تلك القائمة.

- أظن أن هذا هو حقاً ما جئت إليك من أجله. لا يبدو -من حيث الظاهر- أن لأي واحد منهم أي دافع حقيقي لقتلها.

وافقه الطبيب: ليس من حيث الظاهر. ولكن إذا ما تعمقت قليلاً خلف الظواهر فإنني أظن أنك ستجد الكثير من الأسباب التي تدفع أحدهم لقتلها.

سأله كالغاري: لماذا؟

- هل تشعر حقاً أن هذا من شأنك؟

- أظن ذلك. لا يمكنني إلاّ الشعور بمثل ذلك؟

- لا أدري... ولكن ربما كنت سأشعر بما تشعر به لو كنت في مكانك. حسناً، إن ما سأقوله هو أن أحداً منهم لم يكن ينتمي حقاً لنفسه أو يملك زمامها. لم يكونوا كذلك طالما أمهم على قيد الحياة

(وإنني أسميها أمهم من باب تبسيط الحديث)، فقد كانت لها سيطرة عليهم جميعاً.

- كيف؟

- كانت تنفق عليهم مالياً، تنفق عليهم بسخاء. وكان هناك دخل كبير. وكان ذلك المال يقسم عليهم بالمقادير والنسب التي يراها الأوصياء ملائمة، ولكن رغم أن السيدة آرغيل نفسها لم تكن واحدة من الأوصياء إلاّ أن رغباتها كانت تؤخذ بعين الاعتبار، ما دامت على قيد الحياة.

سكت دقيقة ثم تابع يقول: إنه لمن اللافت للنظر إلى حد ما كيف حاولوا جميعاً الهروب... كيف كافحوا من أجل ألاّ يخضعوا لنمط الحياة الذي أعدته لهم (لأنها وضعت لهم نمطاً بالفعل، وكان نمطاً ممتازاً). كانت تريد أن تهيئ لهم بيتاً جيداً وتعليماً جيداً ومعاشاً جيداً وبداية جيدة في المهن التي تختارها هي لهم، كانت تريد أن تعاملهم كما لو أنهم أطفالها الحقيقيون من زوجها إلاّ أنهم لم يكونوا أطفالها بالطبع. كانت لهم غرائز وأحاسيس وقدرات وحاجات مختلفة عن بعضهم البعض تمام الاختلاف، فميكي الصغير يعمل الآن بائع سيارات، أما هيستر فقد هربت من البيت تقريباً لكي تعمل بالمسرح، وقد وقعت في حب شاب من النوع البغيض جداً ولم تنجح في عملها كممثلة أبداً فاضطرت للعودة إلى بيتها، وكان عليها أن تعترف بأن أمها كانت على حق ولم تكن تحب الاعتراف. أما ماري فقد أصّرت على الزواج أثناء الحرب برجل حذرتها أمها من الزواج به. كان شاباً شجاعاً وذكياً لكنه كان مغفلاً جداً في أمور العمل، ثم أصيب بالشلل، وقد تمّ إحضاره إلى «صني بوينت» لقضاء فترة من

النقاهة. كانت السيدة آرغيل تضغط عليهما للعيش معها بصفة دائمة. وكان الزوج مستعداً لذلك تماماً لكن ماري كانت ترفض ذلك رفضاً قاطعاً، فقد كانت تريد أن تعيش في بيتها مستقلة مع زوجها، لكنها كانت ستخضع دون شك لطلب أمها لو لم تمت. وبالنسبة لميكي، الولد الآخر، فقد كان دوماً شاباً ميالاً للسخط والحزن. كان يحس بسخط مرير من تخلي أمه الحقيقية عنه، لقد كره ذلك طفلاً ولم يستطع التغلب على شعوره هذا، وأظن أنه -في قرارة نفسه- قد كره دوماً أمّه بالتبني. ثم هناك المرأة السويدية الممرضة. لم تكن تحب السيدة آرغيل، بل كانت تحب الأطفال وتحب ليو. وقد حصلت على الكثير من المكافآت المالية من السيدة آرغيل، وربما حاولت أن تشعر بالامتنان لها لكنها لم تستطع ذلك. ومع ذلك لا أحسب أن مشاعر الكراهية لديها يمكن أن تدفعها لضرب المرأة التي أحسنت إليها على رأسها بقضيب من حديد. ولماذا تفعل ذلك وهي تستطيع ترك المنزل في أي وقت تشاء؟ وبالنسبة للزوج، ليو آرغيل...

- نعم، ماذا عنه؟

- سوف يتزوج ثانية، فحظاً سعيداً له؛ إذ أن الآنسة فوغان شابة لطيفة جداً. إنها ودودة وطيبة وحلوة المعشر وتحبه كثيراً. كانت تحبه منذ وقت طويل. ما الذي كانت تشعر به نحو السيدة آرغيل؟ ربما تستطيع أن تخمن ذلك بقدر ما أستطيع أنا. من الطبيعي أن وفاة السيدة آرغيل قد سهلت عليهما الأمور كثيراً، فلم يكن ليو آرغيل من النوع الذي يقيم علاقة حب مع سكرتيرته وزوجته موجودة في نفس البيت، كما لا أحس حقاً بأنه كان سيترك زوجته.

قال كالغاري ببطء: لقد رأيتهما وتحدثت معهما. لا أستطيع أن أصدق أن أياً منهما ..

- أعرف، لا يمكن لأحد أن يصدق، أليس كذلك؟ ومع هذا... فإن واحداً من أهل ذلك البيت هو الذي فعلها.

- هل ترى ذلك حقاً؟

- لا أرى أي احتمال آخر. الشرطة متأكدون تماماً من أنه لم يكن من عمل شخص غريب، وربما كان الشرطة على حق.

- ولكن من منهم؟

رفع ماكماستر كتفيه حيرةً وقال: لا أدري.

- أليست لديك أية فكرة من خلال معرفتك بهم جميعاً؟

- لو كانت لديّ لما أخبرتك، فما الذي أملكه لأبني عليه حكمي على أية حال؟ إن أحداً منهم لا يبدو لي قاتلاً محتملاً، ما لم أكن قد سهوت عن عامل ما من العوامل. ومع ذلك... لا أستطيع استبعاد أي منهم كاحتمال قائم. إن رأيي هو أننا لن نعرف الحقيقة أبداً. سيقوم الشرطة بالتحريات وسيبذلون جهدهم، ولكن الحصول على دليل بعد هذا الوقت الطويل ومع قلة ما لديهم من معلومات يهتدون بها...

هزّ رأسه وأكمل يقول: نعم، لا أعتقد أن الحقيقة ستُعرف أبداً. توجد دائماً قضايا من هذا النوع يقرأ المرء عنها أحياناً. قبل خمسين عام أو مئة عام حصلت قضايا كان المجرم فيها بالضرورة واحداً من

ثلاثة أشخاص أو أربعة أو خمسة، ولكن لم يتوفر أي دليل كاف ولم يستطع أحد الجزم بالموضوع على الإطلاق.

- هل تظن أن هذا ما سيكون عليه الحال هنا؟

- نعم، أظن ذلك.

ثم نظر إلى كالغاري نظرة متفحصة مرة أخرى وقال: وهذا ما يجعل الموقف فظيعاً جداً، أليس كذلك؟

- فظيع بسبب البريء. هذا ما قالته لي.

- من؟ من التي قالت وماذا قالت؟

- الفتاة... هيستر. قالت إنني لم أفهم أن البريء هو الذي يهم. وهو ما كنتَ تقوله لي قبل قليل، بأننا لن نعرف أبداً...

أكمل الطبيب له العبارة: مَن هو البريء؟ نعم، ليتنا نعرف الحقيقة. حتى لو لم يؤدِّ الأمر إلى اعتقال المذنب أو محاكمته أو إدانته. مجرد معرفة الحقيقة، لأنه بخلاف ذلك...

ثم سكت فقال كالغاري: نعم؟

- لك أنت أن تخمّن العواقب. لا، لا حاجة لأن أقول هذا؛ فقد قلتَه أنت أصلاً.

ثم أكمل يقول: إنه يذكّرني بقضية برافو... أظن أنها حدثت قبل مئة عام تقريباً، ولكن ما زالت المؤلفات تكتب حولها، وهي تدور حول جمع دلائل قوية على أن زوجة القتيل هي التي قتلته أو أن السيدة كوكس هي التي قتلته أو الدكتور غولي أو حتى أن تشارلز

برافو نفسه هو الذي تناول السم (على الرغم من حكم قاضي التحقيق بأنها جريمة قتل). كلها نظريات معقولة... ولكن لا أحد الآن يمكنه أن يعلم الحقيقة أبداً. ولذلك ماتت فلورانس برافو من الشراب بعد أن تخلت عنها عائلتها، والسيدة كوكس أصبحت منبوذة من المجتمع وعاشت مع أولادها الثلاثة الصغار وكبرت ومعظم من يعرفونها يظنون أنها قاتلة، كما تحطمت حياة الدكتور غولي المهنية والاجتاعية. كان أحدهم مذنباً ونجا من العقوبة، لكن الآخرين كانوا أبرياء... ولم يكن لديهم ما يمكن أن يُحاسَبوا عليه.

قال كالغاري: هذا ما لا ينبغي أن يحدث الآن... أبداً!

* * *

الفصل الثامن

كانت هيستر آرغيل تنظر إلى نفسها في المرآة. كان في نظرتها قليل من الخيلاء، ولكن تلك الخيلاء كانت أقرب إلى التساؤل القلِق الذي يخفي وراءه تواضع شخصية لم تكن أبداً واثقة من نفسها. رفعت شعرها عن جبينها وسحبته إلى جانب ثم عبست لترى نتيجة ذلك، وعندما رأت في المرآة وجهاً وراءها جفلت والتفتت بسرعة خائفة.

قالت كريستي ليندستروم: آه، إنك خائفة!

- ماذا تقصدين بأنني خائفة يا كريستي؟

- أنت خائفة مني. إنك تظنين بأنني جئت وراءك بهدوء وأنني ربما كنت سأضربك بشيء ما.

- آه، لا تتحامقي يا كريستي. ما كنت -طبعاً- لأفكر بشيء كهذا.

- لكنك فكرت به فعلاً. وأنت محقة في مثل هذا التفكير، في النظر إلى الظل من حولك والفزع من رؤية شيء لا تفهمينه تماماً. لأن في هذا البيت فعلاً شيء يخاف منه. إننا نعرف هذا الآن.

- في كل الأحوال يا عزيزتي كريستي، لا حاجة لأن أخاف منك أنت.

- وكيف تعرفين؟ ألم أقرأ في الصحيفة قبل مدة قصيرة عن امرأة كانت تعيش مع أخرى لسنوات ثم قتلتها فجأة. خنقتها وحاولت اقتلاع عينيها. ولماذا؟ لأنها -كما أخبرت الشرطة بهدوء- كانت تشاهد منذ وقت طويل شيطاناً يتلبس المرأة. كانت ترى الشيطان يطل من عيني المرأة وأدركت أن عليها أن تكون قوية وشجاعة وتقتل الشيطان!

قالت هيستر: نعم، أذكر هذه القصة، لكن تلك المرأة كانت مجنونة.

- آه، لكنها لم تكن تعلم أنها مجنونة. كما لم تكن تبدو مجنونة بالنسبة لمن حولها، لأن أحداً لم يكن يعرف ما الذي كان يدور في عقلها البائس المخبول. ولذلك فإنني أقول لك إنك لا تعرفين ما الذي يجري في عقلي أنا. ربما كنت أنا مجنونة، وربما نظرت ذات يوم إلى أمك فظننت أنها الشيطان وأن عليّ أن أقتلها.

- ولكن هذا هراء يا كريستي، هراء تماماً!

تنهدت كريستي ليندستروم وجلست. قالت: نعم، هراء. كنت أحب أمك كثيراً، فقد كانت طيبة معي دائماً. لكن ما أحاول قوله لك يا هيستر وما عليك أن تفهميه وتصدقيه هو أنك لا تستطيعين أن تقولي «هراء» لأي شيء أو لأي شخص، لا يمكنك أن تثقي بي أو بأي شخص آخر.

- أراك جادة فيما تقولين.

- إنني جادة جداً. كلنا يجب أن نكون جادين ويجب أن نكون صريحين مع بعضنا، فليس من المجدي التظاهر بعدم حدوث شيء. ذلك الرجل الذي جاء إلى هنا. كنت أتمنى لو لم يأت... لكنه جاء، وأثبت تماماً -كما فهمت- بأن جاكو لم يكن هو القاتل. حسناً، إذن فالقاتل شخص آخر، وهذا الآخر لا بد أنه واحد منّا.

- لا يا كريستي، لا؛ قد يكون شخصاً أراد...

- أراد ماذا؟

- أراد سرقة شيء أو شخصاً كان يحقد على أمي لسبب ما في الماضي.

- هل تظنين أن أمك كانت ستسمح لشخص كهذا بالدخول؟

- ربما فعلت ذلك. أنت تعرفينها؛ لو جاء أحد وقص عليها حكاية فقره وحظه العاثر، ولو جاء شخص وأخبرها عن طفل أهمله أهله أو أساؤوا معاملته، ألا تظنين أنها كانت ستسمح لذلك الشخص بالدخول وتأخذه إلى غرفتها لتسمع ما سيقوله؟

- يبدو لي ذلك احتمالاً بعيداً جداً، وما يبدو بعيد الاحتمال أكثر هو أن تجلس أمك على طاولة وتترك ذلك الشخص يأخذ قضيب الموقد ليضربها على مؤخرة رأسها. لا؛ كانت مطمئنة واثقة ومع شخص تعرفه في تلك الغرفة.

صاحت هيستر: ليتك لم تقولي هذا يا كريستي، ليتك لم تقوليه. إنك تقربين إصبع الاتهام، تقربينه كثيراً.

- لأنه قريب فعلاً. حسناً، لن أقول المزيد حالياً، لكني حذرتك

بأنك -رغم اعتقادك بأنك تعرفين شخصاً ما جيداً، ورغم اعتقادك أنك تثقين به- إلاّ أنك لا يمكنك الجزم بشيء. لذلك احترسي؛ احترسي مني ومن ماري ومن والدك ومن غويندا فوغان.

- كيف سأستمر في العيش هنا وأنا أشك بالجميع؟

- إذا كنت تسمعين نصيحتي فمن الأفضل لك أن تغادري هذا البيت.

- لا أستطيع ذلك الآن.

- ولِمَ لا؟ بسبب الطبيب الشاب؟

- لا أدري ماذا تقصدين يا كريستي.

احمرّت وجنتا هيستر.

- أقصد الدكتور كريغ. إنه شاب لطيف جداً، وهو طبيب جيد، ودود وذو ضمير حي. قد تسوء حالتك، ومع ذلك أظن أن من الأفضل لك ترك المكان هنا والسفر بعيداً.

صاحت هيستر غاضبة: هذا كله هراء، هراء، من كل قلبي.

* * *

وقّع ليو آرغيل آخر الرسائل التي وضعتها غويندا فوغان أمامه ثم سألها: أهذه هي الأخيرة؟

- لقد أنجزنا الكثير اليوم.

بعد دقيقة أو دقيقتين ختمت غويندا الرسائل وغلفتها، فسألته:

ألم يحن الوقت بعد لتسافر إلى الخارج في تلك الرحلة؟

- أسافر إلى الخارج؟

بدا ليو آرغيل وكأنه لم يفهم. قالت غويندا: نعم؛ ألا تذكر أنك كنت ستذهب إلى روما؟

- آه، بلى، بلى، صحيح.

- كنت ذاهباً لرؤية تلك الوثائق من الأرشيف التي كتب لك الكاردينال ماسيليني عنها.

- نعم، أذكر.

- هل تريدني أن أقوم بحجز تذاكر الطيران أم أنك ستذهب في القطار.

نظر ليو إليها وكأن ذهنه قد عاد من رحلة بعيدة، ثم ابتسم ابتسامة باهتة وقال: يبدو أنك متلهفة على التخلص مني يا غويندا.

- آه، لا يا عزيزي، لا.

جاءت نحوه مسرعة وجثت على ركبتها بجانبه وقالت: لا أريدك أن تتركني أبداً. ولكن، ولكني أظن... آه! أنه من الأفضل أن تسافر من هنا بعد، بعد...

- بعد ما حدث الأسبوع الماضي؟ بعد زيارة الدكتور كالغاري؟

- ليته لم يأتِ إلى هنا؛ ليته ترك الأمور كما كانت عليه.

- مع بقاء إدانة جاكو ظلماً بشيء لم يفعله؟

- ربما كان من شأنه أن يفعلها. ربما كان سيفعلها في أي وقت، إن الصدفة وحدها هي التي جعلته لا يقتلها.

قال ليو متأملاً: أمر غريب. لم أستطع أن أصدق حقاً أنه فعلها. أقصد أنني اضطررت طبعاً للتسليم بالأدلة، ولكن الأمر بدا لي بعيد الاحتمال كثيراً.

- لماذا؟ كان دائماً عصبي المزاج ولا يطاق، أليس كذلك؟

- نعم، آه، نعم. كان يضرب الأطفال الآخرين، وفي العادة الأطفال الذين يصغرونه سناً. ولكني لم أشعر أبداً أنه يمكن أن يهاجم راينا ويقتلها.

- ولم لا؟

- لأنه كان يخشاها. كانت ذات سلطة كبيرة كما تعرفين، وكان جاكو يشعر بهذا مثل أي شخص آخر.

قالت غويندا: ولكن ألا تظن أن ذلك تماماً هو السبب... أعني...

ثم سكتت، فنظر ليو إليها متسائلاً. كان في نظراته شيء جعل وجهها يحمر، فالتفتت بعيداً وذهبت إلى حيث النار وجثت على ركبتها أمامها ويداها باتجاه اللهب. قالت في نفسها: نعم، كانت راينا مسيطرة دون شك. كانت معتدة بنفسها كثيراً، واثقة منها كثيراً، كأنها ملكة تأمرنا وتنهانا جميعاً. أليس ذلك كافياً لأن يجعل المرء راغباً في

الإمساك بقضيب، لأن يجعل المرء راغباً في ضربها، في إسكاتها مرة وإلى الأبد؟ كانت راينا دوماً على حق وكانت دوماً أفضل من يعرف ما هو الأفضل!

نهضت فجأة وقالت: ليو، ألا... ألا يمكننا الزواج الآن بدلاً من الانتظار حتى شهر آذار (مارس)؟

نظر ليو إليها. صمت لحظة ثم قال: لا يا غويندا، لا. لا أظن أن ذلك سيكون إجراءً مناسباً.

- ولِمَ لا؟

- أظن أنه سيكون من الخطأ الاستعجال في أي شيء.

- ماذا تعني؟

جاءت إليه فجثت على ركبتها ثانية بجانبه وقالت: ليو، ماذا تقصد؟ يجب أن تخبرني.

- يا عزيزتي! أرى أننا -كما قلت- يجب ألاّ نتعجل ونندفع في أي شيء.

- لكننا سنتزوج في آذار فعلاً كما خططنا، أليس كذلك؟

- آمل ذلك... بلى، آمل ذلك.

- أنت لا تتحدث وكأنك واثق. ليو، ألم تعد تهتم؟

وضع يديه على كتفيها وقال: آه، إنني أهتم يا عزيزتي بالطبع. أنت كل شيء لي في هذه الدنيا.

- حسناً، ما السبب إذن؟

نهض ثم قال: لا، ليس بعد؛ يجب أن ننتظر. لا بد أن نكون واثقين.

- واثقين من ماذا؟

لم يجبها، فقالت: لا أظنك ترى... لا يمكنك أن تظن...

- إنني... إنني لا أظن شيئاً.

فُتح الباب ودخلت كريستي ليندستروم وهي تحمل صينية وضعتها على المكتب وهي تقول: هذا هو الشاي يا سيد آرغيل. هل أحضر لك فنجاناً آخر يا غويندا أم أنك ستشربينه مع الآخرين في الطابق الأرضي؟

قالت غويندا: بل سأنزل إلى غرفة الطعام. سآخذ هذه الرسائل، فيجب أن نرسلها.

أخذت الرسائل التي وقّعها ليو قبل قليل بيدين مضطربتين قليلاً وخرجت من الغرفة. ونظرت كريستي ليندستروم إليها وهي ذاهبة ثم نظرت إلى ليو وسألته: ما الذي قلتَه لها؟ ما الذي فعلتَه فأزعجها؟

قال ليو بصوت متعب: لا شيء؛ لا شيء أبداً.

هزت كريستي ليندستروم كتفيها ثم خرجت من الغرفة دون أي كلمة أخرى، ومع ذلك أحس بنقدها الخفي. تنهد ليو وهو يستند إلى الكرسي، وكان يشعر بالتعب الشديد. صبّ الشاي في فنجانه لكنه لم يشربه، وبدلاً من ذلك جلس إلى كرسيه يحملق إلى أرجاء الغرفة دون هدف وعقله مشغول بالماضي.

النادي الاجتماعي الذي كان يهتم به في الطرف الشرقي من لندن... هناك التقى راينا كونستام أول مرة. إنه يستطيع أن يراها الآن بوضوح في مخيلته. فتاة متوسطة الطول ممتلئة الجسم ترتدي ثياباً لم يقدّر وقتها أنها غالية الثمن، لكنها كانت ترتديها دون أن توليها الاهتمام الكافي. فتاة مستديرة الوجه، جادة، ودودة، أعجبه ما رأى فيها من لهفة وسذاجة وهي تتحدث عن الكثير من العمل، والكثير مما يجدر عمله! كانت كلماتها تتدفق منها بحماسة وسرعة دون انسجام، وقد أحس قلبه بالدفء والانجذاب إليها لأنه -هو الآخر- كان يشعر بأن هناك الكثير ممّا ينبغي ويجدر عمله، رغم أنه كان يمتلك موهبة فطرية في السخرية والتهكم جعلته يشك فيما إذا كانت الأعمال القيمّة ناجحة دائماً كما ينبغي لها أم أن مصيرها الفشل. أما راينا فلم تكن لديها أية شكوك: لو فعلت هذا، لو فعلت ذاك، لو أن هذه المؤسسة أو تلك حصلت على أموال وإعانات فإن نتائج أعمالها الخيرية ستأتي بطريقة تلقائية.

لقد عرف الآن أنها لم تأخذ أبداً في الحسبان تنوع الطبيعة البشرية. كانت تنظر إلى الناس دوماً كحالات، كمشكلات بحاجة إلى التعامل معها، ولم تكن ترى أبداً أن كل إنسان مختلف عن الآخر وأنه سيتفاعل بطريقة مختلفة وأنه يمتلك خاص مزاجية غريبة خاصة به. لقد قال لها وقتها -كما يتذكر- بألا تتوقع الكثير، لكنها كانت تتوقع الكثير دائماً (رغم أنها أنكرت اتهامه). كانت دائماً تتوقع الكثير وكان أملها يخيب دائماً. لكنه وقع في حبها بسرعة، وقد فوجئ عندما اكتشف بأن والديها ثريّان.

خططا لحياتهما معاً على أسس من التفكير الرفيع وليس كما

يخطط لحياة عادية. ولكنه يستطيع الآن أن يرى بوضوح ما الذي جعله ينجذب نحوها بشكل رئيسي؛ إنه قلبها الدافئ المحب. لكن دفء القلب هذا لم يكن تجاهه، وهذه هي المأساة. كانت تحبه، نعم، لكن ما كانت تريده منه ومن الحياة هو الأطفال. لكن الأطفال لم يأتوا!

ذهبا إلى أطباء، أطباء مشهورين وأطباء غير مشهورين، وحتى إلى مشعوذين! وكان الرأي في النهاية هو الرأي الذي أُجبرت على قبوله، وهو أنها لن تستطيع أبداً إنجاب أطفال. لقد شعر بالأسف عليها بشكل كبير، وقد أذعن راضياً لاقتراحها بتبني طفل. وكانا -أصلاً- على اتصال بجمعيات التبني عندما كانا في زيارة إلى نيويورك وصدمت سيارتُهما طفلةً كانت تركض خارجة من أحد المنازل في أحد الأحياء الفقيرة من المدينة. وقد قفزت راينا من السيارة وجثت على الشارع قرب الطفلة التي كانت قد أصيبت ببعض الكدمات فقط ولم تصب بأذى. كانت طفلة جميلة ذهبية الشعر زرقاء العينين، وأصرّت راينا على أخذها إلى المستشفى حتى تتأكد من عدم وجود إصابات، ثم قامت بمقابلة أقارب الطفلة، عمتها القميئة وزوج عمتها المدمن على الخمر. كان واضحاً أنهما لا يملكان أية مشاعر نحو الطفلة التي أخذاها للعيش معهما منذ وفاة والديها، وقد اقترحت راينا عليهما أخذ الطفلة للعيش معها بضعة أيام، ووافقت عمتها بكل سرور قائلة: لا أستطيع العناية بها هنا عناية صحيحة.

وهكذا عادا إلى جناحهما في الفندق ومعهما ماري. وكان واضحاً أن الطفلة قد أحبت السرير الناعم والحمّام الفخم، وقد اشترت راينا ملابس جديدة لها. ثم جاءت اللحظة التي قالت فيها الطفلة: لا أريد العودة إلى البيت، أريد أن أظل هنا معكما.

كانت راينا قد نظرت إليه بلهفة مفاجئة فيها فرحة وحنين، وقالت له عندما كانا وحدهما: دعنا نبقيها؛ من السهل ترتيب هذا الأمر. سوف نتبناها، وستكون طفلتنا. إن تلك المرأة ستكون مسرورة جداً لو تخلصت منها.

وقد وافق على طلبها بسهولة، فإن كان من شأن ذلك أن يجعل را[illegible]يدة فلا بأس فيه. كانت الطفلة تبدو هادئة ومهذبة ومطيعة، كان واضحاً أنها لا تكنّ لعمتها وزوجها أية مشاعر. استشارا المحامين وتمّ توقيع الأوراق، ومنذ ذلك الوقت أصبحت ماري أوشاغنيس تعرف بماري آرغيل وأبحرت معهما إلى أوروبا. لقد رأى أن ذلك سيسعد المسكينة راينا أخيراً، وقد كانت سعيدة بالفعل، سعيدة بطريقة حماسية تكاد تكون محمودة. وقد شغفت بماري وقدمت لها كل اللعب الثمينة، وقبلت ماري الحياة الجديدة بهدوء وسعادة. ومع ذلك فقد أحس ليو بوجود شيء ما كان يقلقه دائماً؛ كان ذلك الشيء هو سهولة انقياد الطفلة وغياب أي نوع من الحنين للوطن وللأهل، لكنه كان يرجو أن تأتي العاطفة الصادقة فيما بعد. لم يكن يرى في البداية أية علامات حقيقية للتعلق الصادق، بل إن كل ما لمسه هو تقبل للمنافع ورضا ذاتي واستمتاع بكل ما يُقدم لها، ولكن هل كانت تحب أمها الجديدة التي تبنتها؟ لا، لم يلحظ ذلك.

ومنذ ذلك الوقت فصاعداً تمكن من الانسحاب إلى خلفية حياة راينا آرغيل، فقد كانت أماً بفطرتها لا زوجة. والآن بعد أن حصلت على ماري بدا وكأن توقها للأمومة قد تمّ تحفيزه بدل إشباعه؛ فطفل واحد لم يكن كافياً لها. ومنذ ذلك الوقت أصبحت كل مشاريعها الخيرية مرتبطة بالأطفال. انصب اهتمامها على ملاجئ الأيتام وتخصيص المساعدات للأطفال العجزة وعلى حالات الأطفال

المتخلفين عقلياً ومرضى الشلل والمشوهين... من الأطفال دوماً. كان عملاً يثير الإعجاب. كان يشعر -منذ البداية- أنه عمل يثير الإعجاب، لكنه صار مركز حياتها. وبدأ ينخرط شيئاً فشيئاً في أعماله الخاصة به. بدأ في التركيز أكثر على تاريخ الاقتصاد، ذلك الموضوع الذي أثار اهتمامه دوماً، فانسحب وانكفأ في مكتبته أكثر وأكثر، وبدأ يقوم بالأبحاث وكتابة الرسائل العلمية القصيرة. كانت زوجته مشغولة ومتحمسة وسعيدة، وكانت تدير المنزل وتزيد من أنشطتها. كان هو مهذباً ومطيعاً، وكان يشجعها على عملها، وقد بقيت تستشيره ولكن استشارتها كانت قد أصبحت -منذ وقت طويل- أمراً روتينياً يفتقد الجدية. ومع مرور الوقت ازدادت تسلطاً واستبداداً، فهي التي تعرف ما هو الصواب وما هو الأفضل، ولذلك فقد توقف بلباقة عن توجيه النصيحة والنقد لها.

رأى أن راينا لم تكن بحاجة لمساعدته ولا لحبه. كانت مشغولة وسعيدة ونشيطة نشاطاً كبيراً، وكان وراء الجرح الذي لم يسعه إلاّ أن يحس به إحساس غريب بالشفقة عليها. وكأنه كان يعرف أن الطريق الذي كانت تسلكه قد يكون محفوفاً بالمخاطر.

وعند اندلاع الحرب عام ١٩٣٩ ضاعفت السيدة آرغيل من أنشطتها على الفور. جاءتها مرة فكرة فتح دار رعاية للأطفال الفقراء (الذين يمكن أن تأخذهم من أزقة لندن). كانت على اتصال بكثير من الشخصيات ذات النفوذ في لندن، وكانت وزارة الصحة مستعدة للتعاون معها. وقد بحثت ووجدت منزلاً مناسباً لمشروعها. كان منزلاً حديث البناء عصري الطراز في منطقة بعيدة في إنكلترا يُرجَّح أن تكون بعيدة عن قصف الطائرات، وكانت تستطيع استضافة ثمانية عشر طفلاً بين الثانية والسابعة من أعمارهم. لم يأتِ الأطفال من

بيوت فقيرة فقط وإنما جاؤوا أيضاً من بيوت عائلاتها مفككة. كانوا أيتاماً أو أطفالاً غير شرعيين ترغب أمهاتهم بإبعادهم عن مناطق القصف أو مللن من العناية بهم. أطفال من بيوت أهملت أطفالها أو أساءت معاملتهم. كان ثلاثة أو أربعة من الأطفال مقعدين، وبالنسبة للعلاج الطبيعي استقدمت أخصائية علاج طبيعي سويدية وممرضتين مدربتين تدريباً كاملاً، إضافة إلى جهاز محلي من العاملين. كان كل شيء يجري لا بما يحقق الراحة فقط بل بما يحقق الرفاهية والترف أيضاً. وقد احتجّ عليها ذات مرة قائلاً: يجب ألاّ تنسي -يا راينا- أن هؤلاء الأطفال سيعودون إلى البيئة التي أخذناهم منها، فيجب ألاّ نجعل عودتهم صعبة عليهم.

وقد ردّت عليه بمرارة: لا كثير على هؤلاء الصغار... أبداً!

وقد ألح عليها قائلاً: نعم، ولكن تذكّري أنهم يجب أن يعودوا.

لكنها تجاهلت ذلك وقالت: قد لا يكون ذلك ضرورياً. قد... سنرى في المستقبل.

لكن مقتضيات الحرب سرعان ما أحدثت تغيرات، قد توجب استبدال الممرضات بشكل متكرر حيث كن يضجرن من العناية بأطفال أصحاء تماماً فيما تمسّ الحاجة إلى خدماتهن في أماكن أخرى أثناء الحرب. وفي النهاية بقي في دار الرعاية ممرضة واحدة كبيرة بالسن وكريستي ليندستروم، ثم انقطعت خادمة المنزل عن عملها فجاءت كريستي ليندستروم لمساعدتهم في المنزل أيضاً. وقد عملت بأخلاق وتفانٍ كبيرين.

وكانت راينا مشغولة وسعيدة. تذكّرَ ليو أنه كانت توجد لحظات من الارتباك من وقت لآخر، فعندما احتارت راينا وخافت على أحد الأولاد الصغار (ويدعى ميكي) من فقدانه لوزنه بالتدريج ومن ضعف شهيته استدعت له طبيباً. لم يستطع الطبيب اكتشاف شيء غير طبيعي لكنه أخبر السيدة آرغيل بأن الطفل ربما كان يشعر بالحنين لبيته، وعلى الفور رفضت هذه الفكرة قائلة: هذا مستحيل! إنك لا تعرف البيت الذي جاء منه. كان يُضرَب وتُساء معاملته؛ لا بد أنها كانت حياة قاسية بالنسبة له.

وكان الدكتور ماكماستر قد ردّ عليها: ومع ذلك، ومع ذلك، لن أفاجأ إن تبين أنه يحن لبيته. المشكلة تكمن في جعله يتكلم ويشرح ما يريد.

وذات يوم تكلم ميكي. كان يبكي على سريره ويصيح بصوت عالٍ وهو يدفع راينا عنه بقبضتيه: أريد العودة إلى بيتي... أريد العودة إلى أمي وإيرني.

وقد انزعجت راينا ولم تكد تصدق، وقالت: لا يمكن أن يطلب أمه؛ إنها لم تكن تهتم به أبداً، بل كانت تضربه كلما شربت وثملت.

وتذكر ليو أنه ردّ عليها بلطف: لكنك تناقضين الفطرة يا راينا. إنها أمه وهو يحبها.

- لم تكن أمّاً أبداً!

- إنه من لحمها ودمها، هذا ما يشعر به. هذا هو الشيء الذي لا يمكن أن يحل محله شيء.

وقد ردَّت عليه: لكنه بعد هذه الفترة لا بد أن ينظر إليّ أنا كوني أمه.

شعر ليو بالرثاء لحال راينا المسكينة. مسكينة راينا، التي تستطيع أن تشتري كثيراً من الأشياء... أشياء ليست لها شخصياً، وتستطيع أن تبذل حبها للأطفال المنبوذين وأن توفر لهم العناية والسكن. تستطيع أن تشتري كل هذه الأشياء لهم لكنها لا تستطيع أن تشْتري حبهم لها.

ثم انتهت الحرب. بدأ الأطفال يعودون إلى لندن تدريجاً بعد أن طلبهم آباؤهم أو أقاربهم. ولكن لم يذهب الجميع، فقد بقي البعض ممن لم يُرِدهم أحد، وعندها قالت راينا: أتعرف يا ليو؟ لقد أصبحوا الآن كأنهم أطفالنا الحقيقيون. لقد حانت اللحظة التي تكون لنا فيها أسرة حقيقية. أربعة... خمسة من هؤلاء الأطفال يمكنهم الإقامة معنا. سوف نتبناهم ونعيلهم وسيكونون حقاً أبناءنا.

لقد أحس ليو بشعور غامض من عدم الارتياح ولم يعرف لماذا. لا لأنه كان يعارض وجود الأطفال عنده، لكنه أحس غريزياً بزيف هذا الأمر، زيف افتراض أنه من السهولة تكوين أسرة خاصة بوسائل مصطنعة. وقال لها: ألا تعتقدين أن في ذلك مجازفة ما؟

لكنها ردّت عليه: مجازفة؟ وماذا يهم لو كانت مجازفة؟ إنه عمل يستحق المجازفة.

نعم، لقد رأى أنه عمل يستحق المجازفة إلاّ أنه لم يكن واثقاً تماماً مثلها. كان في ذلك الوقت قد ابتعد عنها كثيراً وأصبح في منطقة محايدة باردة غائمة خاصة به، بحيث لم يعد يتحمس للاعتراض.

وقد قال كما قال مرات عديدة: افعلي ما تشائين يا راينا.

كانت قد امتلأت شعوراً بالانتصار والفرح. وضعت خططها واستشارت محاميها وتصرفت بطريقتها العملية، وهكذا اكتسبت لنفسها عائلة: ماري، الطفلة الكبرى التي أحضرتها من نيويورك؛ وميكي، الولد الشاعر بالحنين لبيته والذي كان يبكي حتى ينام في كثير من الليالي شوقاً إلى بيته الوضيع وإلى أمه المهملة العصبية؛ ثم تينا، الطفلة المولَّدة الجميلة ذات الشعر الأسود التي كانت أمها مومساً وكان والدها بحاراً هندياً؛ ثم هيستر التي ولدتها أمها الصغيرة الأيرلندية ولادة غير شرعية ثم أرادت أن تحيا حياتها من جديد؛ ثم جاكو، الصبي المحبوب الصغير ذو الوجه القروي الذي كانت سخافاته تضحكهم والذي كان يسحر الآخرين بحديثه بحيث يفلت من العقوبة وينتزع بسحره مزيداً من الحلوى، حتى من تلك المرأة الصارمة، الآنسة ليندستروم. جاكو الذي كان أبوه يقضي حكماً بالسجن فيما هربت أمه مع رجل آخر.

نعم، رأى ليو أنه عمل يستحق المجازفة بالتأكيد، أخذ هؤلاء الأطفال ومنحهم كل المميزات التي يعطيها البيت والحب والأب والأم. رأى أن من حق راينا أن تشعر بنشوة النصر، إلاّ أن النتيجة لم تكن -إلى حدٍ ما- كما كانت متوقعة... لأن هؤلاء الأطفال لم يكونوا كالأطفال الذين كان من شأنه أن ينجبهم من زوجته راينا، فلم يكن يسري في عروقهم دماء أجداد راينا المجتهدين الأقوياء، لا شيء من الدافع والطموح الذي جعل أفراد أسرتها الأقل شهرة يكتسبون مكانتهم اللائقة في المجتمع، ولا شيء فيهم من الرقة والاستقامة التي يذكر أنها كانت موجودة في والده وجده وجدته، كما لم يكونوا

يمتلكون الذكاء الحاد الذي كان جداه يتمتعان به.

لقد عمل لهم كل شيء يمكن للبيئة أن تعمله. وقد كان بمقدور البيئة أن تعمل الكثير، لكنها لا تستطيع عمل كل شيء. كانت توجد بذور الضعف التي دفعت بهم إلى دار الرعاية ابتداء، وتحت الضغط قد تحمل هذه البذور أزهاراً! لقد ظهر هذا المثال واضحاً في جاكو. جاكو الفاتن، جاكو الرشيق، صاحب الكلمات الساخرة، سحره، عادته في إقناع الجميع والسيطرة عليهم بكل سهولة؛ وهي خاصية من النوع المنحرف أساساً. ظهرت تلك في طفولته المبكرة على شكل سرقات طفولية وكذب وغير ذلك من الأمور التي كانت تُعزا إلى نشأته الأصلية السيئة. قالت راينا إنها أشياء يمكن إزالتها بسهولة، لكنها لم تُزَل أبداً.

كان سجله في المدرسة سيئاً. لقد طُرد من الجامعة، ومنذ ذلك الوقت وقعت سلسلة طويلة من الأحداث المؤلمة، حيث قام هو وزوجته راينا ببذل كل ما بوسعهما للإعراب للولد عن حبهما له وثقتهما به وحاولا إيجاد عمل ملائم له يمكن أن ينجح فيه إذا ما واظب عليه. رأى ليو أنهما ربما كانا ليّنين معه، فالذي كان يريده لا بد أن يأخذه، وإن لم يستطع الحصول عليه بأية طريقة شرعية فإنه على استعداد للحصول عليه بأية وسيلة أخرى. لم يكن ذكياً بما فيه الكفاية حتى ينجح في عالم الجريمة، أو حتى في الجرائم البسيطة! وهكذا، إلى أن جاء ذلك اليوم الأخير عندما وصل مفلساً خائفاً من السجن يطلب المال غاضباً مهدداً باعتبار المال حقاً من حقوقه، ولقد خرج وهو يصرخ بأنه سيعود وأنها من الأفضل أن تجهز له النقود... وإلاّ!

وهكذا... ماتت راينا. لقد بدا له الماضي بعيداً جداً. كل هذه

السنوات الطويلة من الحرب والأولاد والبنات ينمون ويكبرون. وماذا عنه هو؟ كان بعيداً أيضاً، لا لون له، وكأن الطاقة القوية والحماسة للحياة التي كانت تمثلها راينا قد أكلت من نفسه هو فتركته منهكاً ضعيفاً يحتاج إلى الدفء والحب. آه كم يحتاجهما!

وحتى في هذه اللحظة فإنه لا يستطيع أن يتذكر متى بدأ يدرك قرب هذه الأشياء منه. غويندا... السكرتيرة المثالية المساعدة... تعمل له دائماً، قريبة منه، لطيفة، تحب المساعدة. كان فيها شيء ذكره بما كانت عليه راينا عندما التقاها أول مرة. نفس الدفء ونفس الحماسة ونفس العطف، إلاّ أن ذلك الدفء عند غويندا وذلك العطف وتلك الحماسة كانت كلها له وليس لأطفال افتراضيين قد تنجبهم في يوم ما، له هو فقط. كان كمن يدفئ يديه فوق النار... يدين باردتين ومتصلّبتين من عدم الاستعمال. متى أدرك أول مرة أنها كانت تهتم به؟ كان صعباً عليه أن يتذكر، ولكن فجأة... ذات يوم... عرف أنه يحبها، وأنه ما دامت راينا على قيد الحياة فلن يكون بإمكانهما الزواج.

تنهد ليو وعدّل من جلسته وشرب فنجان الشاي الذي برد.

* * *

الفصل التاسع

لم تكن قد مضت بضع دقائق على مغادرة كالغاري لمنزل الدكتور ماكماستر عندما استقبل الطبيب زائراً آخر. كان هذا الزائر معروفاً جداً لديه فحياه بحرارة: آه، دونالد، إنني سعيد برؤيتك. هيا ادخل وأخبرني ما الذي يدور بذهنك. أرى وجود شيء في ذهنك؛ أعرف هذا عندما يتجعد جبينك بهذه الطريقة الغريبة.

ابتسم له الدكتور دونالد كريغ ابتسامة حزينة. كان شاباً وسيماً جاداً يأخذ نفسه وعمله بجدية. وكان الطبيب العجوز المتقاعد يحب خليفته الشاب كثيراً رغم أنه كان يتمنى أحياناً لو كان دونالد كريغ أسرع في التقاط النكتة عند إلقائها.

رفض كريغ عرضاً بأن يشرب شيئاً ودخل في الموضوع مباشرة: إنني قلق جداً يا ماك.

ردّ عليه الدكتور ماكماستر: أرجو ألاّ يكون ذلك بسبب نقص آخر في الفيتامينات.

كان الطبيب العجوز يرى أن حادثة نقص الفيتامينات كانت نكتة جيدة؛ فقد تطلب الأمر -في إحدى المرات- جرّاحاً بيطرياً

لكي يكشف للشاب كريغ أن قطة لأحد مرضاه كانت تعاني من حالة متقدمة من مرض القوباء الخلقية.

قال دونالد كريغ: ليس للأمر علاقة بالمرضى، بل يتعلق بأموري الخاصة.

تغير وجه ماكماستر على الفور: إنني آسف يا ولدي، آسف جداً. هل تلقيت أخباراً سيئة؟

هزّ الشاب رأسه نافياً وقال: ليس هذا. إنه... اسمعني يا ماك، أريد الحديث مع شخص ما بخصوصية، وأنت تعرفهم جميعاً؛ لقد كنت هنا لسنوات طويلة وتعرف عنهم كل شيء. أريد أن أعرف أين أقف وماذا أواجه.

رفع ماكماستر حاجبيه الكثين وقال: أسمعني مشكلتك.

- إنها عائلة آرغيل. كما تعرف... أظن أن الكل يعرف بأنني وهيستر آرغيل...

أومأ الطبيب العجوز برأسه وقال باستحسان: يوجد بينكما تفاهم طيب. هذه هي العبارة التي كانوا يستعملونها فيما مضى، وهي عبارة جيدة محتشمة.

- إنني أحبها كثيراً، وأظن... بل أنا متأكد من أنها تهتم بي هي الأخرى. والآن يحدث كل هذا.

ظهرت على وجه الطبيب علامات التفهم، ثم قال: آه، نعم! عفوٌ عن جاكو آرغيل، عفو عنه جاء متأخراً جداً.

- نعم، وهذا ما يجعلني أشعر (وهو شعور أعرف أن الإحساس

به مسألة خاطئة تماماً، ولكني أشعر به رغماً عني) أشعر أنه كان من الأفضل... لو أن هذا الدليل الجديد لم يظهر أبداً.

- يبدو أنك لست الوحيد الذي يشعر بهذا. وحسب علمي فإن الجميع يشعرون بذلك بدءاً بقائد الشرطة ومروراً بعائلة آرغيل كلها وانتهاءً بالرجل الذي عاد من القطب الجنوبي وقدّم الدليل.

ثم أضاف: لقد كان عندي هنا قبل قليل.

بدت المفاجأة على دونالد كريغ، وقال: حقاً؟ هل قال أي شيء؟

- ما الذي كنت تتوقع منه أن يقوله؟

- هل لديه أية فكرة عن الذي...

هز الدكتور ماكماستر رأسه ببطء وقال: لا، لا يعرف. وكيف يستطيع ذلك وهو الذي جاء من عالم مجهول ورآهم جميعاً لأول مرة؟ يبد أن أحداً لا يعرف شيئاً.

- صحيح، صحيح؛ لا أظن أحداً يعرف.

- ما الذي يزعجك كثيراً يا دون؟

أخذ دونالد كريغ نفساً عميقاً ثم قال: اتصلت بي هيستر ذلك المساء عندما كان ذلك الرجل (كالغاري) موجوداً هناك، وكنت سأذهب معها إلى درايموث بعد انتهاء عملي لنسمع محاضرة حول النماذج الإجرامية في أعمال شكسبير.

- تبدو محاضرة مناسبة تماماً.

- ثم اتصلت بي وقالت إنها لن تأتي، وقالت إن هناك خبراً مزعجاً بشكل فريد.

- آه، خبر الدكتور كالغاري.

- نعم، نعم، على الرغم من أنها لم تذكر اسمه في المكالمة. لكنها كانت منزعجة جداً. كانت تبدو... لا أستطيع أن أصف كيف كانت تبدو.

- إنها الدماء الأيرلندية.

- بدت مصعوقة، مرعوبة تماماً. آه، لا أستطيع وصف حالتها.

سأل الطبيب: حسناً، وماذا تتوقع؟ إنها لم تبلغ العشرين بعد، أليس كذلك؟

- ولكن لماذا تكون منزعجة إلى هذا الحد؟ أظن يا ماك بأنها خائفة جداً من شيء ما.

- أو... نعم، حسناً، ربما تكون كذلك.

- هل ترى... ماذا ترى الأمر؟

- إن ما تفكر به أنت أهم من رأيي أنا.

قال الشاب بمرارة: أظن أنني لو لم أكن طبيباً لما بدأت أفكر بمثل هذه الأمور. إنها ستكون رفيقة حياتي ولا يمكن لرفيقة حياتي أن ترتكب أي خطأ، ولكن بما أن...

- نعم، هيا... من الأفضل أن تنفس عمّا يجول في صدرك.

- إنني أعرف شيئاً ممّا يدور في ذهن هيستر. إنها... إنها ضحية لما مرت به في طفولتها من عدم الشعور بالأمان.

- صحيح، هذا ما نطلقه على مثل هذه الحالة في أيامنا هذه.

- لم يكن قد توفر لها من الوقت ما يجعلها تندمج اندماجاً كاملاً في حياتها الجديدة. كانت تعاني وقت وقوع الجريمة من الإحساس الطبيعي جداً لفتاة مراهقة... الإحساس بكراهية السلطة ومحاولة الهروب من حب الأم المسؤول عن الكثير من الضرر هذه الأيام. لقد أرادت التمرد والهروب، هي نفسها التي أخبرتني بكل هذا، بل لقد هربت وانضمت إلى فرقة مسرحية متجولة من الدرجة الرابعة. وأظن أن أمها قد تصرفت تصرفاً معقولاً جداً في تلك الظروف، فقد اقترحت أن تذهب هيستر إلى لندن لتدرس التمثيل بطريقة صحيحة في الأكاديمية الملكية للفنون المسرحية إن أرادت ذلك، لكن هيستر لم تكن تريد ذلك. كان هذا الهروب إلى التمثيل مجرد إشارة رمزية فقط، فهي لم تُرِد في الحقيقة التدرب على التمثيل أو احترافه. كانت تريد فقط أن تثبت قدرتها على الاستقلال بنفسها. وعلى أية حال لم يحاول أحد في العائلة إكراهها بل أعطوها راتباً كبيراً.

- وهو عمل ذكي منهم.

- ثم مرت بعلاقة الحب السخيفة تلك مع أحد أعضاء فرقتها المسرحية وكان رجلاً كهلاً، وفي نهاية الأمر أدركت بنفسها أ... لا يفيدها. جاءت السيدة آرغيل مباشرة وتعاملت معه وعادت هيستر إلى البيت.

قال ماكماستر: عادت بعد أن لُقّنت الدرس جيداً. ولكن المرء لا

يحب طبعاً تَعلُّم الدروس أبداً، وهيستر كانت كذلك.

أكمل دونالد كريغ بحماسة: كانت ما تزال ممتلئة بالحنق المكبوت، وقد زاد من سوء الأمر أنها اضطرت للاعتراف (سراً إن لم يكن جهراً) بأن أمها كانت محقة تماماً عندما قالت إنها لم تكن تصلح للتمثيل وإن الرجل الذي بذلت له عواطفها لم يكن يستحقها. «الأم تعرف الأفضل»، إنها عبارة تغيظ الجيل الشاب دائماً.

- نعم؛ كانت هذه واحدة من مشكلات السيدة آرغيل المسكينة رغم أنها لم تكن تفكر بها بتلك الطريقة. والحقيقة أنها كانت محقة دوماً تقريباً وأنها كانت حقاً تعرف الأفضل، ولو أنها كانت واحدة من أولئك النساء اللاتي يتورطن بالديون ويفقدن مفاتيحهن ويتأخرن عن القطارات ويقمن بتصرفات حمقاء (يضطر معها الآخرون إلى مساعدتهن في الخروج منها) لكانت العائلة كلها تحبها أكثر. أم حزينة وقاسية لكنها تعطي الحياة لأولادها. ولم تكن أمّاً ذكية بما فيه الكفاية لكي تفرض أسلوبها الخاص بالخداع والرياء، كانت مقتنعة بنفسها، راضية عن نفوذها ورأيها، واثقة تماماً من نفسها، وهذا أمر من الصعب جداً على الشباب مواجهته.

- آه، أعرف. إنني أدرك هذا كله، ولأنني أدرك هذا جيداً أشعر بأنني... لا أدري...

ثم سكت فقال ماكماستر بلطف: من الأفضل أن أتولى عنك قول ما تريد يا دونالد، أليس كذلك؟ أنت خائف من أن تكون هيستر هي التي سمعت الشجار بين أمها وبين جاكو فثارت مشاعرها وهي تسمع ذلك، وفي نوبة من التمرد على السلطة وضد أسلوب أمها في

فرض رأيها ذهبت إلى تلك الغرفة وأخذت القضيب ثم قتلتها. هذا ما تخشاه أنت، أليس كذلك؟

أومأ الشاب برأسه موافقاً وقد بدا عليه البؤس وقال: ليس ذلك في الحقيقة. إنني لا أصدق هذا، لكني أشعر... أشعر أنه ربما حدث. لا أظن أن هيستر تملك رباطة الجأش أو الاتزان لكي... إنني أشعر أنها أصغر من عمرها الحقيقي وأنها غير واثقة من نفسها وأنها يمكن أن تتعرض لنوبات اضطراب ذهني. إنني أستعرض أهل البيت فلا أشعر أن أحدهم قد يفعل مثل هذا الشيء إلى أن أصل إلى هيستر. وعندها... عندها لا أستطيع الجزم.

- فهمت. نعم، لقد فهمت.

سارع كريغ للقول: أنا لا ألومها حقاً. لا أظن أن الطفلة المسكينة كانت تعرف ما كانت تفعله، ولا أستطيع أن أسميها جريمة قتل، فلعلها كانت مجرد تصرف يعبر عن التحدي العاطفي، عن التمرد والتوق إلى الحرية، عن قناعة بأنها لن تتحرر أبداً حتى... حتى تغيب أمها إلى الأبد.

- وهذه القناعة الأخيرة قد تكون صحيحة تماماً. إنه الدافع الوحيد الذي قد يكون موجوداً، وهو دافع غريب في الواقع، وإن لم يكن بالدافع الذي يراه القانون قوياً: الرغبة في الحرية، التحرر من تأثير شخصية أقوى. ولكن حتى السيطرة المالية أظن أنها سيطرة قوية من جانب السيدة آرغيل وذلك من خلال تأثيرها على الأوصياء. آه، نعم؛ إن وفاتها جعلتهم أحراراً بلا شك. ليس هيستر فقط يا بني؛ فوفاتها أطلقت لزوجها أيضاً حرية الزواج بامرأة غيرها. وحررت ماري لكي تعتني بزوجها بالطريقة التي تريدها، وحررت ميكي لكي

يعيش حياته الخاصة بالطريقة التي يراها صحيحة. وحتى تينا الصغيرة الجالسة في مكتبتها ربما كانت تريد الحرية.

قال دونالد: اضطررت للمجيء والتحدث إليك. كان عليّ أن أعرف رأيك، أن أعرف ما إذا كنت ترى أن... أن ذلك قد يكون صحيحاً.

- بخصوص هيستر؟

- نعم.

- أعتقد أنه قد يكون صحيحاً، ولكني لا أعرف ذلك على وجه الجزم والتأكيد.

- هل ترى أنه ربما حدث بالطريقة التي سردتُها؟

- نعم، أعتقد أن ما تخيلته غير مستبعد وفيه عنصر من الاحتمال، لكنه غير مؤكد أبداً يا دونالد.

تنهد الشاب وهو يرتعش وقال: ولكن ينبغي التأكد يا ماك. هذا هو الشيء الوحيد الذي أشعر بضرورته. لا بد أن أعرف، ولو أن هيستر تخبرني بنفسها فإن... الأمر سيكون عادياً. سوف نتزوج في أسرع وقت ممكن وسأعتني بها.

قال ماكماستر بجفاف: من حسن حظك أن الضابط هوش لا يسمعك.

- أنا مواطن ملتزم بالقانون بشكل عام، لكنك تعرف جيداً يا ماك كيف يتعاملون مع الأدلة السيكولوجية في المحاكم. لقد كان

الأمر -في رأيي- حادثاً سيئاً، وليست قضية قتل بدم بارد أو حتى بدم حار.

- أنت تحب الفتاة.

- أرجو أن تتذكر أنني أتكلم معك من باب الثقة.

- أفهم هذا.

- كل ما أقوله هو لو أن هيستر تقول لي وأعرف فإننا سنعيش بشكل يمحو هذه الحادثة، ولكن يجب عليها أن تخبرني. لا أستطيع الحياة معها دون أن أعرف الحقيقة.

- تقصد أنك غير مستعد للزواج بها مع وجود هذا الاحتمال مسيطراً على تفكيرك؟

- هل كنت ستفعل هذا لو كنت في مكاني؟

- لا أدري. أعتقد أنه لو حدث لي ذلك وكنت أحب الفتاة فإنني قد أقتنع بأنها بريئة.

- المهم ليس مسألة كونها بريئة أم مذنبة. المهم هو أن عليّ أن أعرف.

- وإذا كانت قد قتلت أمها فعلاً، فهل أنت مستعد تماماً للزواج بها والعيش معها بعد ذلك بسعادة؟

- نعم.

- لا تحاول إقناعي بهذا! لو فعلت ذلك لقضيت الوقت متسائلاً إن كان طعم المرارة في فنجان القهوة هو مجرد قهوة أو غير ذلك...

أو مفكراً بأن قضيب الموقد لديك أكبر قليلاً من الطبيعي! وسوف تحس هي بتفكيرك هذا. لن يصلح الأمر.

* * *

الفصل العاشر

- أنا واثق من أنك ستقدر الأسباب التي دعتني لدعوتك إلى هنا وعقد هذا الاجتماع يا سيد مارشال.

قال السيد مارشال: نعم، بالتأكيد. ولو لم تقترح هذا الاقتراح يا سيد آرغيل لكنت أنا الذي سيقترح المجيء إلى هنا. لقد ظهر الإعلان في كل صحف الصباح هذا اليوم وما من شك في أنه سيثير اهتمام الصحافة بالقضية من جديد.

قالت ماري: لقد اتصل بعضهم فعلاً وطلبوا إجراء مقابلات.

- أظن أن مثل هذا الأمر كان متوقعاً، وأنا أنصح بأن يكون موقفكم هو رفض التعليق. قولوا إن من الطبيعي أن تكونوا سعداء ومسرورين ولكنكم تفضلون عدم مناقشة المسألة.

قال ليو: لقد طلب الضابط هوش الذين كان يتولى القضية في ذلك الوقت المجيء لمقابلتنا صباح الغد.

- نعم، نعم. أخشى أنهم سيعيدون فتح القضية من جديد، رغم أنني لا أرى للشرطة أملاً في التوصل إلى أية نتيجة ملموسة. لقد مرت سنتان ولذلك فإن أي شيء كان الناس (أقصد أهل القرية)

يتذكرونه في ذلك الوقت فإنهم الآن قد نسوه. وهو أمر مؤسف في أحد معانيه، ولكنه خارج عن إرادة المرء.

قالت ماري: كل شيء يبدو واضحاً تماماً. كان المنزل مقفلاً تماماً بالمفاتيح خوفاً من اللصوص، ولكن إن جاء أي شخص يطلب مساعدة أمي في مسألة خاصة أو تظاهر بأنه صديق لها فلا أشك في أنها كانت ستسمح له بالدخول. وأظن إن هذا -بلا شك- هو ما حدث. أبي يظن بأنه سمع أحداً يقرع الجرس بعد الساعة السابعة بقليل.

التفت مارشال صوب ليو متسائلاً عن صحة ذلك، فقال ليو: نعم، أظن أنني قلت هذا في حينه. أنا الآن لا أتذكر ما حدث بالضبط بطبيعة الحال، لكن كان لديّ في ذلك الوقت انطباع بأنني سمعت صوت الجرس. وكنت أريد النزول، ولكن أظنني سمعت الباب يفتح ثم يغلق. لم أسمع أصواتاً أو ما يوحي بأن أحداً يحاول الدخول بالقوة أو يحاول الإساءة، ولو حدث ذلك لسمعته دون شك.

قال السيد مارشال: صحيح، صحيح. نعم، أظن أنه ما من شك بأن هذا ما حدث. نعرف جيداً أن هناك عدداً كبيراً -للأسف- من الأشخاص المنحرفين الذين قد يدخلون البيت تحت ذريعة الحاجة والفقر، والذين يكونون على استعداد إذا ما دخلوا البيت لقتل صاحبة المنزل والهروب بما يمكنهم الحصول عليه من نقود. نعم، أعتقد أننا يجب أن نفترض الآن أن هذا هو ما حدث فعلاً.

كان يتكلم بلهجة مقنعة جداً، وكان أثناء حديثه ينظر إلى القلة المجتمعة حوله وهو يعاينهم بدقة ويصنفهم في عقله الدقيق الذي لا يهمل شيئاً. ماري ديورانت: جميلة المظهر، تفتقر إلى الخيال،

هادئة، وواضح أنها واثقة من نفسها تماماً. ووراءها يجلس زوجها، فيليب ديورانت، على كرسي العجلات. وفكر مارشال في قرارة نفسه بأن هذا الزوج رجل ذكي، رجل كان من شأنه أن ينجز الكثير وينجح نجاحاً عظيماً لولا آراؤه التي لا يُعتمَد عليها في كل شؤون الأعمال التجارية. ورأى مارشال أنه لم يكن يأخذ هذا الأمر كله بمثل ما تأخذه به زوجته من هدوء؛ فعيناه كانتا متيقظتين تتأملان، وبدا أنه يفهم تماماً مضامين الأمر وأبعاده كلها. ومع ذلك قد لا تكون ماري حقاً على تلك الدرجة من الهدوء الذي يبدو عليها؛ لقد كانت قادرة دوماً على إخفاء مشاعرها سواء الآن وهي امرأة أو عندما كانت فتاة صغيرة.

وبينما تململ فيليب ديورانت في مقعده قليلاً وعيناه اللامعتان الذكيتان ترقبان المحامي بشيء من السخرية التفتت ماري بحدة، وقد أذهل المحامي ذلك الوله التام الذي بدا في نظرتها لزوجها. كان يعرف -بالطبع- أن ماري كانت زوجة وفية مُحِبّة، لكنه اعتبرها منذ وقت طويل امرأة هادئة تكاد تخلو من العاطفة، لا تحب ولا تكره حباً أو كرهاً حاداً، ولذلك فقد دُهش لهذا الاكتشاف المفاجئ. إذن هكذا تشعر نحوه! أما بالنسبة لفيليب فقد بدا غير مرتاح، ورأى مارشال أنه يحس بخشية من المستقبل. ومن الأفضل له أن يحس بذلك!

وقبالة المحامي جلس ميكي. شاب وسيم تبدو عليه المرارة. لماذا كل هذه المرارة؟ ألم يحصل دوماً على كل شيء يطلبه؟ لماذا اضطر للظهور بمظهر امرئ يقف بشكل دائم في مواجهة العالم؟ وجلست بجانبه تينا أشبهَ بقطة صغيرة سوداء جميلة، ذات بشرة شديدة السمرة وصوت ناعم وعينين سوداوين كبيرتين مع شيء من البهاء الملتوي في حركاتها. كانت هادئة، ولكن ألم تكن عاطفية

تحت ستار هذا الهدوء؟ لم يكن مارشال يعلم عن تينا إلاّ القليل. لقد قبلت العمل الذي اقترحته عليها السيدة آرغيل كأمينة لمكتبة المقاطعة، وكانت تملك شقة في ريدمن وتأتي إلى المنزل في عطلات نهاية الأسبوع. تبدو ابنة طيعة قنوعة لهذه العائلة، ولكن من يدري؟ ولكنها كانت -على أية حال- خارج دائرة الاشتباه (أو هذا ما يجب أن يكون). لم تكن موجودة هنا في تلك الليلة، ولكن ريدمن لا تبعد عن هذا المكان سوى خمسة وعشرين ميلاً فقط. ومع ذلك يفترض أن تكون تينا وميكي خارج دائرة الشك.

نظر مارشال نظرة سريعة إلى كريستي ليندستروم التي كانت ترقبه بشكل فيه مسحة من عدائية. وفكر قائلاً: افترض أنها هي التي ثارت وهاجمت مستخدمتها؟ إن ذلك لن يفاجئه في الواقع. والحقيقة أن شيئاً لا يمكن أن يفاجئك بعد أن عملت في حقل القانون والمحاماة كل هذه السنين. سوف يخترعون كلمة في اللغة الحديثة لوصفها: العانس المكبوتة. غيورة، حسودة، تشعر بالحيف في عملها سواء أكان الحيف حقيقة أم مجرد وهم. آه، نعم؛ لقد توصلوا إلى كلمة تصف مثل هذه الحالة، وكم هو مناسب ومعقول أن تكون هي. نعم، مناسبة جداً. أجنبية، وليست واحدة من العائلة. ولكن هل يمكن أن تكون كريستي ليندستروم قد دبرت المكيدة لجاكو عامدة ثم سمعت الشجار فاغتنمتها فرصة؟ إن ذلك أمر يشكّل تصديقه معضلة أصعب بكثير لأن كريستي ليندستروم كانت تحب جاكو كثيراً. لقد كانت تحب الأطفال جميعهم. لا، لا يمكن أن يصدق بأنها يمكن أن تفعل هذا. أمر مؤسف لأن... ولكن يجب ألاّ يدع أفكاره تسير في ذلك الاتجاه.

عبر بنظراته إلى ليو آرغيل وغويندا فوغان. لم يتم إعلان

خطوبتهما بعد، وهذا أمر جيد؛ قرار حكيم. والواقع أنه كتب إلى آرغيل ولمّحَ له بعض التلميحات بهذا الشأن. وربما كان ذلك سراً مكشوفاً لدى أهل القرية، ولا شك أن الشرطة تعرف هذا. ومن وجهة نظر الشرطة فإن تلك العلاقة تشكل الحل المناسب لهذه الجريمة. وهناك سوابق لا حصر لها: الزوج والزوجة وامرأة أخرى! إلاّ أن مارشال لم يستطع أن يصدق -إلى حد ما- أن ليو آرغيل هو الذي قتل زوجته. نعم، لا يستطيع تصديق ذلك؛ فقد كان يعرف ليو آرغيل منذ عدة سنوات وكان يحترمه كثيراً ويقدره. رجل ذو عواطف سامية واطلاع واسع وعميق ونظرة فلسفية محايدة إلى الحياة. إنه ليس من النوع الذي يقتل زوجته بقضيب. صحيح أن الرجل عندما يقع في الحب في سن متأخرة... ولكن لا! إن ذلك كلام صحف. كلام ربما كان مثيراً أن يقرأه الناس أيام العطلة في جميع أنحاء بريطانيا، ولكن لا يمكن للمرء أن يتخيل أن ليو...

وماذا عن المرأة؟ لم يكن يعرف عن غويندا فوغان الكثير. لاحظ الشفتين المزمومتين والجسم المكتنز. كانت تحب ليو آرغيل دون شك. آه، نعم، ربما كانت تحبه منذ وقت طويل. تساءل في نفسه عن الطلاق: ماذا كانت السيدة آرغيل ستفعل لو طُلب منها الطلاق؟ الواقع أنه لم يكن يعرف جواباً لكنه لم يرَ أن الفكرة كانت ستروق لليو آرغيل الذي كان من الطراز القديم، مما يرجح احتمالاً مفاده أن غويندا فوغان لو رأت فرصة للتخلص من السيدة آرغيل مع تأكدها من أن الشبهات لن تحوم حولها... سكت قبل أن يواصل أفكاره. هل كانت ستضحي بجاكو دون وخز من ضمير؟ إنه لا يحس أنها كانت تحب جاكو. إن سحر جاكو لم يكن يعجبها، والنساء -كما يعرف السيد مارشال جيداً- يتصرفن دون شفقة، ولذلك لا يمكن للمرء أن

يستبعد غويندا فوغان. من المشكوك فيه كثيراً أن يستطيع الشرطة بعد كل هذا الوقت التوصل إلى أي دليل. لم يرَ ما هو الدليل الذي يمكن أن يكتشف ضدها. كانت موجودة في البيت ذلك اليوم، وكانت مع ليو في مكتبه، وكانت قد ودّعته وتركته ونزلت إلى الطابق السفلي. لم يكن هناك أحد يستطيع الجزم إذا كانت قد دخلت غرفة جلوس السيدة آرغيل وأمسكت بقضيب النار ومشت وراء المرأة المطمئنة المنكبة على الأوراق فوق مكتبها... ثم بعد ذلك، بعد أن تضرب السيدة آرغيل وتقتلها دون صرخة واحدة، كان كل ما على غويندا عمله هو أن تلقي القضيب وتخرج من الباب الرئيسي وتعود إلى بيتها كما تفعل دائماً. لم يكن يرى وجود أي احتمال في أن يتمكن الشرطة (أو غيرهم) من التأكد إن كان هذا هو ما فعلته أم لا.

انتقل ببصره إلى هيستر: طفلة جذابة. لا، لا، ليست جذابة، بل جميلة. جميلة بطريقة غريبة وغير مريحة. تمنى لو أنه يعرف من هما والداها. إن بها شيئاً من الجموح والتمرد. نعم، بل يكاد المرء يستخدم كلمة «يائسة» عند الحديث عنها. ترى ما الذي جعلها يائسة؟ لقد هربت من المنزل بطريقة سخيفة لتعمل في المسرح وكانت لها علاقة غرامية سخيفة مع رجل تافه، ثم أدركت خطأها فعادت إلى بيتها مع السيدة آرغيل واستقرت فيه ثانية. ومع ذلك لا يمكنك استبعاد هيستر لأنك لا تعرف كيف يعمل عقلها، لا تعرف ما يمكن أن تفعله بها لحظة غريبة من اليأس. لكن الشرطة أيضاً لن يعرفوا أبداً!

والواقع -كما فكر السيد مارشال- فإنه يبدو من غير المحتمل أن يتمكن الشرطة من فعل أي شيء حيال الأمر حتى لو قرروا في أذهانهم من هو الفاعل، ولذلك فإن الموقف مُرْضٍ عموماً. مُرْضٍ؟ جفل قليلاً وهو يفكر بالكلمة. ولكن هل كان الموقف مرضياً حقاً؟

هل كان وضع الجمود نتيجة مرضية حقاً؟ هل كانت عائلة آرغيل نفسها تعرف الحقيقة؟ هذا ما تساءل عنه. لكنه قرر عكس ذلك: إنهم لا يعرفون (باستثناء شخص واحد بينهم بالطبع يُفترض أن يكون الوحيد الذي يعرف جيداً)... نعم، إنهم لا يعرفون. ولكن هل اشتبهوا؟ إذا لم يشتبهوا الآن فسوف يبدؤون بالاشتباه قريباً، لأنك إن لم تكن تعرف فستظل تتساءل محاولاً أن تتذكر أشياء. إنه وضع غير مريح. نعم، نعم موقف غير مريح أبداً.

كل هذه الأفكار لم تستغرق منه وقتاً طويلاً، وعاد السيد مارشال من رحلة أفكاره ليرى عيني ميكي تركزان النظر عليه وفيهما لمعة سخرية. قال ميكي: إذن فهذا هو حكمك يا سيد مارشال؟ الغريب، الدخيل غير المعروف، الشرير الذي يقتل ويسرق وينجو من العقاب؟

قال السيد مارشال: يبدو أن هذا ما علينا أن نتقبله.

قذف ميكي بجسمه إلى الوراء وضحك: هذه هي روايتنا وسوف نصر عليها، أليس كذلك؟

- بلى يا مايكل، هذا ما أنصحكم به.

عاد في نبرة صوته تحذير واضح.

أومأ ميكي برأسه وقال: فهمت. هذا ما تنصحنا به. نعم، نعم، أظن أنك على حق. ولكنك لا تصدق هذه الرواية، أليس كذلك؟

نظر السيد مارشال إليه نظرة لامبالاة. هذه هي مشكلة الناس الذين لا يملكون إحساساً قانونياً بأهمية التكتم. إنهم يصرون على قول

أشياء من الأفضل كثيراً ألاّ تقال. قال: بغضِّ النظر عن أي اجتهاد، هذه هو رأيي.

كانت نبرة صوته الحاسمة تحمل الكثير من التأنيب. ونظر ميكي حوله على الطاولة ثم سأل سؤالاً عاماً: ما هو رأينا جميعاً؟ إيه، تينا، أختي الحبيبة التي تنظر إلى الأرض بطريقة هادئة، أليس كذلك؟ أية أفكار؟ أية روايات غير مُرخَّص بها (إذا صح التعبير)؟ وأنت يا ماري؟ إنك لم تقولي الكثير.

قالت ماري بحدة: أتفق مع السيد مارشال بالطبع. وهل هناك أي حلٍّ آخر؟

قال ميكي: فيليب لا يتفق معك في الرأي.

التفتت ماري بحدة إلى زوجها، فقال فيليب ديورانت بهدوء: من الأفضل أن تمسك لسانك يا ميكي. ما من فائدة ترجى من كثرة الحديث عندما يكون المرء في ورطة، ونحن الآن في ورطة.

قال ميكي: إذن لا يوجد أحد له أي رأي؟ حسناً. ليكن ما يكون، ولكن لنفكر جميعاً بهذا الأمر عندما نذهب للنوم هذه الليلة. ربما كان ذلك مفيداً، فالمرء يريد -في نهاية الأمر- أن يعرف أين يقف. ألا تعرفين معلومة أو معلومتين يا كريستي؟ أنت تعرفين عادة. حسبما أتذكر كنت تعرفين دوماً ما كان يجري، رغم أنك لا تقولين شيئاً من ذلك أبداً.

قالت كريستي ليندستروم بشيء من الكبرياء: أعتقد أن عليك أن تسكت يا ميكي. السيد مارشال على حق؛ إن الكلام الكثير دليل طيش.

قال ميكي: يمكننا إخضاع المسألة للتصويت... أو نكتب على قطعة من ورق ونلقيها في إحدى القبعات. سيكون ذلك مثيراً لنعرف من يحصل على أعلى الأصوات.

قالت كريستي ليندستروم بصوت أعلى هذه المرة: اسكت. لا تكن ولداً سخيفاً متهوراً كما كنت سابقاً، لقد كبرت الآن.

ردّ عليها ميكي وقد فوجئ: أنا لم أقل شيئاً سوى أن علينا أن نفكر في الأمر.

قالت كريستي ليندستروم: سوف نفكر فيه.

كانت المرارة بادية في صوتها.

* * *

الفصل الحادي عشر

خيم الليل على «صني بوينت».

انسحب سبعة أشخاص اشتملت عليهم جدران المنزل إلى أسِرّتهم، لكن أحداً منهم لم ينم جيداً.

فيليب ديورانت وجد عزاء في نشاطه الذهني منذ مرضه وعجزه الجسدي. لقد أصبح الآن -وهو الرجل الذي كان دوماً حادّ الذكاء- مدركاً للمصادر التي انفتحت أمامه من خلال الذكاء والتفكير. كان يسلّي نفسه أحياناً عن طريق التنبؤ بردود فعل من حوله إزاء حافز مناسب معين. إن ما يقوله ويفعله لم يكن في الغالب استجابة طبيعية عضوية بل رداً محسوباً لا قصد منه إلاّ ملاحظة ردّ فعل الآخرين نحوه، وكانت تلك أشبه بلعبة يلعبها، وعندما كان يحصل على ردّ الفعل الذي تنبأ به فإنه يسجل لنفسه نقطة. ونتيجة لهذه التسلية وجد نفسه (ربما لأول مرة في حياته) مراقِباً دقيقاً للاختلافات والحقائق في الشخصية البشرية.

لم تكن الشخصيات البشرية بهذا المعنى تثير اهتمامه فيما مضى كثيراً. لقد أحب أو كره، وشعر بالتسلية أو بالضجر ممن حوله أو ممن كان يتلقاهم. كان دائماً صاحب فعل وتصرف لا صاحب تفكير. لقد

جرّب خياله الواسع في وضع خطط منوعة لجمع الثروة، وكل هذه الخطط كانت ذات أساس سليم، لكن الانعدام التام في القدرة على العمل كان يفضي بتلك الخطط دائماً إلى الفشل. فحتى الآن كان يرى الناس مجرد أحجار في اللعبة. والآن، وحيث أن مرضه قد حرمه من حياته النشطة السابقة، فقد أُكره على التفكير بالناس بما هم عليه وبشخصياتهم.

لقد بدأ ذلك في المستشفى عندما اضطر لتركيز اهتمامه على الحياة الشخصية للممرضات والحرب السرية بينهن، وعلى المنغصات التافهة لحياة المستشفى، ذلك أنه لم يكن هناك شيء آخر ليشغل فيه ذهنه. أما الآن فقد أصبحت هذه عادة ملازمة له. الناس هم كل ما تركته الحياة له الآن، الناس فقط. دراسة الناس، اكتشاف أشياء عنهم، تكوين وجهات نظر عنهم. يقرر في نفسه ما هي دوافعهم ثم يكتشف إن كان على صواب. وقد وجد أن ذلك يمكن أن يكون حقاً أمراً مثيراً!

إلاّ أنه في هذه الأمسية فقط، وهو جالس في المكتبة، أدرك قلّة ما كان يعرفه حقاً عن عائلة زوجته. ما هي حقيقتهم؟ ما هي نفسياتهم وليس مظهرهم الذي كان يعرفه جيداً. غريب كيف أنك لا تعلم عن الناس إلاّ القليل، ولكن هل يشمل ذلك زوجتك نفسها؟

كان قد نظر متأملاً إلى زوجته ماري. إلى أي مدى تراه يعرف زوجته؟

لقد وقع في حبها لأنه أعجب بمظهرها وهدوئها وجديتها في الحياة. كما أنها أيضاً كانت تملك أموالاً، وذلك كان يهمه أيضاً، فمن شأنه أن يفكر أكثر من مرة قبل الزواج بفتاة مفلسة. كان كل شيء

مناسباً جداً، وقد تزوجها، وأغاظها وهو يناديها «بولي». وقد استمتع بنظرة الارتياب التي كانت تنظر بها إليه عندما كان يمازحها مزاحاً لم تكن تفهمه. ولكن ما الذي كان يعرفه عنها حقيقة؟ بماذا كانت تفكر وما الذي تشعر به؟

كان يعلم أنها تحبه حباً عميقاً قوياً بالتأكيد. وعندما خطرت له فكرة حبها وإخلاصها تململ قليلاً بقلق وهو يلوي كتفيه كمن يريد أن يزيح عنهما عبئاً ثقيلاً. إن الأخلاق والحب أمر رائع تماماً عندما تستطيع التخلص منه تسع ساعات أو عشراً كل يوم، فهو أمر جميل أن يعود المرء إلى بيته ليجده بانتظاره. لكنه الآن محاط به من كل جانب؛ مُراقَب ومُعتَنىً به ومدلل، وهو أمر يجعل المرء يشتاق إلى شيء من الإهمال التام. والواقع أنه يجعل المرء يبحث عن وسائل للهروب، وسائل عقلية... حيث لا توجد أية وسائل أخرى ممكنة. يجب على المرء أن يهرب إلى عالم الخيال والتأمل.

التأمل، التأمل والتفكير في هوية المسؤول عن مقتل حماته على سبيل المثال. كان يكره حماته وكانت تكرهه. لم تكن موافقة على زواج ماري به (أتراها كانت ستقبل بزواج ماري بأي شخص آخر؟).

هذا ما تساءل عنه. لكنها لم تستطع منع الزواج؛ لقد بدأ هو وماري حياتهما سعيدين مستقلين، ثم بدأت الأمور تسير بشكل غير طبيعي. في البداية تلك الشركة الأمريكية الجنوبية، ثم شركة لوازم وقطع غيار الدراجات، وكانت الفكرتان جيدتين، ولكنه فشل في تأمين التمويل اللازم، ثم حدث إضراب عمال السكك الحديدية في الأرجنتين فأكمل سلسلة المصائب. كل ذلك كان حظاً عاثراً، ولكنه شعر بطريقة ما أن السيدة آرغيل كانت مسؤولة نوعاً ما عمّا جرى،

فهي لم تكن تتمنى له النجاح. ثم جاء مرضه، وقد بدا وكأن الحل الوحيد لهما هو المجيء والعيش في «صني بوينت» حيث كانا يلقيان كل ترحيب. وما كان سيعارض على وجه الخصوص؛ فرجل عاجز أو نصف رجل ماذا يهمه أين يعيش؟ لكن ماري كانت ستمانع.

آه، لم يكن من اللازم أن يقيما في «صني بوينت» إقامة دائمة، فقد قُتلت السيدة آرغيل ورفع الأوصياء قيمة المعاش المخصص لماري بموجب صندوق الائتمان فأصبحا مستقلين تماماً مرة أخرى.

لم يكن قد شعر بأي حزن خاص على وفاة السيدة آرغيل. كان سيسعد أكثر بالطبع لو أنها ماتت بالتهاب الرئة أو مرض مثله على سريرها، فالقتل عمل بغيض مع كل ما يثيره من تشهير وأخبار صحفية صارخة. ومع ذلك فإن الجريمة التي تمّت -بعيداً عن بشاعتها- كانت جريمة مرضية تماماً... إذ أن لدى الفاعل نوعاً من الجنون الخفيف مما يمكن أن يساعد في تبرير فعله بكثير من المفردات السيكولوجية. إنه ليس أخاً حقيقياً لماري، بل هو واحد من هؤلاء الأطفال الذين تبنتهم السيدة آرغيل كان ذا منبت سيئ غالباً ما ينتهي بالانحراف. لكن الأمور الآن لم تعد جيدة، ففي الغد سيأتي الضابط هوش لاستجوابهم بصوته الهادئ، وربما كان على المرء أن يفكر في الإجابات.

كانت ماري تمشط شعرها الأشقر الطويل أمام المرآة. وأثاره شيء في انعزالها الهادئ فسألها: "هل جهزت أجوبة على أسئلة الغد يا بولي؟"، ثم أضاف يقول: الضابط هوش قادم، وسيسألك مرة أخرى عن تحركاتك بالضبط مساء يوم التاسع من نوفمبر.

- آه، فهمت. لقد مضى وقت طويل على ذلك الآن. لا يكاد المرء يتذكر.

- لكن هوش يستطيع أن يتذكر يا بولي، هذا هو المهم، يستطيع. التفاصيل كلها مكتوبة في مكان ما من سجلات الشرطة.

- حقاً؟ هل يحتفظون بهذه الأشياء؟

- ربما يحتفظون بكل شيء على ثلاث نسخ لعشر سنوات! إن تحركاتك بسيطة جداً يا بولي، لم تكن كثيرة. كنتِ هنا معي في هذه الغرفة، ولو كنت مكانك لما ذكرت بأنك تركتها بين الساعة السابعة والسابعة والنصف.

- لكني ذهبت إلى الحمام فقط، الجميع يذهب إلى الحمام.

- أنت لم تذكري له هذه الحقيقة في ذلك الوقت... أنا أذكر هذا.

- أظن أنني نسيت ذلك.

- ولكنني حسبت أنها غريزة البقاء. على أية حال أذكر أنني أيدت أقوالك. كنّا معاً هنا نتسلى بلعب الورق...من الساعة السادسة والنصف إلى أن سمعنا صرخة كريستي. تلك هي أقوالنا وسوف نصرّ عليها.

- حسناً يا حبيبي.

كانت موافقتها هادئة تدل على لامبالاة. وفكر في نفسه: "أليس لديها خيال؟ ألا تستطيع أن تتنبأ أننا سنواجه أوقاتاً عصيبة؟".

مال إلى الأمام وقال: إنه أمر مثير للاهتمام... ألست مهتمة بمعرفة قاتلها؟ كلنا نعرف أنه كان واحداً منا، وقد كان ميكي محقاً في ذلك. ألست مهتمة في معرفة من يكون؟

- لم يكن أنت ولا أنا.

- وهل هذا كل ما يهمك؟ بولي، إنك عجيبة!

احمرّ وجهها وقالت: لا أفهم ما هو الغريب في هذا.

- نعم، أرى أنك لا تفهمين... أمّا أنا فمختلف. إنني فضولي.

- لا أظن أننا سنعرف أبداً، ولا أظن أن الشرطة سيعرفون.

- ربما لا يعرفون؛ فلديهم أدلة قليلة جداً يسيرون عليها. لكننا في موقف مختلف عن الشرطة.

- ماذا تقصد يا فيليب؟

- لدينا بعض المعلومات الداخلية. إننا نعرف عائلاتنا الصغيرة من الداخل... ونعرف جيداً ما هي دوافعهم. لا بد أن تعرفي أنت ذلك على الأقل. لقد كبرت ونشأت معهم جميعاً. لنسمع رأيك: من تعتقدين أنه الفاعل؟

- لا أعرف يا فيليب.

- إذن خمني فقط.

ردّت عليه ماري بحدة: من الأفضل ألاّ أعرف من الذي فعلها، بل من الأفضل ألاّ أفكر في الأمر.

- تدفنين رأسك كالنعامة.

- بصراحة... لا أفهم مغزى التخمين. من الأفضل كثيراً ألاّ نعرف؛ فعندها نستطيع جميعاً الاستمرار بحياتنا كالمعتاد.

- آه، لا، لا نستطيع. في هذا أنت مخطئة يا فتاتي؛ فالفساد مُستَشرٍ أساساً.

- ماذا تقصد؟

- خذي هيستر وصديقها... الشاب الجاد الدكتور دونالد. شاب لطيف جاد وقلق. إنه لا يرى حقاً أنها هي التي قتلتها... لكنه في الحقيقة ليس واثقاً من أنها لم تفعلها! ولذلك فإنه ينظر إليها نظرات قلق عندما يرى أنها لا تلاحظه. ولكنها تلاحظ وترى دون شك. وهذا هو الحال! ربما هي التي فعلتها فعلاً... فأنت تعرفين أفضل مني... ولكن إن لم تقتلها فما الذي تستطيع أن تفعله بخصوص صديقها؟ هل تستمر في القول: "أرجوك، لست أنا القاتلة"؟ ولكن أليس هذا ما كانت ستقوله على أية حال؟

- الحق يا فيليب أنني أظنك تتخيل أشياء.

- أما أنت فلا تستطيعين أن تتخيلي شيئاً أبداً يا بولي. ثم خذي العجوز المسكين ليو: آمال الزواج بغويندا تتضاءل كثيراً والفتاة متضايقة جداً من هذا. ألم تلاحظي ذلك؟

- لا أفهم لماذا يريد والدي الزواج مرة أخرى بعد هذا العمر.

- إنه يفهم دون شك! لكنه يفهم أيضاً بأن أي تلميح بوجود علاقة حب مع غويندا تعطي كلاً منهما دافعاً من الدرجة الأولى لارتكاب الجريمة. أمر فظيع!

قالت ماري: غريب أن تعتقد لحظة واحدة أن والدي قتل أمي! مثل هذه الأشياء لا تحدث.

- بل تحدث؛ اقرئي الصحف.

- ليس بين أناس مثلنا.

- جريمة القتل لا تعرف الفوارق الاجتماعية يا بولي. ثم هناك ميكي. هناك شيء ما يأكله من الداخل دون شك... إنه شاب غريب الأطوار مرير المزاج. ويبدو أن تينا بعيدة عن الشكوك غير قلقة وغير متأثرة، لكن وجهها لا ينم عن مشاعرها. ثم هناك كريستي.

- قد يكون هذا هو الحل!

- كريستي؟

- نعم؛ إنها أجنبية، وأعتقد أنها عانت من نوبات صداع حادة في العام الماضي أو العامين الماضيين... ويبدو أنها هي التي قتلتها وهو الأكثر احتمالاً من أي واحد فينا.

- مسكينة. ألا ترين أن هذا ما تقوله في نفسها؟ أقصد أن من شأننا أن نتفق جميعاً على أنها هي القاتلة لأن هذا ما يلائم العائلة؛ لأنها ليست من أفراد العائلة. ألم تلاحظي الليلة كيف كانت مضطربة جداً؟ كما أنها في نفس الموقف الذي تعيشه هيستر. ما الذي يمكنها أن تقوله أو تفعله؟ تقول لنا جميعاً: "لم أقتل صديقتي ومستخدمتي"... ما فائدة كلامها هذا؟ إن الأمر أكثر سوءاً بالنسبة لها منه بالنسبة لأيّ شخص آخر لأنها وحيدة. سوف تستعرض في قرارة نفسها كل كلمة قالتها وكل نظرة غضب كانت تنظر بها إلى والدتك معتقدة بأننا سنتذكرها وتكون دليلاً عليها.

- ليتك تسكت يا فيل. ما الذي نستطيع نحن عمله على أية حال؟

- أن نحاول فقط البحث عن الحقيقة.

- وكيف يمكن ذلك؟

- قد تكون هناك طرق. أحب المحاولة.

بدا عدم الارتياح على ماري: أي نوع من الطرق؟

- آه! قول أشياء ومراقبة ردود فعل الناس عليها. يمكن للمرء أن يفكر في أشياء.

سكت بينما كان ذهنه مشغولاً ثم قال: أشياء قد تعني شيئاً ما للمذنب، ولكنها لا تعني للبريء شيئاً...

ثم سكت مرة أخرى وهو يقلّب الأفكار، ثم رفع بصره وقال: ألا تريدين مساعدة البريء يا ماري؟

- لا.

خرجت الكلمة من فمها كالقنبلة. جاءت إليه وجثت على ركبتها بجانب كرسيه وقالت: لا أريدك أن تورط نفسك في كل هذا يا فيل. لا تبدأ بإلقاء ملاحظاتك ونصب أفخاخك؛ دع كل شيء وشأنه. آه، بالله عليك، دع كل شيء وشأنه!

رفع فيليب حاجبيه دهشة وقال: "حـ...حسناً"، ثم وضع يده على رأسها.

* * *

كان مايكل آرغيل مستلقياً في سريره يحدق في العتمة، ودار تفكيره هنا وهناك في الماضي. لماذا لم يستطع نسيان الأمر؟ لماذا

يتوجب عليه جر الماضي معه طول حياته؟ وماذا يهم هذا؟ لماذا يتوجب عليه أن يتذكر بوضوح الغرفة الدافئة الحميمة بهوائها الرطب في ذلك الحي الفقير من لندن ويتذكر نفسه هناك؟ الجو المثير واللهو في الشوارع وتشكيل العصابات ضد الأولاد الآخرين. والدته بشعرها الذهبي الذي فكّر الآن -بحكمة البالغين- أنها لم تكن تغسله كثيراً... نوبات غضبها المفاجئة بسبب إدمانها على الشراب وذلك المرح الشديد الذي تظهره عندما تكون في مزاج طيب... وجبات غداء جميلة من السمك والبطاطا، وكانت تغني أغنيات شعبية عاطفية. وكان هناك دائماً أعمامه (هكذا كان يجب عليه أن يسميهم). لقد رحل والده عن البيت قبل أن يستطيع تذكره، لكن أمه ما كانت تطيق أن يضع «العم» يده عليه، بل كانت تقول له: "اترك مايكل وشأنه".

ثم جاءت الحرب وأهوالها، وتوقُّع قاذفات القنابل، وصفارات الإنذار المخيفة، والنزول إلى الأنفاق وقضاء الليالي هناك، وما في ذلك كله من متعة! أهالي الشارع كلهم هناك يحملون معهم طعامهم وشرابهم، وقطارات الأنفاق تندفع مسرعة طول الليل. كانت تلك هي الحياة... في معمعة الأمور!

ثم جاء إلى هنا... إلى الريف. مكان حي وميت في نفس الوقت حيث لا يحدث أي شيء أبداً! كانت أمه قالت له بشكل عرضيٍّ (وكأن الأمر لم يكن حقيقياً): ستعود يا حبيبي عندما ينتهي هذا كله.

لم تبدُ مهتمة بأمر رحيله. ولماذا لم تأتِ هي أيضاً؟ لقد تمّ إخلاء الكثيرين من أطفال الشارع مع أمهاتهم، لكن أمه لم تكن تريد الذهاب. كانت مسافرة إلى الشمال (مع العم الحالي، العم هاري!) لكي تعمل في تجهيز الذخائر والأعتدة العسكرية. كان عليه أن يعرف

في ذلك الوقت على الرغم من وداعها له المشحون بالعاطفة. لم تكن تهتم به حقيقة... كل ما كانت تهتم به هو الشراب فقط، الشراب والأعمام!

وقد عاش هنا أسيراً سجيناً يأكل وجبات غير مألوفة لا طعم لها، ويذهب للنوم في الساعة السادسة (وهو أمر لا يصدق) بعد تناول عشاء خفيف سخيف من الحليب والبسكويت (حليب وبسكويت!) ويستلقي على السرير صاحياً ويبكي ورأسه تحت الأغطية، يبكي على أمه وبيته.

كانت تلك المرأة هي التي أخذته ولم تسمح له بالعودة. لقد حاولت بكثير من الكلام العاطفي المستجدي، ودائماً جعلته يلعب ألعاباً سخيفة. لقد كانت تريد منه شيئاً كان عازماً على ألاّ يعطيه لأي أحد. لا يهم؛ سينتظر وسيكون صبوراً! ويوماً ما... في يوم رائع مجيد سيعود إلى وطنه، وطنه حيث الشوارع والأولاد والباصات الحمراء الرائعة ونفق القطارات والسمك والبطاطا وحركة المرور وقطط المنطقة. كان ذهنه يستعرض لحظات البهجة تلك ويحنّ إليها. يجب أن ينتظر؛ فلا يمكن للحرب أن تستمر إلى الأبد. كان هنا يلزم هذا المكان السخيف بينما كانت القذائف تتساقط على جميع أنحاء لندن ونصف المدينة يشتعل... ألسنة اللهب منتشرة والناس تقتل والبيوت تهدم. رأى تلك المشاهد بعين عقله وبالألوان الرائعة. لا يهم؛ عندما تضع الحرب أوزارها سيعود إلى أمه، وسوف تفاجأ عندما ترى كيف كبر ابنها.

وفي الظلام أخرج ميكي آرغيل زفرة طويلة.

لقد انتهت الحرب، وكان بعض الأطفال على وشك العودة

إلى بيوتهم الآن... ثم عادت هذه السيدة من لندن وقالت إنه باقٍ معها ليكون ابنها الصغير.

وقد سأل: أين أمي؟ هل أصابتها قنبلة؟

لو كانت قُتلت بقنبلة فلن يكون ذلك سيئاً جداً، فذلك يحدث للأمهات. لكن السيدة آرغيل قالت: لا، إنها لم تقتل. لكن عليها عملاً صعباً تريد عمله ولا تستطيع العناية بطفلٍ بشكل جيد.

قالت شيئاً من هذا القبيل، شيئاً لتهدئة الخواطر، كلاماً معسولاً لا يعني شيئاً. لم تكن أمه تحبه ولم ترد عودته... يجب أن يبقى هنا إلى الأبد!

وبعد ذلك اعتاد التسلل في البيت ومحاولة التنصت على ما يدور من حديث. وأخيراً سمع شيئاً، جزءاً من حديث بين السيدة آرغيل وزوجها: " لم تُبد إلاّ سروراً بالتخلص منه... لم تكن مبالية أبداً." كما سمع شيئاً عن مئة جنيه، وهكذا عرف حينئذٍ... لقد باعته أمه مقابل مئة جنيه!

الإذلال، الألم، لم يستطع التغلب على هذه المشاعر أبداً. وقد اشترته هي! لقد رآها -على نحو غامض- كتجسيد للسلطة، كامرأة يشعر بالعجز أمامها بسبب وهنه وضعفه. لكنه سيكبر وسيكون قوياً ذات يوم، سيكون رجلاً. وعندها سيقتلها...

لقد شعر بالارتياح بمجرد أن اتخذ ذلك القرار.

وبعدها، عندما ذهب إلى المدرسة، لم تعد الأمور على ذلك القدر من السوء. لكنه كان يكره العطل بسببها. كانت تقوم بتدبير كل

شيء وتخطط له وتعطيه كل أنواع الهدايا، وتبدو متحيرة لأنه لا يبدي إزاء ذلك سروراً وفرحاً، وكان يكره قيامها بتقبيله. وفيما بعد وجد متعة في إحباط وإفشال خططها التي تضعها له. العمل في بنك أو شركة نفط؟ لا، ليس هو من يقبل ذلك. سيذهب بنفسه ويبحث عن عمل يناسبه.

وعندما كان في الجامعة حاول البحث عن أمه، وقد اكتشف أنها توفيت منذ سنوات في حادث سيارة مع رجل كان يقود السيارة وهو في حالة سكر شديد! إذن لماذا لا ينسى الأمر كله؟ لماذا لا يستمتع بوقته ويمضي في حياته؟ لم يعرف لماذا لا يستطيع ذلك.

والآن... ماذا سيحدث الآن؟ لقد ماتت، أليس كذلك؟ ماتت وهي تظن أنها اشترته بمبلغ مئة جنيه! كانت تظن أن باستطاعتها شراء أي شيء: بيوت وسيارات.. وأطفال، حيث ليس لها أطفال. كانت تظن نفسها قادرة على كل شيء!

حسناً، ها قد تبين أنها لم تكن كذلك. مجرد ضربة قضيب على الرأس جعلتها جثة كأية جثة أخرى! (مثل جثة المرأة ذات الشعر الذهبي التي قتلت في حادث سيارة على طريق غريت نورث). لقد ماتت، أليس كذلك؟ فلماذا القلق؟

ماذا دهاه؟ هل لأنه... لا يستطيع كرهها بعد الآن بسبب موتها؟

إذن ذلك هو الموت! فقَدَ الشعور بالكراهية والضغينة فأحس بالضياع... بالضياع والخوف.

* * *

الفصل الثاني عشر

في غرفة نومها النظيفة المرتبة جدلتْ كريستي ليندستروم شعرها الأشقر الذي غزاه الشيب إلى ضفيرتين واستعدت للنوم.

كانت قلقة خائفة؛ فلم يكن الشرطة يحبون الأجانب. لقد عاشت في إنكلترا فترة طويلة لم تعد تشعر معها أنها أجنبية، لكن الشرطة لا يدركون ذلك.

هذا الدكتور كالغاري... لماذا جاء وفعل بها ما فعل؟ لقد تمّ تنفيذ العدالة. فكرت في جاكو... وكررت في نفسها أن العدالة أخذت مجراها. فكرت فيه منذ أن عرفته ولداً صغيراً. كان دائماً... نعم... دائماً كذاباً وغشاشاً! ولكنه كان ساحراً جداً وآسِراً. كان المرء يغفر له دوماً كل ما فعله ويحاول حمايته من العقوبة. كان يكذب جيداً، وكانت تلك هي الحقيقة المفزعة. كان يكذب جيداً لدرجة أن الآخرين يصدقونه... أو لا يملكون إلاّ أن يصدقوه. جاكو الوغد القاسي.

ربما ظن الدكتور كالغاري أنه يعرف ما يتحدث عنه! ولكنه كان مخطئاً. الأماكن والأوقات وأدلة البراءة! كان بوسع جاكو تدبير مثل هذه الأشياء بسهولة. إن أحداً لم يعرف جاكو حقاً كما عرفته هي.

هل سيصدقها أحد لو أخبرتهم عن حقيقة جاكو؟ والآن، غداً، ما الذي سيحدث؟ سوف يأتي الشرطة. والكل حزين تنتابه الشكوك، ينظرون إلى بعضهم البعض... غير واثقين ممّا ينبغي عليهم تصديقه.

لقد أحبتهم كثيراً... كثيراً جداً. كانت تعرفهم جميعاً وبشكل جيد أكثر من أي شخص آخر، حتى إنها كانت تعرفهم أكثر بكثير مما كانت السيدة آرغيل تعرفهم، لأن السيدة آرغيل كانت قد أعمتها غريزة الأمومة المستحوذة عليها. كانوا أطفالها... كانت ترى دائماً أنهم ملك لها، لكن كريستي كانت تنظر إليهم كأفراد على حقيقتهم... مع كل حسناتهم وسيئاتهم. لو كانت قد أنجبت أطفالاً لكانت ستشعر بنفس الغريزة التملكية، ولكنها لم تكن من النوع الذي تستحوذ الأمومة عليه. ولو أنها تزوجت لكان جلّ حبها سيكرس لزوجها الذي لم تصادفه أبداً.

كانت ترى صعوبة في فهم نساء كالسيدة آرغيل؛ مجنونة بخصوص أطفال كثر ليسوا أطفالها الحقيقيين وتعامل زوجها وكأنه غير موجود! رجل طيب أيضاً، لطيف لا يوجد مثله. تهمله وتعزله جانباً! والسيدة آرغيل لاهية مشغولة عن ملاحظة ما كان يحدث أمام عينيها. تلك السكرتيرة... فتاة جميلة. لم يفت الوقت بالنسبة لليو، أم أن الوقت قد فات الآن؟ والآن مع خروج جريمة القتل من قبرها ثانية، هل سيجرؤ هذان الاثنان على الزواج؟

تنهدت كريستي بحزن. ماذا سيحدث لهم جميعاً؟ لميكي الذي كان يحمل تلك الضغينة والكراهية العميقة لأمه بالتبني. لهيستر، بكل ضعف ثقتها بنفسها وكل حِدّتها. هيستر التي كانت على وشك

العثور على الراحة والأمن مع ذلك الطبيب الشاب البارد المتحفظ. ماذا سيحدث مع ليو وغويندا فوغان اللذين كان لهما دافع وكانت لديهما... نعم، وهو ما ينبغي الاعتراف به: كانت لديهما الفرصة، وهو الأمر الذي يدركه الاثنان دون شك. وماذا سيحدث مع تينا، تلك الفتاة التي تشبه القطة؟ ومع ماري الأنانية صاحبة القلب البارد والتي لم تكنّ حباً لأحدٍ إلى أن تزوجت؟

فكرت كريستي بأنها كانت تكنّ عاطفة وحباً شديدين لمستخدِمتها ذات يوم، وكانت معجبة بها تماماً. لم تستطع أن تتذكر متى بدأت تكرهها بالضبط، متى بدأت تحكم عليها وتكتشف عيوبها: واثقة جداً من نفسها، مستبدة توزع الخير من عليائها... أم مسيطرة تظن أنها تعرف أفضل من الجميع وهي ليست فعلاً أماً حقيقية! لو كانت قد أنجبت طفلاً لجعلها ذلك متواضعة.

ولكن لماذا هذا الاستمرار في التفكير برابنا؟ لقد ماتت راينا آرغيل. يجب عليها أن تفكر في نفسها... وفي الآخرين... وبما قد يحدث غداً.

* * *

استيقظت ماري فزعة. كانت تحلم... تحلم بأنها طفلة عادت إلى نيويورك مرة أخرى. كم هو غريب. إنها لم تفكر بتلك الأيام منذ سنوات! من الغريب أن تستطيع تذكّر أي شيء. كم كان عمرها. خمس سنوات؟ ستاً؟

لقد حلمت بأنهم أخذوها إلى بيتها من الفندق. كانت عائلة آرغيل تبحر إلى إنكلترا دون أن يأخذوها معهم. وملأ الغضب والهياج

قلبها لبعض الوقت إلى أن أدركت أن ذلك لم يكن إلاّ حلماً.

كم كان ذلك رائعاً! تركب السيارة وتصعد في مصعد الفندق إلى الطابق الثامن عشر. الجناح الكبير، ذلك الحمّام الرائع، رؤيتها للعالم من منظار الغني! ليتها تبقى هنا... ليتها تحتفظ بكل هذه الأشياء إلى الأبد! الواقع أنه لم تكن هناك أية صعوبة أبداً. كل ما كانت تحتاجه هو إبداء شيء من الحب والعاطفة، وهو ما لم يكن سهلاً أبداً بالنسبة لها لأنها لم تكن ذات مزاج عاطفي مُحب، لكنها استطاعت تمثيل ذلك. وهكذا ظلت هناك إلى الأبد! والد ثري وأم ثرية، ثياب، سيارات، سفن، طائرات، خدم في انتظارها ، لعب ثمينة... حكاية خيالية تتحقق!

أمر مؤسف أن يكون كل هؤلاء الأطفال الآخرين موجودين هناك أيضاً. إنها الحرب بالطبع... أم أن ذلك كان سيحدث في كل الأحوال؟ إنه حب الأم الذي لا يرتوي! إن في ذلك شيئاً غير طبيعي حقاً... شيئاً حيوانياً تماماً.

كانت تشعر دائماً بمسحة ازدراء تجاه أمها بالتبني، فقد كان غباء منها -في أفضل الأحوال- أن تتبنى الأطفال الذين اختارتهم. أطفال فقراء ذوي ميول إجرامية مثل جاكو... مضطربو التفكير مثل هيستر... متوحشون أمثال ميكي... وتينا المولَّدة! لا عجب أن انتهى بهم الأمر نهاية سيئة. ومع ذلك لم تستطع أن تلومهم على التمرد، فهي نفسها تمردت. تذكرت لقاءها بفيليب، الطيار الشاب المندفع. واستياء أمها: "هذه الزيجات المستعجلة! انتظري لحين انتهاء الحرب". لكنها لم تكن تريد الانتظار. كانت ذات إرادة قوية كأمها وقد ساندها والدها في موقفها، فتزوجا وانتهت الحرب بعد زواجهما مباشرة.

كانت تريد أن يكون فيليب لها وحدها وأن تهرب بعيداً عن ظل والدتها، وكان القدر هو الذي هزمها وليس أمها. في البداية فشل مخططات فيليب المالية، ثم جاءت تلك الضربة المخيفة... مرض الشلل. وحالما استطاع فيليب مغادرة المستشفى جاءا إلى «صني بوينت». كان يبدو أن لا مفر من الإقامة هناك. فيليب نفسه كان يرى ذلك، وكان قد خسر كل أمواله، كما أن الراتب الذي كانت تحصل عليه من صندوق الائتمان لم يكن كبيراً. وكانت قد طلبت مبلغاً أكبر لكن الإجابة كانت أنه ربما كان من الحكمة أن يعيش زوجها في «صني بوينت» فترة من الزمن. لكنها كانت تريد فيليب لنفسها، كله لها، لم تكن تريد له أن يكون آخر أطفال راينا آرغيل. ولم تكن هي تريد طفلاً لها... كانت تريد فيليب فقط.

ولكن فيليب نفسه بدا موافقاً على فكرة القدوم والعيش في صني بوينت: "أسهل لك، كما أن كثرة الناس وترددهم في البيت ينسيني مرضي. إضافة إلى أنني أجد رفقة والدك طيبة".

لماذا لم يكن يرغب في أن يبقى معها وحدها مثلما تريد هي البقاء معه فقط؟ لماذا يرغب بصحبة شخص آخر؟ محبة أبيها أو محبة هيستر؟ وقد أحست ماري بموجة عارمة من الغضب تسري في جسمها. إن أمها، وكما هي العادة، ستفرض رأيها.

لكنها لم تفرض رأيها... لقد توفيت.

والآن سيثار كل هذا من جديد. لماذا، آه، لماذا؟

ولماذا يرهقها فيليب بكثرة تفكيره بهذا الأمر؟ يسأل ويحاول أن يعرف ويقحم نفسه فيما لا يعنيه؟ وينصب الفخاخ...

أي نوع من الفخاخ؟

❁ ❁ ❁

راقب ليو آرغيل ضوء الصباح وهو يغمر جنبات الغرفة ببطء. كان قد فكر في كل شيء بكل دقة وحرص، وكان واضحاً تماماً أمامه ذلك الذي سيواجهه هو وغويندا.

استلقى ينظر إلى الشيء كما سينظر إليه الضابط هوش. راينا تدخل وتخبرهم عن جاكو وعن تهوره وتهديداته. غويندا -بلباقتها- تنسحب إلى الغرفة المجاورة فيما حاول هو تهدئة راينا وأخبرها أن موقفها كان صحيحاً تماماً عندما تصرفت معه بحزم، وأن مساعدة جاكو في الماضي لم تنفع... وأن عليه أن يتحمل ما سيحدث له مهما كانت النتائج، فغادرت الغرفة وهي أهدأ بالاً. ثم عادت غويندا إلى الغرفة وجمعت الرسائل لإرسالها بالبريد وسألته إن كان يريد منها أي شيء آخر، وكان صوتها يدل على أكثر مما كانت تقصده بكلماتها. وقد شكرها وقال لها إنه ليس عنده أي شيء، فودعته وخرجت من الغرفة. سارت عبر الممر ثم نزلت الدرج ومرت من جانب الغرفة التي كانت تجلس فيها راينا وراء مكتبها، ثم خرجت من البيت دون أن يراها أحد وهي تخرج.

وكان هو نفسه قد جلس في المكتبة وحيداً، ولم يكن معه أحد ليتحقق إن كان قد غادر مكانه ونزل إلى غرفة راينا أو لا.

كان الأمر كذلك... فرصة سنحت لكليهما. وهناك دافع أيضاً، لأنه كان في ذلك الوقت يحب غويندا فوغان وكانت تحبه.

لا أحد أبداً يمكنه أن يثبت تورط أي منهما في تلك الجريمة، ولا أحد يمكنه أن يثبت براءتهما منها.

* * *

على بعد ميل كانت غويندا ترقد أَرِقة.

كانت تفكر -وقد شبكت أصابع يديها- إلى أي مدىً كرهت راينا آرغيل.

والآن، في هذا الظلام، كانت راينا آرغيل تقول: "لقد ظننتِ أن بإمكانك الحصول على زوجي عندما أموت. لكنك لا تستطيعين... لا تستطيعين. لن تنالي زوجي أبداً"!

* * *

كانت هيستر تحلم. حلمت بأنها مع دونالد كريغ وأنه تركها فجأة عند حافة هاوية سحيقة. وقد صاحت من الخوف، ثم رأت على الجانب الآخر من الهاوية آرثر كالغاري واقفاً وهو يمد لها يديه.

صاحت في وجهه موبخة: لماذا فعلت ذلك بي؟

وقد أجابها: لكني جئت لمساعدتك...

ثم استيقظت.

* * *

تنفست تينا وهي مستلقية بهدوء في سرير الغرفة الاحتياطية، بهدوء وانتظام، ولكن لم يأتها النوم.

فكرت في السيدة آرغيل دون عرفان بالجميل ودون استياء منها... فكرت فيها بحب فقط. لأنها مع السيدة آرغيل حصلت على الطعام والشراب والدفء واللعب والراحة. كانت قد أحبت السيدة آرغيل، وكانت تشعر بالأسف لوفاتها.

لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة. لم يكن الأمر يهم عندما كان جاكو هو القاتل...

أما الآن؟

* * *

الفصل الثالث عشر

نظر الضابط هوش بأدب وهدوء إلى أولئك الذين التفوا حوله جميعاً، وعندما تحدث كان صوته مقنعاً وفيه اعتذار. قال: أعرف أن من المؤلم لكم جميعاً أن نعيد التحقيق في الأمر من جديد، ولكننا -في الحقيقة- لا نملك أي خيار في هذه المسألة. أظن أنكم رأيتم البيان؟ لقد نشرته كل صحف الصباح.

قال ليو: بيان العفو.

قال هوش: التعابير القانونية تزعج الناس دائماً، وقد صيغ البيان بلغة قديمة كالكثير من الوثائق القانونية، لكن معناه واضح تماماً.

قال ليو: إنه يعني أنكم ارتكبتم خطأً.

اعترف هوش بذلك بكل بساطة: "نعم، لقد أخطأنا". ثم أضاف بعد دقيقة صمت: كان ذلك أمراً محتوماً بالطبع في غياب شهادة الدكتور كالغاري.

ردّ عليه ليو ببرود: لقد أخبركم ابني عندما اعتقلتموه بأن شخصاً قد أركبه بسيارته تلك الليلة.

- آه، نعم، لقد أخبرنا. وقد بذلنا كل جهد ممكن لنتأكد من

أقواله... لكننا لم نتمكن من العثور على أي دليل يثبت روايته هذه. إنني أدرك تماماً -يا سيد آرغيل- بأنك تشعر بمرارة وألم بخصوص ما حدث، وأنا لا ألتمس لنفسي الأعذار. إن كل ما علينا فعله نحن ضباط الشرطة هو جمع الأدلة؛ نرسل بالأدلة إلى النائب العام وهو الذي يقرر إن كانت هناك قضية أو لا. وفي هذه الحالة قرر أنه توجد قضية. وإذا كان ممكناً فإنني أطلب منكم أن تنسوا الألم والمرارة قدر استطاعتكم وتعيدوا استذكار الوقائع والأوقات مرة أخرى.

قالت هيستر بحدة: وما هي الفائدة الآن؟ إن مَن فعلها قد نجا بفعلته ولن تجدوه أبداً.

نظر الضابط هوش إليها وقال: قد يكون هذا صحيحاً... وقد لا يكون. سوف تُدهشون عندما تعلمون أننا نقبض على المجرم المطلوب أحياناً بعد عدة سنوات. إن الذي يفعل ذلك هو الصبر، الصبر وعدم التخلي عن البحث.

التفتت هيستر برأسها بعيداً وارتعشت غويندا ارتعاشة سريعة وكأن ريحاً باردة قد داهمتها، وقد أحس خيالها الخصب بالخطر الجاثم وراء الكلمات الهادئة.

قال هوش: "والآن أرجوكم"، ثم نظر إلى ليو متوقعاً منه شيئاً وقال: سنبدأ منك يا سيد آرغيل.

- ما الذي تريد معرفته بالضبط؟ لا بد أنكم تحتفظون بشهادتي الأصلية. قد أكون الآن أقل دقة، فالأوقات المضبوطة قد تفلت من ذاكرة المرء.

- آه، إننا ندرك هذا، ولكن توجد دائماً فرصة ظهور حقيقة صغيرة، شيءٍ تمّ تجاوزه في ذلك الوقت.

قال فيليب: أليس من الممكن أن يرى المرء الأشياء بطريقة مناسبة أكثر بعد مرور السنين؟

قال هوش وهو يلتفت برأسه صوب فيليب باهتمام: هذا ممكن، نعم.

فكر هوش في نفسه: "إنه شاب ذكي. لا أدري إن كانت لديه أية أفكار خاصة عن هذا..." ثم قطع أفكاره وعاد ليسأل: والآن يا سيد آرغيل، أرجو أن تذكر لي سلسلة الأحداث التي جرت. هل كنتم قد تناولتم الشاي؟

- نعم. كان الشاي موجوداً في غرفة الطعام في الساعة الخامسة كما هي العادة. كنّا جميعاً هناك نشرب الشاي باستثناء فيليب وزوجته. كانت ماري قد أخذت الشاي لها ولزوجها في غرفتها الخاصة.

قال فيليب: كنت مقعداً أكثر ممّا أنا عليه الآن؛ كنت قد خرجت من المستشفى لتوي.

قال هوش: صحيح.

ثم التفت إلى ليو مرة أخرى وقال: كلكم... من؟

- أنا وزوجتي وابنتي هيستر والآنسة فوغان والآنسة ليندستروم.

- ثم ماذا؟ أخبرني حسب ما تعرفه.

- بعد شرب الشاي عدت إلى هنا مع الآنسة فوغان. كنّا نقوم

بمراجعة فصل مـ كتاب عن اقتصاديات العصور الوسطى وقد ذهبت زوجتي لغرفة جلوسها ومكتبها (وهو في الطابق السفلي). كان امرأة مشغولة جداً كما تعرف؛ وكانت تدرس بعض الخطط لإقامة ملعب جديد للأطفال وكانت تنوي عرضها على المجلس هنا.

- هل سمعت ابنك جاك عند وصوله؟

- لا. أقصد أنني لم أكن أعرف أنه هو. سمعت، أو كلانا سمع جرس الباب. لم نعرف من القادم.

- ومن يمكن أن يكون القادم حسب اعتقادك يا سيد آرغيل؟

بدا وكأن السؤال قد أعجب ليو، فقال: كنت وقتها غارقاً في القرن الخامس عشر وليس العشرين. لم أفكر في القادم أبداً. يمكن أن يكون أي شخص أو أي شيء. زوجتي والآنسة ليندستروم وهيستر وربما واحدة من الخادمات اللاتي يعملن عندنا في النهار كنّ موجودات في الطابق السفلي. لم يتوقع أحد مني أبداً أن أذهب لأفتح الباب.

- وبعد ذلك؟

- لا شيء. إلى أن جاءت زوجتي بعد ذلك بوقت طويل.

- ما مقدار هذا الوقت؟

قطب ليو جبينه ثم قال: لا أذكر الآن. لا بد أنني أخبرتك عن ذلك في ذلك الوقت. نصف ساعة... لا...أكثر... ربما ثلاثة أرباع الساعة.

قالت غويندا: انتهينا من شرب الشاي بعد الخامسة والنصف

بقليل. أظن أن الساعة كانت السابعة إلاّ ثلثاً عندما دخلت السيدة آرغيل المكتبة.

- ماذا قالت؟

تنهد ليو ثم تكلم باستياء: لقد قلنا هذا أكثر من مرة. قالت إن جاكو كان عندها وإنه وقع في مشكلة وإنه كان عنيفاً ويشتم ويطلب نقوداً ويقول إنه سيدخل السجن إذا لم يحصل على بعض المال الآن. وقالت إنها رفضت رفضاً قاطعاً إعطاءه فلساً واحداً. وكانت قلقة ولا تعرف إن كان تصرفها سليماً أو غير ذلك.

- أريد أن أسألك يا سيد آرغيل سؤالاً: لماذا لم تستدعِك زوجتك عندما طلب الولد النقود؟ لماذا لم تخبرك إلاّ بعد ذلك؟ ألم ترَ في ذلك شيئاً من الغرابة؟

- أبداً، لم يكن غريباً.

- يبدو لي أن ذلك كان هو التصرف الطبيعي. هل كانت العلاقة... سيئة بينكما؟

- آه، لا. كانت زوجتي معتادة -ببساطة- على التعامل مع القرارات العملية بمفردها. كانت تستشيرني في الغالب مسبقاً لترى ما أعتقده أمّا قراراتها فكان من عادتها مناقشتها معي بعد اتخاذها. وفي هذه المسألة بالذات تحدثنا معاً عن مشكلة جاكو بجدية كبيرة... بخصوص ما هو أفضل عمل نقوم به. فحتى ذلك الوقت لم نكن محظوظين أبداً في تربية الصبي. كانت قد دفعت له مبالغ كبيرة جداً عدة مرات لحمايته من تبعات أعماله، وقد قررنا أنه إن جاء يطلب نقوداً مرة أخرى فمن الأفضل لجاكو أن يتعلم درساً قاسياً.

- إلاّ أنها كانت متضايقة بالرغم من كل ذلك؟

- نعم؛ كانت متضايقة. لو جاءها بأسلوب أقل عنفاً وأقل تهديداً فأعتقد أنها كانت ستذعن وتساعده مرة أخرى، لكن موقفه جعلها تتصلب في رأيها.

- هل كان جاكو قد ترك البيت عندما جاءتك؟

- نعم.

- هل تعرف هذا بناء على معلوماتك أم أن السيدة آرغيل هي التي أخبرتك؟

- هي التي أخبرتني. قالت إنه ذهب غاضباً يتهدد ويتوعد بالمجيء مرة أخرى وإنه قال إن من الأفضل لها أن تدبر له مبلغاً نقدياً عند عودته.

- هل خفت... وهو سؤال مهم... هل خفت من فكرة عودة الولد؟

- بالطبع لا. كنا معتادين تماماً على تهديدات جاكو وتبجحاته.

- ألم يخطر ببالك أبداً أنه سيعود ويعتدي عليها؟

- لم يخطر ببالي أبداً. أخبرتك بذلك في حينه؛ لقد صُعقت.

- ويبدو أنك كنت على حق تماماً؛ إذ لم يكن هو الذي اعتدى عليها. متى تركتك السيدة آرغيل بالضبط؟

- أذكر هذا، فقد راجعنا هذه النقطة مراراً. قبل السابعة بقليل... نحو الساعة السابعة إلاّ سبع دقائق.

التفت هوش إلى غويندا فوغان وقال: هل تؤكدين على هذه الأقوال؟

- نعم.

- وهل كان الحديث كما رواه السيد آرغيل بالضبط؟ ألا يمكنك أن تضيفي إليه شيئاً؟ ألم ينسَ شيئاً؟

- لم أسمع كل الحديث. فبعد أن أخبرتنا السيدة آرغيل عن مطالب جاكو رأيت أنه من الأفضل لي الانسحاب من المكان حتى لا يشعرا بالحرج وهما يتكلمان أمامي صراحة. ذهبت إلى هناك...

وأشارت إلى الباب في مؤخرة المكتبة وقالت: إلى الغرفة الصغيرة التي أطبع فيها. وعندما سمعت السيدة آرغيل وهي تغادر عدت.

- وهل كان هذا الساعة السابعة إلاّ سبع دقائق؟

- نعم، قبل السابعة إلاّ خمس دقائق بقليل.

- وبعد ذلك يا آنسة فوغان؟

- سألت السيد آرغيل إن كان يريد مواصلة العمل لكنه قال بأن سلسلة أفكاره قد قُطعت. سألته إن كان يريد أي شيء آخر مني فأجاب بالنفي، وهكذا جمعت حاجياتي وذهبت.

- متى؟

- في السابعة وخمس دقائق.

- هل نزلت الدرج وخرجت من الباب؟

- نعم.

- كانت غرفة جلوس السيدة آرغيل إلى يسار الباب الرئيسي مباشرة، أليس كذلك؟

- بلى.

- هل كان الباب مفتوحاً؟

- لم يكن مغلقاً... كان مفتوحاً مقدار قدم واحد.

- ألم تذهبي إليها لتوديعها؟

- نعم، لم أذهب.

- ألا تفعلين ذلك في العادة؟

- لا أفعل؛ فمن السخافة مقاطعتها في عملها من أجل توديعها فقط.

- لو أنك دخلت عليها الغرفة... فربما كنت ستجدينها ممددة هناك ميتة.

رفعت غويندا كتفيها حيرة وقالت: أظن ذلك. ولكني أتصور... أقصد أننا جميعاً تصورنا في ذلك الوقت بأنها قتلت بعد ذلك. لم يكن جاكو يستطيع أن...

ثم سكتت، فقال الضابط: ما زلت تفكرين على أساس أن جاكو هو الذي قتلها، ولكن ليس هذا هو الحال الآن. إذن ربما كانت موجودة في الداخل ميتة في تلك اللحظة، أليس كذلك؟

- أظن ذلك.

- هل تركت المنزل وعدت إلى بيتك مباشرة؟

- نعم. وقد تحدثت صاحبة المنزل معي عندما دخلت.

- صحيح. ألم تقابلي أحداً في الطريق... قرب البيت؟

- لا أظن ذلك...

ثم قطبت غويندا جبينها وقالت: الحق أنني لا أتذكر ذلك الآن... كان الجو بارداً ومظلماً كما أن هذا الطريق زقاق غير نافذ. لا أظن أنني مررت بأحدٍ إلى أن وصلت إلى مقهى «ريد ليون». وكان يوجد عدة أشخاص في ذلك المكان.

- هل مرّت من جانبك أية سيارة؟

بدت غويندا ذاهلة: آه، نعم؛ أذكر أن سيارة مرت من جانبي ولطخ رذاذ الماء الذي أحدثته تنورتي، وقد اتسخت بالوحل فاضطررت لغسلها عند عودتي.

- وما نوع تلك السيارة؟

- لا أذكر؛ فلم ألحظها. لقد مرت من جانبي عند مدخل طريقنا تماماً، وربما كانت ذاهبة إلى أي من البيوت في المنطقة.

التفت هوش إلى ليو وقال: قلت إنك سمعت صوت جرس الباب بعد قليل من مغادرة زوجتك الغرفة؟

- أظن أنني سمعت ذلك، لم أكن واثقاً تماماً.

- متى كان ذلك؟

- لا أعرف؛ لم أنظر إلى الساعة.

- ألم يخطر لك أنه ربما كان جاكو قد عاد؟

- نعم، لم يخطر ذلك لي. لقد كنت... كنت مشغولاً في عملي.

- نقطة أخرى يا سيد آرغيل. هل كنت تعرف أن ابنك كان متزوجاً؟

- لم أكن أعرف ذلك أبداً.

- وأمه أيضاً لم تكن تعرف؟ ألا تظن أنها كانت تعرف لكنها لم تبلغك؟

- أنا متأكد تماماً أنها لم تكن تعرف بمثل هذا الأمر، ولو كانت تعرف لجاءت وأخبرتني على الفور. كانت أكبر صدمة تلقيتها عندما جاءت زوجته في اليوم التالي. لم أكد أصدق عندما جاءت الآنسة ليندستروم إلى هذه الغرفة وقالت: "توجد في الطابق السفلي شابة... فتاة تقول إنها زوجة جاكو، لا يمكن أن يكون ذلك صحيحاً". كانت كريستي متضايقة جداً، أليس كذلك يا كريستي؟

قالت كريستي: لم أستطع تصديق ذلك. جعلتها تكرر ما قالته لي ثم صعدت إلى السيد آرغيل. بدا ذلك أمراً لا يمكن تصديقه.

قال هوش مخاطباً ليو: علمت أنك كنت كريماً طيباً معها.

- فعلت ما بوسعي. لقد تزوجت ثانية الآن، وأنا سعيد بهذا، إذ يبدو أن زوجها رجل لطيف ومستقيم.

أومأ هوش برأسه، ثم التفت إلى هيستر وقال: والآن يا آنسة

آرغيل، أخبريني بالضبط بما فعلته بعد شرب الشاي ذلك اليوم.

ردّت عليه هيستر بنكد: لا أتذكر الآن. وكيف لي أن أتذكر؟ لقد حدث ذلك قبل سنتين. ربما فعلت أي شيء.

- الواقع أنني أعتقد أنك ساعدت الآنسة ليندستروم في رفع فناجين الشاي وتنظيف المكان.

قالت كريستي: هذا صحيح تماماً، ثم ذهبتِ إلى غرفتك في الطابق العلوي. كنتِ ستخرجين بعدها لو تذكرين. كنت ستخرجين لمشاهدة مسرحية لإحدى فرق الهواة على مسرح درايموث.

بقي النكد والسخط وعدم التعاون بادياً على هيستر، ثم قالت مخاطبة هوش: كل شيء مدون عندك، فلماذا نعيد الموضوع من جديد؟

- لأن المرء لا يعرف أبداً ما الذي يمكن أن يفيدنا. وبعد ذلك -يا آنسة آرغيل- متى غادرتِ البيت؟

- في السابعة أو نحو ذلك.

- هل سمعت المشادة التي وقعت بين أمك وأخيك جاك؟

- لا، لم أسمع شيئاً. كنت في الطابق العلوي.

- لكنك رأيت السيدة آرغيل قبل أن تغادري البيت!

- نعم. كنت أريد بعض الأموال. كنت قد خرجت عملياً، ثم تذكرت أن الوقود في سيارتي على وشك النفاد ويتوجب عليّ ملؤها بالوقود في الطريق إلى درايموث. ولذلك بعد أن أوشكت على

الانطلاق عدت فدخلت إلى أمي وطلبت منها بعض النقود... جنيهين فقط... وهو كل ما كنت أحتاجه.

- وهل أعطتك النقود؟

- كريستي أعطتني إياها.

بدا أن هوش قد فوجئ بعض الشيء وقال: لا أذكر أن هذا مدون في أقوالك الأصلية.

ردّت عليه هيستر متحدية: هذا ما حدث. دخلت عليها وسألتها أن تعطيني نقوداً وسمعت كريستي وهي في الصالة ما قلته لأمي فنادتني وقالت إن لديها نقوداً ويمكن أن تعطيني منها. هي نفسها كانت خارجة. وقالت أمي: "نعم، خذيها من كريستي".

قالت كريستي: كنت على وشك الذهاب إلى الجمعية النسائية حاملة بعض الكتب عن تنسيق الزهور. كنت أعرف أن السيدة آرغيل كانت مشغولة ولم تكن تريد أن يزعجها أحد.

قالت هيستر بصوت محزون: وماذا يهم إن كانت هي التي أعطتني النقود أو غيرها؟ أنت تريد أن تعرف متى رأيت والدتي على قيد الحياة لآخر مرة. كانت تلك هي آخر مرة، وكانت جالسة وراء الطاولة منكبّة على دراسة كثير من الخطط والمشاريع. قلت لها إنني أريد نقوداً فنادتني كريستي وقالت إنها ستعطيني. أخذت منها النقود ثم ذهبت إلى غرفة والدتي من جديد وودعتها وتمنت لي وقتاً سعيداً مع المسرحية وطلبت مني الحرص في قيادة السيارة. كانت تطلب ذلك دائماً. ثم ذهبت وأخرجت سيارتي.

- والآنسة ليندستروم؟

- آه، خرجت حالما أعطتني النقود.

أسرعت كريستي ليندستروم تقول: مرّت هيستر من جانبي في سيارتها عندما وصلت إلى نهاية الطريق المؤدي إلى بيتنا. لا بد أنها خرجت بعدي مباشرة. صعدت هي التلة باتجاه الطريق الرئيسي بينما استدرت أنا يساراً باتجاه القرية.

فتحت هيستر فمها وكأنها تريد الكلام ثم أغلقته بسرعة.

احتار هوش. هل كانت كريستي ليندستروم تحاول أنْ تثبت أن هيستر لم يكن لديها وقت لارتكاب الجريمة؟ هل كان ممكناً -بدلاً من قول هيستر للسيدة آرغيل "تصبحين على خير"- حدوث مشادة كلامية بينهما... شجار قامت بعده هيستر بقتلها؟

التفت إلى كريستي بهدوء وقال: والآن يا آنسة ليندستروم، نريد سماع روايتك عمّا تتذكرينه.

كانت عصبية المزاج، تفرك يديها بقلق وقالت: شربنا الشاي، ثم رفعنا الشاي والفناجين من المكان وساعدتني هيستر في ذلك. ثم صعدت إلى غرفتها ثم جاء جاكو.

- هل سمعتِه؟

- نعم، أنا التي أدخلته. قال إنه فقد مفاتيحه. وذهب إلى أمه مباشرة وقال لها على الفور: "إنني في ورطة وعليك أن تنقذيني منها". ولم أسمع أكثر من ذلك، فقد عدتُ إلى المطبخ حيث كنت أريد إعداد بعض الأشياء للعشاء.

- هل سمعتِه وهو يغادر؟

- نعم؛ كان يصرخ فجئت من المطبخ. كان يقف هناك في الصالة الأمامية غاضباً جداً يصيح بأعلى صوته مهدداً بأنه سيعود وأنه من الأفضل لأمه أن تجهز له النقود. وإلاّ! هذا ما قاله: "وإلاّ"... كان تهديداً.

- وبعدها؟

- خرج وضرب الباب بقوة. وخرجت السيدة آرغيل إلى الصالة، وكانت شاحبة ومتضايقة جداً. قالت لي: "هل سمعت؟"، قلت لها: "هل وقع في مشكلة؟" فأومأت برأسها، ثم صعدت إلى المكتبة حيث السيد آرغيل. وجهزت الطاولة للعشاء ثم صعدت لألبس ثيابي استعداداً للخروج. كانت الجمعية النسائية ستقيم مسابقة في تنسيق الزهور في اليوم التالي وقد وعدناها بتزويدها بكتب حول تنسيق الزهور.

- أخذتِ الكتب إلى الجمعية... فمتى عدتِ إلى البيت؟

- لا بد أن ذلك كان في حدود الساعة السابعة والنصف. دخلت بعد أن فتحت الباب بمفتاحي وذهبت إلى غرفة السيدة آرغيل على الفور لأبلغها رسالة شكر وملاحظة. كانت وراء المكتب جالسة وتضع رأسها على يديها، وكان قضيب الموقد ملقى هناك على الأرض... وأدراج المكتب مفتوحة. ظننت وقوع سرقة وأنه قد اعتُدي عليها. وكنت محقة؛ تعرف الآن أنني كنت على حق! كان لصاً... شخصاً من الخارج!

- شخص أدخلته السيدة آرغيل إلى البيت بنفسها؟

ردّت كريستي بتحدٍّ: ولِمَ لا؟ كانت طيبة... دائماً طيبة. ولم

تكن خائفة من الناس أو من الأشياء. كما أنها لم تكن في البيت وحدها. كان فيه آخرون: زوجها، وغويندا، وماري. كانت تستطيع أن تصرخ فيهرع لنجدتها من في البيت.

- لكنها لم تصرخ.

- نعم؛ لأن المجرم -كائناً من كان- قد خدعها بقصة مقنعة. كان من شأنها أن تصغي دائماً. وهكذا، جلست وراء مكتبها مرة أخرى... ربما لكي تبحث عن دفتر شيكاتها... لأنها لم تكن ترتاب في أحد. وهكذا انتهز فرصة لالتقاط القضيب وضربها. بل ربما لم يكن قصده قتلها وإنما إفقادها وعيها لكي يبحث عن النقود والجواهر ويسرقها.

- إنه لم يضطر للبحث كثيراً... قلّب بعض الأدراج فقط.

- قد يكون سمع أصواتاً في البيت... أو فقد أعصابه. أو ربما اكتشف أنه قتلها، ولذلك أسرع وخرج مذعوراً.

ثم مالت إلى الأمام. كانت عيناها خائفتين مستجديتين في آنٍ معاً. قالت: لا بد أن هذا ما حصل... لا بد!

لفت انتباهه إلحاحها. أكان ذلك خوفاً على نفسها؟ يمكن أن تكون قد قتلت مستخدِمتها في ذلك الوقت والمكان وفتحت الأدراج حتى توحي بفكرة السرقة. لم يستطع الطبيب الشرعي تقريب وقت حدوث الوفاة أكثر من كونها حدثت في وقت ما بين السابعة والسابعة والنصف. ثم أذعن قائلاً بمرح: يبدو أن هذا حدث فعلاً.

تنهدت بارتياح واستندت في جلستها. والتفت الضابط إلى

فيليب وزوجته وقال: ألم يسمع أحدٌ منكما شيئاً؟

- أبداً.

قالت ماري: أخذت صينية الشاي إلى غرفتنا في الطابق العلوي، وهي غرفة معزولة بعض الشيء عن بقية المنزل. وبقينا فيها حتى سمعنا صراخاً. كانت كريستي هي التي صرخت عندما وجدت أمي مقتولة.

- ألم تخرجي من الغرفة حتى تلك اللحظة؟

- نعم؛ لم أخرج.

التقت عيناها الواضحتان بعينيه، ثم قالت: كنّا نلعب ورق اللعب.

احتار فيليب وتساءل عن سبب شعوره بالاضطراب. كانت بولي تقوم بما طلب هو منها أن تفعله. هل انتابه هذا الشعور بسبب كمال أسلوبها وجوابها الهادئ والتمهل الذي يحمل اقتناعاً كاملاً. فكر في نفسه: "بولي حبيبتي، إنك كذابة رائعة"!

ثم قال: وأنا يا حضرة الضابط كنت وقتها (وما زلت) غير قادر على الحركة.

قال الضابط بمرح: لكنك الآن أفضل بكثير يا سيد ديورانت. سنراك ذات يوم تمشي على قدميك ثانية.

- إنه أمل طويل.

التفت هوش نحو الاثنين الآخرين في العائلة اللذين كانا –حتى

تلك اللحظة- يجلسان صامتين. فقد جلس ميكي عاقداً ذراعيه على صدره وعلى وجهه ملامح سخرية، أما تينا الصغيرة الجميلة فقد جلست مُسنِدةً ظهرَها إلى كرسيّها وعيناها تتحركان من وجه لآخر. قال: أعرف أنكما لم تكونا في البيت، ولكن بإمكانكما تذكيري بما كنتما تفعلانه في تلك الليلة.

ردّ عليه ميكي بلهجة زادت فيها سخريته: هل أنت بحاجة إلى تذكير فعلاً؟ ما زال بإمكاني ترديد أقوالي: كنت في الخارج أفحص إحدى السيارات بسبب مشكلة في التروس. فحصتها فحصاً طويلاً جيداً، وسرت في السيارة من درايموث صعوداً إلى مينشين هيل مع طول طريق مور ثم عدت عن طريق إيبسلي، ولسوء الحظ فالسيارات بكماء لا يمكنها الشهادة.

التفتت تينا برأسها أخيراً. كانت تحدق إلى ميكي مباشرة، وكان وجهها لا يزال خالياً من التعابير.

- وأنت يا آنسة آرغيل؟ إنك تعملين في المكتبة في ريدمن أليس كذلك؟

- نعم، وهي تغلق أبوابها في الساعة الخامسة والنصف. قمتُ بشراء بعض الأغراض في هاي ستريت ثم عدتُ إلى البيت. عندي شقة... شقة صغيرة بالأحرى في مجمعات مور كومب، وقد قمت بطهو عشائي ثم جلست أستمع إلى بعض الموسيقى الهادئة من المسجل.

- ألم تخرجي من شقتك أبداً؟

سكتت قليلاً قبل أن تجيب: نعم؛ لم أخرج.

- هل أنت واثقة من هذا تماماً يا آنسة آرغيل؟

- نعم، واثقة.

- هل لديك سيارة؟

- نعم.

قال ميكي: لديها سيارة «خنفساء» صغيرة ذات قمرة زجاجية.

- نعم، لديّ «خنفساء» صغيرة.

- أين تحتفظين بها؟

- في الشارع، فليس عندي مرآب. يوجد قرب الشقق شارع جانبي تقف السيارات على طوله.

- وهل يوجد عندك... أي شيء قد يساعدنا؟

لم يعرف هوش سبباً لإصراره هذا.

- لا أظن أن عندي ما يمكن قوله لك.

نظر ميكي إليها نظرة سريعة. وتنهد هوش، ثم قال ليو: أخشى ألاّ يكون لقاؤنا هذا قد ساعدك كثيراً يا حضرة الضابط.

- لا يمكنك الجزم يا سيد آرغيل. أظن أنك تدرك واحداً من أغرب الأمور المتعلقة بالأمر؟

- أنا... لست متأكداً من فهمي لك.

- الأموال. الأموال التي سحبتها السيدة آرغيل من البنك، بما

فيها ورقة الخمسة جنيهات التي كُتب على ظهرها «السيدة بوتلبيري، المنزل ١٧ شارع بانجور». كانت القضية تعتمد -في جزء كبير منها- على أن ورقة الخمسة جنيهات هذه وأوراقاً نقدية أخرى قد وُجدت مع جاك عند اعتقاله. وقد أقسم أنه أخذ النقود من السيدة آرغيل، لكن السيدة آرغيل قالت لك وللآنسة فوغان إنها لم تعط جاك أية نقود قطعاً. إذن كيف حصل على تلك الجنيهات الخمسين؟ لا يمكن أن يكون قد عاد إلى هنا، فشهادة الدكتور كالغاري توضح هذه الحقيقة تماماً. ولذلك لا بد أنها كانت معه عندما غادر البيت. من أعطاه إياها؟ أنت؟

كان الضابط قد التفت فجأة إلى كريستي ليندستروم ووجّه إليها السؤال الأخير. احمرّ وجهها استهجاناً وقالت: أنا؟ بالطبع لا. وكيف لي ذلك؟

- أين كانت السيدة آرغيل تحتفظ بالنقود التي سحبتها من البنك؟

قالت كريستي: كانت تضعها في العادة في أحد أدراج مكتبها.

- في دُرج مقفل؟

فكرت كريستي ثم قالت: ربما كان من شأنها أن تقفل الدرج قبل أن تذهب إلى النوم.

نظر هوش إلى هيستر وقال: هل أخذت النقود من الدُرج وأعطيتها لأخيك؟

- لم أكن أعرف أنه كان موجوداً أصلاً. وكيف لي أن آخذها دون علم والدتي؟

- كنت تستطيعين أخذها بسهولة عندما صعدت أمك إلى المكتبة لاستشارة والدك.

تساءل إن كانت ستفهم وتتجنب الفخ، غير أنها وقعت في الفخ مباشرة: لكن جاكو كان قد غادر البيت في ذلك الوقت. لقد...

ثم سكتت مرعوبة، فقال هوش: أرى أنك تعلمين متى غادر أخوك.

أسرعت هيستر تقول بحماسة شديدة: إنني... لقد تذكرت الآن. لم أكن أعرف وقتها. كنت في غرفتي كما قلت لك فلم أسمع أي شيء أبداً. وعلى أية حال ما كنت لأعطي جاكو أية نقود.

قالت كريستي وقد احمرّ وجهها سخطاً: واعلم مني أيضاً... لو كنت أعطيت جاكو النقود فإنها ستكون نقودي الخاصة. ما كنت لأسرقها!

قال هوش: أنا واثق من هذا، لكنك ترين إلى أين يقودنا هذا.

التفت إلى ليو وأضاف قائلاً: لا بد أن تكون السيدة آرغيل هي التي أعطته النقود بنفسها، على الرغم ممّا قالته لك.

- لا أصدق هذا. لماذا لم تقل لي ذلك إن كانت قد فعلته؟

- لن تكون -بذلك- أول أم تتهاون مع ابنها وتتردد في الاعتراف بهذه الحقيقة.

- أنت مخطئ يا هوش. لم تعتد زوجتي المراوغة أبداً.

قالت غويندا فوغان: أظن أنها فعلت ذلك هذه المرة. الحقيقة أنها لا بد فعلت ذلك... وكما يقول الضابط فهي الإجابة الوحيدة.

قال هوش بهدوء: يجب أن ننظر إلى الأمر كله من منظور مختلف الآن. عندما اعتقلنا جاك اعتقدنا أنه كان يكذب، ولكننا عرفنا الآن أنه كان يقول الحقيقة بخصوص ركوبه مع كالغاري في سيارته، ولذلك يُفترَض أنه كان يقول الحقيقة بخصوص النقود أيضاً. لقد قال إن أمه هي التي أعطته إياها، ولذلك يُفترَض أنها فعلت ذلك.

سكت الجميع... سكوت تململ.

نهض هوش وقال: حسناً، أشكركم جميعاً. لقد أصبحت الأدلة ضعيفة بعد مرور هذا الوقت، ولكن أحداً لا يستطيع الجزم.

رافقه ليو إلى الباب، وعندما عاد قال وهو يتنهد: حسناً، لقد انتهى هذا. في الوقت الحاضر.

قالت كريستي: إلى الأبد... لن يعرفوا شيئاً أبداً.

صاحت هيستر: ما فائدة هذا لنا؟

ذهب والدها إليها وقال: اهدئي يا عزيزتي. لا تكوني متوترة هكذا؛ الزمن يعالج كل شيء.

- ولكنه لا يعالج بعض الأشياء. ماذا سنفعل؟ آه! ماذا سنفعل؟

وضعت كريستي يدها على كتف هيستر وقالت: تعالي معي يا هيستر.

قالت: "لا أريد أحداً". ثم هربت خارج الغرفة. وبعد لحظات سمعوا صوت الباب الخارجي يصفق. قالت كريستي: ما هذا كله؟ إن ذلك يضرّها.

قال فيليب متأملاً: وأنا لا أحسبه حقيقياً أيضاً.

سألته غويندا: ما هو غير الحقيقي؟

قال: "من غير الحقيقي أننا لن نعرف الحقيقة أبداً... إنني أشعر بمثل هذا الأمر في داخلي". ثم أشرق وجهه المشاغب بابتسامة غريبة.

قالت تينا: أرجوك يا فيليب، كن حذراً.

نظر إليها مندهشاً وقال: تينا الصغيرة. وماذا تعرفين أنت عن كل هذا الأمر؟

قالت تينا بكل وضوح ودقة: أرجو ألاّ أعرف أي شيء أبداً.

* * *

الفصل الرابع عشر

قال رئيس الشرطة: أظن أنك لم تحصل على أي شيء؟

قال هوش: لم أحصل على شيء محدد يا سيدي. ومع ذلك... لم يضع الوقت سدى.

- لنسمع ما عندك.

- الأزمنة الرئيسية للأحداث والأماكن التي وضعناها هي نفسها. كانت السيدة آرغيل على قيد الحياة قبل الساعة السابعة تماماً، وتحدثت مع زوجها ومع غويندا فوغان، ورأتها هيستر آرغيل بعد ذلك في الطابق الأرضي. لا يمكن أن يتفق ثلاثة أشخاص على التضليل. لقد أصبحت تحركات جاكو آرغيل واضحة، وهذا يعني أنها ربما قُتلت على يد زوجها في أي وقت بين السابعة وخمس دقائق والسابعة والنصف، أو غويندا فوغان في السابعة وخمس دقائق وهي في طريق خروجها من البيت، أو هيستر قبل هذا الوقت بقليل، أو كريستي ليندستروم عندما عادت في وقت لاحق... قبل السابعة والنصف تماماً. شلل فيليب ديورانت يعطيه دليل غياب عن موقع الجريمة لكن دليل غياب زوجته يعتمد على شهادته هو. يمكن أن تكون قد نزلت من غرفتها وقتلت أمها (لو أرادت ذلك) بين السابعة

والسابعة والنصف إذا كان زوجها مستعداً للتستر عليها، مع أنني لا أرى سبباً لذلك. والواقع -حسب اعتقادي- أن لدى اثنين فقط دافعاً حقيقياً لقتلها: ليو آرغيل وغويندا فوغان.

- هل تعتقد أنه واحد منهما... أم الاثنان معاً؟

- لا أظن أنهما مشتركان في الأمر. كما أراها فقد كانت جريمة ارتُكبت بدافع اللحظة وليس عن سابق إصرار وتخطيط. دخلت السيدة آرغيل المكتبة وأخبرتهما عن تهديدات جاكو وطلبه النقود منها، ولنقل إن ليو نزل لاحقاً ليتحدث معها بخصوص جاكو أو أي شيء آخر. البيت هادئ وما من أحد قرب الغرفة، يذهب إلى غرفة جلوسها فيراها جالسة وراء المكتب وظهرها له، وقضيب الموقد ما زال في المكان الذي ألقاه فيه جاكو بعد تهديدها به. الرجال الهادئون المكبوتون ينفجرون أحياناً... وهكذا يضع منديلاً على يده حتى لا يترك بصمات على القضيب ويمسك به ثم يهوي به على رأسها فيقتلها، ثم يسحب درجاً أو اثنين ليوحي بسرقة النقود، ثم يصعد إلى غرفته ثانية إلى أن يعثر عليها شخص آخر. أو لنقل إن غويندا فوغان أطلت على الغرفة وهي خارجة فاجتاحها ذلك الحافز الملحّ لقتلها، وبذلك سيكون جاكو هو كبش الفداء المثالي ثم يكون الطريق ممهداً للزواج من ليو آرغيل.

- نعم، هذا ممكن. كما أنهما حرصا بالطبع على ألاّ يعلنا خطوبتهما بسرعة، ليس قبل أن تتم إدانة ذلك المسكين الصغير جاكو بجريمة القتل. نعم، هذا يبدو معقولاً بما فيه الكفاية. الجرائم تتم بأساليب متقاربة ومتشابهة جداً: الزوج وطرف ثالث أو الزوجة وطرف ثالث... دائماً نفس النمط القديم. ولكن ما الذي نستطيع نحن عمله

بهذا الخصوص يا هوش؟ ما الذي يمكننا عمله بهذا الخصوص؟

ردّ عليه هوش ببطء: لا أرى شيئاً يمكننا عمله يا سيدي. قد نصل إلى قناعة... ولكن أين الدليل؟ لا شيء لدينا يدعمنا في المحكمة.

- نعم، نعم. ولكن هل أنت مقتنع يا هوش؟ هل أنت مقتنع في قرارة نفسك؟

قال هوش بحزن: ليست القناعة التي أتمناها.

- آه، ولم لا؟

- بسبب طبيعة هذا الرجل... أقصد السيد آرغيل.

- أليس من النوع الذي يمكن أن يقتل؟

- ليس هذا بالضبط... لا أقصد الجانب المتعلق بالجريمة نفسها وإنما المتعلق بالولد. لا أظن أنه يمكن أن يتعمد إلباس التهمة لولده.

- لكنه ليس ابنه الحقيقي. قد لا يكون مهتماً كثيراً بالولد... بل ربما كان مستاءً من العاطفة التي تبديها زوجته للولد.

- قد يكون هذا صحيحاً. ومع ذلك يبدو أنه كان يحب جميع الأطفال، يبدو أنه يحبهم.

- كان يعلم بالطبع أن الولد لن يشنق... وهذا قد يشكّل فارقاً.

- آه، قد تكون على حق في هذا يا سيدي. ربما اعتقد بأن عشر

سنوات في السجن (وهي أقصر مدة فعلية يصلها الحكم بالمؤبد) لن تضر الولد.

- وماذا عن الفتاة.. غويندا فوغان؟

- لو كانت هي التي قتلتها فلا أظن أن ضميرها سيؤنبها إذا ما تورط جاكو فيها؛ فالنساء قاسيات.

- على أية حال، هل أنت مقتنع إلى حد ما بأن القاتل واحد منهما؟

- مقتنع إلى حد ما، نعم.

- ولكن ليس أكثر من ذلك؟

- لا. هناك شيء ما يجري، أشياء تحت السطح... إذا صح التعبير.

- أوضِح ما تقول يا هوش.

- إن ما أريد أن أعرفه هو رأي أفراد الأسرة ببعضهم البعض.

- آه، فهمت، فهمتك الآن. إنك تتساءل إن كانوا يعرفون من هو القاتل؟

- نعم. إنني أستطيع أن أجزم رأياً بهذا الخصوص. هل كلهم يعرفون؟ وهل كلهم مقتنعون على إبقاء الأمر سراً؟ لا أظن ذلك. أحسب أنه من الممكن أن تكون لهم أفكار مختلفة. هناك المرأة السويدية... إنها كتلة أعصاب شديدة التحفز والتوتر. قد يكون هذا لأنها هي نفسها التي قتلتها. لقد وصلت إلى السن الذي تصاب فيه النساء بشيء من الخبل بطريقة أو بأخرى، وقد تكون خائفة على

نفسها أو على شخص آخر. ولديّ انطباع بأنها خائفة على شخص آخر، ولكن قد أكون مخطئاً.

- على ليو مثلاً؟

- لا، لا أظن أنها قلقة على ليو. أظن أنها قلقة على الصغيرة... هيستر.

- هيستر، همممم... هل من فرصة في أن تكون هيستر هي القاتلة؟

- لا يوجد دافع ظاهري، لكنها من النوع العاطفي المتحمس وربما غير المتزن بعض الشيء.

- وقد تكون ليندستروم تعرف عن الفتاة الصغيرة السمراء التي تعمل في مكتبة المقاطعة.

- إنها لم تكن في البيت في تلك الليلة، أليس كذلك؟

- نعم، لكني أظن أنها تعرف شيئاً. ربما كانت تعرف من هو الفاعل.

- تخمّن؟ أم تعرف؟

قال هوش: إنها قلقة. لا أظن أنه مجرد تخمين فقط.

ثم أكمل قائلاً: وهناك الولد الآخر، ميكي. لم يكن هناك هو الآخر لكنه كان خارج البيت في سيارة ولا أحد معه. إنه يقول بأنه كان يفحص السيارة في طريق مينشين هيل و مور وليس لدينا أي دليل على ذلك سوى أقواله هو. ربما جاء بسيارته ودخل البيت وقتلها ثم انطلق

من جديد. لقد قالت غويندا فوغان شيئاً لم يكن في أقوالها الأصلية. قالت إن سيارة عبرت من جانبها عند المدخل المؤدي إلى الطريق الداخلي. يوجد أربعة عشر بيتاً على هذا الطريق، وربما كانت السيارة ذاهبة إلى واحد منها، ولن يتذكر أحد عنها شيئاً بعد سنتين... ولكن ذلك يعني احتمالاً بأن تكون السيارة هي سيارة ميكي.

- ولماذا يريد قتل أمه بالتبني؟

- لا سبب نعرفه... ولكن قد يوجد سبب.

- من يمكن أن يعرف؟

- ربما جميعهم يعرفون، لكنهم لا يريدون إخبارنا. أقصد كان لهم الخيار في ذلك.

قال الرائد فيني: إنني أدرك نيتك الشيطانية. على من تريد أن تركّز؟

- ليندستروم على ما أظن، لو استطعت كسر دفاعاتها. كما آمل أن أعرف إن كانت تحمل ضغينة ما على السيدة آرغيل. وهناك الرجل المشلول... فيليب ديورانت.

- ماذا عنه؟

- أظن أنه بدأ يكوّن بعض الأفكار حول كل ما حدث. لا أظن أنه يريد إطلاعي على أفكاره هذه، لكني قد أستطيع معرفة الطريقة التي يفكر فيها. إنه رجل ذكي وأظن أنه مراقِب جيد. ربما يكون قد لاحظ بعض الأشياء الملفتة للنظر.

* * *

- هيا نخرج يا تينا لنستنشق بعض الهواء.

- هواء؟

نظرت تينا إلى ميكي بارتياب ثم أضافت تقول: "لكن الجو بارد يا ميكي". ثم ارتعشت قليلاً.

- أظن أنك لا تحبين الهواء العليل يا تينا، وهذا ما يجعلك قادرة على تحمل الحبس في تلك المكتبة طول النهار.

ابتسمت تينا وقالت: لا يهم الحبس في الشتاء. الجو لطيف ودافئ داخل المكتبة.

نظر ميكي إليها بإمعان وقال: وها أنت جالسة متكوّرة كالهرة الصغيرة أمام النار. ولكن الخروج سيفيدك، هيّا يا تينا. أريد الحديث معك. أريد أن... آه، أن أتنفس بعض الهواء وأنسى كل شيء عن موضوع الشرطة هذا.

نهضت تينا عن كرسيها بحركة متكاسلة ذات بهاء تشبه فعلاً الهرة التي أشار إليها ميكي، وفي القاعة ارتدت معطفاً من الفراء ثم خرجا معاً.

- ألا تريد أن ترتدي معطفاً يا ميكي؟

- لا أريد، إنني لا أشعر بالبرد أبداً.

- بررررر.. أكره هذا البلد في الشتاء وأتمنى السفر إلى الخارج. أريد أن أذهب إلى مكان تشرق فيه الشمس دائماً ويكون الهواء فيه ندياً دافئاً عليلاً.

قال ميكي: لقد عُرضت عليّ وظيفة في الخليج العربي مع إحدى شركات النفط، والوظيفة هي المسؤولية عن النقليات.

- وهل ستذهب؟

- لا، لا أظن ذلك... ما هي الفائدة؟

سارا باتجاه مؤخرة المنزل ثم دخلا في ممر ملتوٍ بين الأشجار يوصل في النهاية إلى شاطئ النهر أسفل البيت. وفي منتصف الطريق كان يوجد بيت صيفي صغير معزول عن الريح. لم يجلسا على الفور، لكنهما وقفا أمامه يحدقان إلى النهر. قال ميكي: المكان جميل هنا، أليس كذلك؟

نظرت تينا إلى المنظر بعينين فيهما فضول وقالت: بلى، بلى، ربما هذا صحيح.

قال ميكي وهو ينظر إليها نظرات حب وود: لكنك لا تعرفين في الحقيقة؟ إنك لا تميزين الجمال يا تينا ولم تميزيه أبداً.

- لا أذكر خلال السنوات التي عشناها هنا أنك استمتعت بجمال هذا المكان. كنت دائماً مضطرباً وتشتاق للعودة إلى لندن.

ردّ ميكي باختصار: كان ذلك أمراً مختلفاً، فأنا لا أنتمي إلى هذا المكان.

- أليست هذه هي المشكلة؟ إنك لا تنتمي إلى أي مكان.

قال ميكي ذاهلاً: لا أنتمي إلى أي مكان؟ قد يكون هذا صحيحاً. يا إلهي! إنها فكرة مخيفة يا تينا. هل تذكرين تلك الأغنية القديمة؟

أظن أن كريستي كانت تغنيها لنا باستمرار؛ أغنية عن الحمامة: أيتها الحمامة الجميلة الحبيبة، أيتها الحمامة ذات الصدر الأبيض الأبيض. هل تذكرينها؟

هزّت تينا رأسها بالنفي وقالت: ربما كانت تغنيها لك... لا، لا أذكرها.

أكمل ميكي يدندن: آه يا خادمتي الغالية العزيزة، لست هنا. ليس لي مكان ولا دور، لا عيش لي لا قرب البحر ولا قرب الشاطئ، وإنما في قلبك فقط.

نظر إلى تينا وقال: أظن أن هذا قد يكون صحيحاً.

وضعت تينا يدها الصغيرة على ذراعه وقالت: تعال يا ميكي نجلس هنا. إنه بعيد عن الريح، الجو هنا ليس بارداً جداً.

وبعد أن أطاعها وجلس أكملت تقول: هل يجب أن تظل حزيناً دائماً؟

- يا عزيزتي! إنك لم تبدئي بعد فهم أوليّات الأمر.

- إنني أفهم الكثير. لماذا لا تنسى أمرها يا ميكي؟

- أنسى أمرها؟ عمّن تتحدثين؟

- عن أمك.

قال ميكي بمرارة: أنسى أمرها! وهل توجد فرصة للنسيان بعد الذي حدث صباح اليوم... بعد الأسئلة؟ إذا ما قُتلت امرأة ما فإنهم لا يتركونك تنسين أمرها!

- لم أقصد ذلك، بل قصدت أمك الحقيقية.

- ولماذا أفكر بها؟ إنني لم أرها أبداً منذ أن كنت في السادسة من عمري.

- لكنك فكرت بها فعلاً يا ميكي... طوال الوقت.

- هل قلت لك ذلك قط؟

- أحياناً يعرف الإنسان مثل هذه الأمور.

التفت ميكي ونظر إليها ثم قال: يا لك من مخلوقة رقيقة هادئة يا تينا! كقطة صغيرة سوداء... قطة جميلة صغيرة!

قال ذلك وهو يمسِّد الفراء على كُمّ معطفها، فابتسمت تينا له وهي تجلس هادئة بلا حركة. قال ميكي: هل كنت تكرهينها يا تينا؟ كلنا كنّا نكرهها ما عداك.

- إنه عمل غير طيب.

ثم هزّت رأسها وأكملت تقول بحماسة: انظر إلى ما أعطتكم جميعاً. البيت والدفء والعطف والطعام الجيد واللعب والناس الذين يعتنون بكم ويحفظونكم...

قال ميكي بنفاد صبر: نعم، نعم. الطعام والثياب. هل هذا كل ما تريدينه أيتها القطة الصغيرة؟

- كنت ممتنة لذلك، ولكن أحداً منكم لم يكن ممتناً.

- ألا تفهمين يا تينا بأن المرء لا يستطيع الشعور بالامتنان

مكرهاً؟ أحياناً يزيد الشعور بإلزامية العرفان الأمور سوءاً. لم أكن أريد المجيء إلى هنا... لم أكن أريد أن يمنحني أحد بيئة مرفهة... لم أكن أريد أن ينتزعني أحد من بيتي.

- ربما تعرّض بيتك لقصف الطائرات، وربما كنت ستُقتَل.

- ماذا كان يهم؟ ما كنت سأهتم لو قتلت. كنت سأقتل في بيتي ومن حولي أهلي حيث أنتمي. لقد عدنا للحديث في هذا الموضوع من جديد. لا شيء أسوأ من الشعور بعدم الانتماء. لكنك أنت -أيتها القطة الصغيرة- لا تهتمين إلاّ بالأشياء المادية.

- قد يكون هذا صحيحاً إلى حد ما، وقد يكون هذا سبب عدم إحساسي بما تشعرون به جميعاً. إنني لا أشعر بذلك الإحساس الغريب بالسخط الذي يبدو أنكم تحسونه جميعاً... وأنت أكثرهم يا ميكي. كان من السهل عليّ أن أكون ممتنة لأنني كنت أرفض واقعي. لم أكن أريد أن أكون حيث كنت، بل كنت أريد الهروب من نفسي. كنت أريد أن أكون شخصاً آخر، وقد جعلتني شخصاً آخر. حولتني إلى كريستينا آرغيل مع بيت ومع عطف وأمن وأمان. لقد أحببت أمي لأنها أعطتني كل هذه الأشياء.

- وماذا عن أمك الحقيقية؟ ألا تفكرين بها أبداً؟

- ولماذا أفكر بها؟ إنني لا أكاد أذكرها. كنت في الثالثة من عمري فقط عندما جئت إلى هنا. كنت أشعر بالخوف والرعب وأنا معها. كل تلك المشاجرات المزعجة مع البحارة... وهي نفسها... أظن أنني كبرت الآن بما فيه الكفاية حتى أتذكر جيداً... لا بد أنها كانت مخمورة معظم الوقت.

ثم أضافت بصوت محايد فيه بعض العجب: لا، إنني لا أفكر بها أو أتذكرها. السيدة آرغيل كانت أمي، وهذا هو بيتي.

- هذا سهل عليك جداً يا تينا.

- ولماذا يكون صعباً عليك؟ لأنك جعلته هكذا! أنت لم تكن تكره السيدة آرغيل يا ميكي وإنما كنت تكره أمك الحقيقية. نعم، أعرف أن ما أقوله هو الصحيح. وإن كنت قد قتلتَ السيدة آرغيل (وهو أمر ربما تكون قد فعلته) فإنك كنت تريد بذلك قتل أمك الحقيقية.

- تينا! بربك ما هذا الذي تتحدثين عنه؟

أكملت تينا تتحدث بهدوء: والآن لم يعد لديك مَن تكرهه. وهذا ما يجعلك تحس بالوحدة والعزلة، أليس كذلك؟ ولكن يجب أن تتعلم العيش دون كراهية يا ميكي. قد يكون ذلك صعباً ولكنه ممكن.

- لا أعرف الذي تتحدثين عنه. ماذا تعنين بقولك إنني ربما قتلتها؟ أنت تعرفين جيداً أنني لم أكن في منطقة قريبة من البيت ذلك اليوم. كنت أفحص سيارة أحد الزبائن على طريق مور القريبة من مينشين هيل.

قالت: "حقاً؟"، ثم نهضت وتقدمت إلى الأمام إلى أن وصلت إلى منطقة مشرفة على النهر أسفل منها. جاء ميكي من ورائها وقال: ما الذي ترمين إليه يا تينا؟

أشارت تينا إلى الشاطئ أسفل منها وقالت: مَن هذان الشخصان هناك؟

نظر ميكي بسرعة وقال: إنها هيستر وصديقها الطبيب على ما أظن. ولكن ما الذي قصدتِهِ يا تينا؟ أرجوك لا تقفي عند نهاية الحافة هناك.

- لماذا... هل تريد دفعي من أعلى؟ تستطيع ذلك، إنني صغيرة جداً.

قال ميكي بصوت أجش: لماذا تقولين بأنني ربما كنت موجوداً هنا تلك الليلة؟

لم تجبه بشيء، بل التفتت وبدأت تسير عائدة إلى الطريق المؤدي إلى البيت.

- تينا!

قالت تينا بصوتها الهادئ الناعم: إنني أشعر بالقلق يا ميكي، إنني قلقة جداً على هيستر ودون كريغ.

- لا تهتمي بهيستر ولا بصديقها.

- لكنني أهتم فعلاً؛ أخشى أن تكون هيستر تعيسة جداً.

- إننا لا نتحدث عنهما.

- أنا أتحدث عنهما؛ إنني أهتم لهما.

- هل كنت تظنين يا تينا من البداية بأنني كنت هنا في الليلة التي قتلت فيها أمنا؟

لم تردّ عليه تينا.

- أنت لم تقولي أي شيء في ذلك الوقت.

- ولماذا أقول؟ لم تكن بي حاجة لقول ذلك. أقصد أنه كان واضحاً تماماً أن جاكو هو الذي قتلها.

- والآن أصبح واضحاً جداً أن جاكو لم يقتلها.

أومأت تينا ثانية، فسألتها ميكي: وماذا إذن؟ ماذا إذن؟

لم تجبه وإنما واصلت السير عائدة إلى البيت.

* * *

على الشاطئ الصغير القريب من البيت كانت هيستر تجر قدميها على الرمال. قالت: لا أرى وجود شيء أتحدث عنه.

أجابها دون كريغ: لا أفهم لماذا. إن الحديث عن أي شيء يجعله أفضل... يمكنك -على الأقل- إخباري بما حدث هذا الصباح.

- لا شيء.

- ماذا تقصدين بلا شيء؟ لقد جاء الشرطي إليكم، أليس كذلك؟

- آه، بلى، لقد جاء.

- حسناً، وهل استجوبكم جميعاً؟

- نعم، استجوبنا.

- وما هي طبيعة الأسئلة؟

- كل الأسئلة المعتادة. الواقع أنها نفسها التي سألونا إياها من

قبل: أين كنّا وماذا فعلنا ومتى رأينا أمنا على قيد الحياة آخر مرة... لا أريد أن أتحدث مرة أخرى يا دون؛ لقد انتهى كل شيء الآن.

- لكنه لم ينتهِ يا عزيزتي... هذه هي النقطة الهامة.

- لا أفهم ما الذي يدفعك أنت إلى القلق. إنك غير متورط في هذا الأمر.

- أريد مساعدتك يا عزيزتي. ألا تفهمين؟

- إن الحديث في الأمر لا يساعدني؛ أريد أن أنسى. إلاّ إذا كنت ستساعدني على النسيان فسيكون الأمر مختلفاً.

- هيستر، إن الهروب من الأمور لا يفيد. لا بد أن تواجهيها.

- كنت أواجهها -على حد تعبيرك- طول الصباح.

- هيستر، إنني أحبك. تعرفين هذا، أليس كذلك؟

- أظن ذلك.

- ماذا تقصدين بقولك هذا؟

- لأنك تواصل الحديث عن الموضوع.

- لكني مضطر إلى ذلك.

- لا أفهم السبب؛ فأنت لست شرطياً.

- من كان آخر شخص يرى أمك على قيد الحياة؟

- أنا.

- أعرف. كان ذلك قبل السابعة تماماً، قبل أن تخرجي لرؤيتي.

- قبل أن أخرج لكي أذهب إلى درايموث... إلى المسرح.

- حسناً، كنت أنتظرك في المسرح، أليس كذلك؟

- بلى؛ كنت هناك بالطبع.

- إذن فقد كنت تعرفين أنني أحبك يا هيستر؟

- لم أكن متأكدة، بل إنني لم أكن واثقة عندها من أنني بدأت أحبك.

- لم يكن لديك سبب، أي سبب، لقتل أمك. أليس كذلك؟

- نعم؛ لم يكن لديّ سبب لذلك حقاً.

- ماذا تعنين بقولك حقاً؟

أجابت هيستر بصوت موضوعي هادئ: كنت كثيراً ما أفكر بقتلها. كنت أقول في نفسي دائماً: "أتمنى لو أنها تموت، ليتها تموت". وكنت أحلم أحياناً بأنني قتلتها.

- كيف كنت تقتلينها في الحلم؟

لم يعد دون كريغ يتحدث معها كصديق محب، بل كطبيب شاب مهتم.

قالت ضاحكة: أحياناً كنت أقتلها بمسدس وأحياناً أضربها على رأسها.

همهم الدكتور كريغ فيما مضت هيستر قائلة: كان ذلك مجرد حلم، وغالباً ما أكون عنيفة جداً في أحلامي.

- اسمعي يا هيستر.

أمسك الشاب بيدها وأضاف: يجب أن تخبريني الحقيقة، يجب أن تثقي بي.

- لا أفهم ما تقصده.

- الحقيقة يا هيستر، أريد الحقيقة. إنني أحبك وسوف أقف بجانبك. إن... إن كنت قتلتها فإنني أظن... أظن أنني أستطيع معرفة الدوافع والأسباب. لا أظن أن الخطأ كان خطأك. هل تفهمين؟ ولن أبلغ الشرطة عن هذا بالتأكيد. سيكون الأمر بيننا نحن الاثنين فقط. لن يعاني أي شخص آخر، وسينتهي كل شيء بسبب عدم وجود دليل. ولكن يجب أن أعرف.

شدد على الكلمة الأخيرة بقوة. وكانت هيستر تنظر إليه، كانت تنظر بعينين واسعتين دون تركيز. وأخيراً قالت: ما الذي تريد مني قوله لك؟

- أريدك أن تخبريني بالحقيقة.

- أنت تظن أنك تعرف الحقيقة، أليس كذلك؟ إنك تعتقد... أنني قتلتها.

- يا هيستر، يا عزيزتي! لا تنظري إليّ هكذا.

أمسك كتفيها ثم هزها برفق وقال: إنني طبيب، وأعرف الأسباب التي تقف وراء هذه الأشياء. أعرف أن المرء لا يكون مسؤولاً دائماً عن أفعاله. إنني أعرفك على حقيقتك... فتاة محبوبة ورائعة وممتازة من حيث الجوهر. سوف أساعدك، سوف أعتني بك، سنتزوج

ونعيش سعيدين؛ لن تشعري بعدها بالضياع أو الرفض أو الاستبداد. إن ما نفعله غالباً ما ينتج عن أسباب لا يفهمها معظم الناس.

- هذا يشبه كثيراً ما قلناه جميعنا عن جاكو، أليس كذلك؟

- لا عليك من جاكو. إنني لا أفكر إلاّ فيك أنت؛ أحبك كثيراً يا هيستر ولكن يجب أن أعرف الحقيقة.

- الحقيقة؟

ارتسمت على شفتيها ابتسامة ساخرة بطيئة.

- أرجوك يا حبيبتي!

التفتت هيستر برأسها وهي ترفع بصرها: ها هي غويندا فوغان تنادينا. لا بد أن موعد الغداء قد حان.

- هيستر!

- هل ستصدقني إن قلت لك إنني لم أقتلها؟

- بالطبع... سوف أصدقك.

قالت: "لا أظن ذلك". ثم ابتعدت عنه بسرعة وبدأت تجري باتجاه الطريق المؤدي إلى البيت. أراد أن يتبعها ولكنه تخلى عن ذلك. قال: آه، تباً! تباً!

* * *

الفصل الخامس عشر

قال فيليب ديورانت غاضباً: لكني لا أريد الذهاب إلى البيت الآن.

- ولكن يا فيليب، لا يوجد سبب يدعونا إلى البقاء هنا أطول من ذلك. أقصد أننا جئنا لرؤية السيد مارشال لمناقشة الأمر معه ثم انتظار استجواب الشرطة، أما الآن فلا شيء يمنعنا من العودة إلى بيتنا.

- أعتقد أن والدك سيكون سعيداً لو بقينا هنا بعض الوقت. إنه يحب أن يلعب معه أحد الشطرنج في الليل. إنه بارع في لعب الشطرنج، وكنت أظن أنني لاعب ذكي لكنني لم أستطع التغلب عليه.

ردّت عليه ماري باختصار: يستطيع والدي العثور على شخص آخر ليلعب معه الشطرنج.

- ماذا؟ هل عساه يدعو واحدة من الجمعية النسائية؟

- يجب أن نعود إلى بيتنا على أية حال. غداً ستأتي السيدة كاردن لتنظيف النحاسيات.

قال فيليب ضاحكاً: بولي، ربة البيت المثالية! على أية حال فإن هذه المرأة يمكنها تنظيف النحاسيات دون وجودك، وإذا لم تستطع أرسلي لها برقية وأخبريها بأن تترك الأواني هذه تتسخ أسبوعاً آخر.

- أنت لا تعرف يا فيليب عن أمور البيت شيئاً ولا تدرك صعوبة هذا العمل.

- لا أرى أن في هذا العمل أية صعوبة إلاّ إن كنت تريدين جعله صعباً. على أية حال أريد البقاء.

ردّت عليه ماري بسخط: آه، فيليب! إنني أكره هذا المكان.

- لماذا؟

- إنه كئيب جداً، بائس جداً... إضافة إلى كل ما حدث فيه، جريمة القتل وغيرها.

- هيا يا بولي، لا تحاولي إقناعي بأنك أصبحت كتلة أعصاب بسبب مثل هذه الأشياء. أنا متأكد من أنك تتحملين فكرة القتل دون أن تقف شعرة في رأسك. لا، أنت تريدين العودة إلى البيت لتشرفي على تنظيف النحاسيات ونفض الغبار عن الأثاث ولتتأكدي من أن العثة لم تخرق معطف فرائك...

- العثة لا تقرب معاطف الفراء في الشتاء.

- أنت تعرفين ما أعنيه يا بولي؛ الفكرة العامة... ولكن من وجهة نظري فإن هذا المكان أكثر إثارة.

بدت ماري وكأن عبارته صدمتها وجرحت مشاعرها، فقالت: أكثر إثارة من وجودك في بيتك؟

نظر فيليب إليها بسرعة وقال: أنا آسف يا حبيبتي؛ فأنا لم أُحسن التعبير. لا شيء أجمل من بيتنا، ولقد جعلتِهِ بيتاً رائعاً ومريحاً وجذاباً، ولكنك تدركين أن الأمر كله سيختلف تماماً لو... لو كنت كعهدي سابقاً. أعني أنني كنت سأشغل نفسي بالكثير من الأشياء طول النهار، وكانت العودة إليك وإلى بيتنا ستكون ذات طعم ومعنى، إذ نتحدث عن كل ما نلاقيه في النهار... لكن الوضع مختلف الآن.

- آه، أعرف أنه مختلف من هذه الناحية. لا تظن أنني نسيت ذلك أبداً يا فيل. إنني أهتم كثيراً.

ردّ عليها فيليب وكلامه يكاد يخرج من بين أسنانه: نعم، نعم؛ إنك تهتمين كثيراً يا ماري. إنك تهتمين لحالي إلى درجة تجعلني أقلق أكثر. إن كل ما أريد هو أن أسلو وأنسى وضعي، ولكن... رفع يده وقال: لا تقولي لي إنني أستطيع نسيان وضعي عن طريق حل الألغاز وتمارين العلاج الطبيعي واستقبال الناس وإعطائي العلاج وقراءة الكتب التي لا تنتهي. إنني بحاجة شديدة إلى تكريس نفسي لشيء ما! وهنا، في هذا البيت، يوجد ما يمكن للمرء أن يكرس نفسه له.

حبست ماري أنفاسها وقالت: فيليب، أما زلت تصر على... على فكرتك تلك؟

- لعبة اصطياد القاتل؟ من الذي ارتكب جريمة القتل؟ نعم يا بولي، كلامك صحيح. أريد يائساً أن أعرف من فعلها؟

- لماذا؟ وكيف ستعرف؟ لو أن أحداً دخل البيت أو وجد الباب مفتوحاً...

سألها فيليب: ما زلت تعزفين معزوفة القاتل الغريب؟ إنها نظرية لن يتم تصديقها. لقد حاول المحامي مارشال أن يهوّن الأمر، ولكنه -في الواقع- أراد أن يحفظ لنا ماء وجوهنا فقط. لا أحد يصدق تلك النظرية الجميلة. إنها ليست صحيحة.

قاطعته ماري: إذن إن كانت غير صحيحة... إن كانت غير صحيحة، وإن كان الفاعل واحداً منّا، فلا أريد أن أعرف. ولماذا يجب أن نعرف؟ أليس من الأفضل لنا ألف مرة ألاّ نعرف؟

رفع فيليب عينيه إليها متسائلاً: هل تريدين أن تدفني رأسك في الرمل كالنعامة يا بولي؟ أليس لديك أي فضول غريزي لمعرفة الفاعل؟

- قلت لك إنني لا أريد أن أعرف! أحسبه أمراً مخيفاً كله، وأريد أن أنساه ولا أفكر فيه.

- أليس لديك من الاهتمام بأمك ما يدفعك للرغبة في معرفة قاتلها؟

- وما فائدة أن أعرف قاتلها؟ كنّا مقتنعين لسنتين خلتا بأن جاكو هو الذي قتلها.

- نعم، كان اقتناعنا جميعاً بذلك أمراً رائعاً.

نظرت زوجته إليه بارتياب وقالت: إنني... إنني لا أعرف ما تعنيه حقيقة يا فيليب.

- ألا يمكنك أن تفهمي يا بولي أن هذا الأمر يشكل تحدياً لي نوعاً ما، تحدياً لذكائي؟ لا أعني أنني كنت شديد التأثر لوفاة أمك أو أنني كنت أحبها كثيراً. لم أكن أحبها؛ فلقد بذلت جهدها لتمنعك من الزواج بي، ولكني لا أحمل لها ضغينة بسبب ذلك لأنني نجحت بالفوز بك. أليس كذلك يا فتاتي؟ لا، إنها ليست رغبة في الانتقام ولا حتى رغبة في تحقيق العدالة. أظن أن ما يدفعني للمعرفة هو الفضول بشكل رئيسي، رغم وجود حافز خيّر في دوافعي يتجاوز مجرد الفضول.

- إنه أمر لا ينبغي لك أن تتدخل فيه. لا فائدة يمكن أن تأتي من تدخلك هذا. آه، أرجوك يا فيليب لا تتدخل، أرجوك! لنعُدْ إلى البيت وننسَ كل شيء.

- يمكنك جرّي في العربة إلى أي مكان تريدينه، أليس كذلك؟ لكني أريد البقاء هنا. ألا تريدين مني أحياناً أن أفعل ما أريد؟

- أريدك أن تحصل على كل ما تريد في هذه الدنيا.

- الحق أنك لا تريدين ذلك يا حبيبتي. إنك لا تريدين إلاّ العناية بي كالطفل الرضيع ومعرفة أفضل ما يناسبني كل يوم وبكل طريقة ممكنة.

ثم ضحك فقالت ماري وهي تنظر إليه بارتياب: لا أعرف متى تكون جاداً ومتى تكون هازلاً.

- بعيداً عن مسألة الفضول، ينبغي لأحدٍ ما أن يكشف الحقيقة.

- لماذا؟ ما هي الفائدة من ذلك؟ من إرسال شخص آخر إلى السجن. إنني أظنها فكرة مفزعة.

- إنك لا تفهمين تماماً. أنا لم أقل بأنني إذا ما اكتشفت الفاعل فسوف أبلّغ عنه الشرطة. لا أظن أنني سأفعل هذا. هذا يعتمد على الظروف بالطبع، فقد لا يكون من المفيد الإبلاغ عنه لأنني ما زلت أعتقد بأنه لا يمكن العثور على دليل حقيقي.

- إذن، إن كنت لن تجد أي دليل حقيقي فكيف ستكتشف الفاعل؟

- لأنه توجد كثير من الطرق التي يمكن بها اكتشاف الأشياء ومعرفتها بالتأكيد. إن الأمور لا تسير بشكل جيد في هذا البيت، وسوف تسوء أكثر في القريب العاجل.

- ماذا تعني؟

- ألم تلاحظي أي شيء يا بولي؟ ماذا بخصوص والدك وغويندا فوغان؟

- ماذا عنهما؟ ألأن والدي يريد الزواج من جديد في مثل هذا السن؟

- أستطيع فهم هذا؛ فقد ظُلم بعض الشيء في زواجه، وقد سنحت له الآن الفرصة ليعيش حياة سعيدة حقيقية. صحيح أنها سعادة خريف العمر، ولكنها سعادة سانحة له. أو بالأحرى كانت سانحة له... إن الأمور بينهما لا تسير بشكل جيد.

- أظن أن هذا الأمر كله...

- بالضبط؛ هذا الأمر كله. إنه يباعد بينهما شيئاً فشيئاً كل يوم. وقد يكون لهذا سببان: الشك أو الذنب.

- الشك بمن؟

- لنقل إنه شك كل منهما بالآخر، أو شك من أحدهما وشعور بالذنب من الآخر، أو العكس... أو كما تشائين أنت.

- لا تقل هذا يا فيليب، إنك تشوش أفكاري.

ظهر عليها فجأة بعض النشاط والحيوية وأضافت: إذن فأنت ترى أنها غويندا؟ قد تكون على حق. آه، ستكون نعمة عظيمة لو كانت غويندا هي القاتلة.

- يا للفتاة المسكينة! ألأنها من خارج العائلة؟

- نعم؛ أقصد أن المجرم لن يكون واحداً منا عندئذ.

- أهذا كل ما تشعرين به؟ كيفية تأثير ذلك علينا نحن؟

- بالطبع.

ردّ فيليب غاضباً: بالطبع، بالطبع. إن مشكلتك هي أنك تفتقرين إلى الخيال يا بولي. لا تستطيعين وضع نفسك محل أي شخص آخر.

- ولماذا أفعل؟

- نعم، لماذا تفعلين؟ أظن أنني لو كنت صادقاً لقلت: "من أجل قضاء الوقت". لكني أستطيع وضع نفسي في مكان والدك أو مكان غويندا، فإن كانا بريئين فيا لعذابهما! يا لمصيبة غويندا إذا ما

أصبحتْ تُعامَل فجأة بجفاء وحذر وإذا ما عرفت في قلبها أنها لن تقدر على الزواج بالرجل الذي أحبت. ثم ضعي نفسك مكان والدك. إنه يعرف -ولا يمكنه أن يتجاهل- أن المرأة التي يحبها كانت لديها فرصة لارتكاب الجريمة وكان لديها دافع أيضاً. إنه يأمل ألاّ تكون قد فعلت ذلك، وهو يظن أنها لم تفعلها، ولكنه غير متأكد. والأدهى من ذلك أنه لن يتأكد أبداً.

بدأت ماري تقول: في مثل سنّه...

قاطعها فيليب نافد الصبر: آه، في مثل سنّه، في مثل سنّه... ألا تدركين أن الأمر أسوأ لرجل في هذا العمر؟ إنه آخر حب في حياته، فمن غير المحتمل أن يجد حباً آخر. إنه حب يمضي عميقاً في النفس. ثم انظري إلى الأمر من زاوية أخرى. افترضي أن ليو أفاق على نفسه وخرج من عالمه المنعزل الذي استطاع العيش فيه لزمن طويل. افترضي أنه هو الذي قتل زوجته؟ يكاد المرء يشعر بالأسف عليه، أليس كذلك؟ إن هذا لا يعني أنني أستطيع أن أتصور (ولو لحظة واحدة) أنه قد يفعل مثل هذا العمل. لكني لا أشك في أن الشرطة يأخذون مثل هذا التصور بعين الاعتبار. والآن لنسمع وجهة نظرك يا بولي: من برأيك قتلها؟

- وكيف لي أن أعرف؟

- ربما لا يمكنك أن تعرفي، ولكن قد تكون لديك فكرة ممتازة... لو فكرت.

- قلت لك بأنني أرفض تماماً التفكير في هذا الأمر.

- لا أدري لماذا... هل هو مجرد كراهية؟ أم لأنك ربما تعرفين

الفاعل فعلاً؟ ربما تكونين واثقة تماماً في عقلك البارد الهادئ... واثقة إلى الحد الذي لا تريدين معه التفكير في الأمر، وإلى الحد الذي لا تريدين معه أن تخبريني؟ هل هي هيستر التي تفكرين بها؟

- ولماذا تريد هيستر قتل أمي؟

قال فيليب متأملاً: لا يوجد سبب حقيقي، أليس كذلك؟ ولكنك تعلمين أن المرء يقرأ فعلاً عن مثل هذه الأمور. ولد يرعاه والداه رعاية حسنة ويسبغان عليه من كل شيء ثم ذات يوم يحدث شيء سخيف. يرفض أحد والديه اللذين يحبانه دفع نقود له لحضور فِلم سينما أو لشراء حذاء جديد، أو يحدد له وقتاً لعودته للبيت عليه أن لا يتعداه... قد لا يكون شيئاً مهماً لكنه قد يشعل شرارة شيء موجود من قبل، وفجأة يثور المراهق فيلجأ إلى مطرقة أو فأس (أو ربما قضيب موقد...) ويحدث ما يحدث. إنه أمر يصعب تفسيره دائماً، ولكنه يحدث. إنه ذروة سلسلة طويلة من الثورة المكبوتة. وهذا نمط من شأنه أن يناسب هيستر؛ إن مشكلة المرء مع هيستر أنه لا يدري ما الذي يدور داخل ذلك الرأس الجميل. إنها ضعيفة بالطبع، وهي تكره أن تكون ضعيفة، كما أن أمك من النوع الذي كان يشعرها بضعفها.

مال فيليب إلى الأمام وأضاف متحمساً: نعم، أظن أن بوسعي صياغة قضية متكاملة ضد هيستر.

صاحت ماري: هلاّ توقفت عن الحديث في الأمر؟

- سأسكت عن الحديث، فالحديث لن يوصلني إلى شيء. أم أنه يوصلني؟ على المرء -في النهاية- أن يقرر في نفسه ما هو النمط

المحتمل للجريمة التي حدثت، ثم يطبق ذلك النمط على كل شخص معني. وبعد ذلك، عندما يستطيع المرء أن يجمل الجريمة كما حدثت، عندها يبدأ بنصب شراكه الصغيرة ليرى إن كان المشتبَهون يقعون فيها.

قالت ماري: كان في البيت أربعة أشخاص فقط. إنك تتكلم وكأن الذين كانوا هنا ستة أو أكثر. أنا أتفق معك بأن والدي لا يمكن أن يفعلها، كما أنه من السخف الاعتقاد بأن هيستر يمكن أن يكون عندها أي سبب حقيقي لتقوم بأي شيء من ذلك النوع. ولن يبقى في هذه الحالة سوى كريستي وغويندا.

قال فيليب بلهجة فيها مسحة سخرية: أي منهما تفضلين؟

- لا أستطيع حقاً تصور كريستي تفعل هذا الشيء. لقد كانت دوماً شديدة الصبر والهدوء، والحق أنها مخلصة جداً لأمي. أظن أنها قد تنقلب غريبة الأطوار فجأة، فنحن نسمع عن مثل هذه الأشياء، ولكن لم يسبق أبداً أن بدت غريبة الأطوار.

قال فيليب متأملاً: نعم، أعتقد أن كريستي امرأة طبيعية جداً، من النوع الذي يحب الحياة الطبيعية للمرأة. إنها تشبه غويندا إلى حد ما، إلاّ أن الفرق بينهما أن غويندا جميلة وجذابة بينما كريستي المسكينة قبيحة. لا أظن أن رجلاً قد نظر إليها مرتين! ربما كان من شأنها أن ترغب في حب رجل والزواج به، ولا بد أنه أمر شديد القسوة عليها أن يولد الإنسان امرأة وأن تولد المرأة قبيحة غير جذابة، خصوصاً إن لم تعوِّض ذلك أيةُ موهبة أو ذكاء. والحقيقة أنها موجودة هنا منذ زمن طويل. كان يجب أن تغادر البيت بعد الحرب وتستمر في

مهنتها في العلاج الطبيعي، إذ ربما استطاعت اصطياد أحد مرضاها الأغنياء.

قالت ماري: أنت مثل جميع الرجال... تظن أن النساء لا يفكرن بشيء سوى الزواج.

ابتسم فيليب وقال: ما زلت أظن أنه الخيار الأول لجميع النساء. وبالمناسبة، ألا يوجد لتينا أي صديق؟

- لا أعرف لها صديقاً؛ إنها لا تتكلم عن نفسها كثيراً.

- نعم، إنها فتاة صغيرة هادئة، أليس كذلك؟ ليست جميلة بالمعنى الدقيق للكلمة، ولكن لها بهاء وروعة. ترى ما الذي تعرفه عن هذا الأمر؟

- لا أحسبها تعرف شيئاً.

- حقاً؟ أما أنا فأحسبها تعرف.

- آه، إنك تتخيل أشياء فقط!

- أنا لا أتخيل ذلك. هل تعرفين ما قالته الفتاة؟ قالت إنها كانت ترجو ألاّ تعرف أي شيء... طريقة غريبة في التعبير. أراهن أنها تعرف فعلاً شيئاً ما.

- مثل ماذا؟

- ربما تعرف شيئاً ذا علاقة ما بما حدث، ولكنها لا تدرك ما هو وجه هذه العلاقة. أرجو أن أستطيع الحصول على ذلك الشيء.

- فيليب!

- لا فائدة يا بولي. لديّ رسالة في الحياة. لقد أقنعت نفسي بأنه من المصلحة العامة أن أصل إلى الحقيقة. من أين أبدأ؟ أظن أنني سأبدأ بكريستي. إنها ذات نفس بسيطة من عدة أوجه.

قالت ماري: أتمنى... أتمنى كثيراً أن تتخلى عن هذه الفكرة المجنونة وتأتي إلى البيت. كنّا نعيش في غاية السعادة. كل شيء كان يسير بشكل جميل...

تقطّع صوتها، فتأثر فيليب بما سمع وقال: بولي! هل تهتمين حقاً إلى هذا الحد؟ لم أكن أعرف أنك متضايقة لهذه الدرجة.

استدارت ماري وقد ظهر الأمل في عينيها وقالت: هل ستأتي إذن إلى البيت وتنسى الأمر كله؟

- لا أستطيع أن أنسى الأمر كله؛ سأبقى قلقاً ومحتاراً أفكر. على أية حال لنبقَ هنا حتى نهاية الأسبوع يا ماري. وبعدها... سنرى.

* * *

الفصل السادس عشر

سأل ميكي والده: هل تمانع لو بقيت عندكم قليلاً يا أبي؟

- لا، بالطبع لا، إنني سعيد. هل توافق شركتك على غيابك؟

- نعم، لقد خابرتهم ولا حاجة للعودة إليهم حتى نهاية عطلة الأسبوع. كانوا متفهمين جداً للأمر، كما أن تينا ستبقى حتى نهاية الأسبوع هي الأخرى.

ذهب إلى النافذة وأطل منها ثم صار يمشي في الغرفة ويداه في جيوبه ينظر إلى رفوف الكتب، ثم تكلم بصوت مرتجف مضطرب: أتعرف يا أبي؟ إنني أقدّر حقاً كل ما فعلته من أجلي. لقد أدركت مؤخراً فقط... أدركت إلى أي مدى كنتُ دوماً ناكراً للجميل.

قال ليو آرغيل: لم يطلب أحدٌ منك العرفان بالجميل. أنت ابني يا ميكي، كنت دائماً أعتبرك ابني.

- إنها طريقة غريبة في معاملة الابن، فأنت لم تمارس سيطرتك عليّ أبداً.

ابتسم ليو وقال: أترى حقاً أن هذه هي وظيفة الأب الوحيدة؟ أن يمارس سيطرته على أولاده؟

- لا، لا؛ لا أظن ذلك.

ثم أكمل بلهجة سريعة: لقد كنت مغفلاً. نعم، كنت مغفلاً. إنه أمر مضحك نوعاً ما. هل تدري ما الذي أرغب بفعله وما أفكر في عمله؟ كنت أفكر في العمل مع شركة نفط في دول الخليج العربي، وذلك ما كانت أمي تريد مني أن أبدأ فيه... شركة نفط. لكني لم أقبل ذلك وقتها؛ فقد كنت أريد الانطلاق بطريقتي الخاصة!

قال ليو: كنتَ قد بلغت سن الرشد عندما أردت أن تختار حياتك بنفسك وكرهت فكرة أن يختار أحدٌ غيرك أسلوب حياتك. كنت هكذا دائماً يا ميكي؛ فإذا ما أردنا أن نشتري لك سترة حمراء كنت تصرّ على أن تكون زرقاء، لكنك في نفسك تريد الحمراء.

قال ميكي ضاحكاً: هذا صحيح، كنت ولداً مشاكساً.

- إنه الشباب؛ يريد أن يسير على هواه... يخاف من كبحه أو تحميله المسؤولية أو من السيطرة عليه. كلنا شعر بهذا الشعور في فترة من حياته، لكن علينا أن نعتاد الأمر في النهاية.

- نعم، أظن ذلك.

- إنني سعيد جداً لأنك تفكر بهذه الفكرة من أجل المستقبل. لا أرى العمل بائعَ سيارات وظيفة تناسبك تماماً. إنها وظيفة لا بأس بها ولكن لا مستقبل لها.

- أحب السيارات وأحب أن أحقق أكبر نجاح ممكن في هذه المهنة. إنني أجيد الكلام والثرثرة وإقناع المشترين، لكني لا أستمتع

بالحياة. وعلى أية حال فهي وظيفة لها علاقة بالسيارات، الإشراف على خدمة وصيانة السيارات. وظيفة ممتعة جداً.

- في أي وقت تحتاج فيه مبلغاً من المال لتمويل أي مشروع تريده وتراه جيداً فإن النقود موجودة ومتوفرة. أنت تعلم بأمر «الصندوق الاختياري». إنني مستعد تماماً لصرف أي مبلغ تحتاجه شريطة أن تتم الموافقة على تفصيلات المشروع وإقرارها. نستطيع استمزاج رأي خبير في هذا المجال، لكن النقود موجودة وجاهزة متى أردتها.

- شكراً لك يا أبي، لكنني لا أريد التطفل عليك.

- ليس في المسألة تطفل يا ميكي؛ إنه مالك. لقد خصص لكم جميعاً، وكل ما أملكه هو سلطة تخصيص المبالغ وتحديد وقت وكيفية صرفها. لكنها ليست أموالي وبالتالي فإنني لا أمنحك إياها... إنها أموالك.

- إنها أموال والدتي في الحقيقة.

- لقد أنشئ الصندوق قبل عدة سنوات.

- لا أريد من الأموال شيئاً. لا أريد الاقتراب منها، لا أستطيع! في ظل الأوضاع الراهنة لا أستطيع!

احمرّ وجهه فجأة وهو ينظر إلى والده ثم قال متردداً: لم... لم أكن أقصد قول ذلك.

- ولماذا لا تستطيع أخذ الأموال؟ لقد تبنيناك، وهذا يعني أننا نتولى مسؤوليتك مسؤولية كاملة. كان ذلك ترتيباً عملياً قمنا به لكي

نربيك ابناً لنا ونعيلك طول حياتك وبأسلوب مناسب صحيح.

كرر ميكي كلامه: أريد أن اعتمد على نفسي.

- نعم؛ أرى أنك تريد ذلك. حسناً إذن يا ميكي، ولكن إن غيرت رأيك فتذكر أن الأموال موجودة في انتظارك.

- شكراً لك يا أبي. جميل منك أن تتفهم موقفي، أو -على الأقل- أن تتركني أشق طريقي بنفسي. ليتني أستطيع توضيح الأمر بصورة أفضل. إنني لا أريد أن أستفيد من... لا أستطيع أن أستفيد من... آه، تباً! يصعب عليّ الحديث في هذا الأمر.

طرق أحدهم باب الغرفة طرقات قوية فقال ليو: أظن أنه فيليب. هل لك أن تفتح له الباب يا ميكي؟

ذهب ميكي وفتح الباب ودخل فيليب وهو يسيّر كرسيه. سلّم عليهما مبتسماً ثم سأل ليو: هل أنت مشغول يا سيدي؟ إن كنت مشغولاً فأخبرني. سأجلس هادئاً ولن أقاطعك وإنما سأتصفح الكتب التي على الأرفف.

قال ليو: لا؛ ليس لديّ ما أعمله هذا الصباح.

- غويندا غير موجودة؟

- اتصلت وقالت إنها تحس بالصداع ولا تستطيع المجيء اليوم.

كان صوت ليو خالياً من أي تعبير. قال فيليب: فهمت.

قال ميكي: سأذهب لأبحث عن تينا. أريدها أن تخرج معي، فهذه الفتاة تكره الهواء العليل.

ثم غادر الغرفة بخطوات رشيقة وسريعة. وسأل فيليب: هل أنا مخطئ أم أن تغيراً قد حدث لميكي في الفترة الأخيرة؟ إنه لا يعبس في وجوه الناس كما هي عادته!

قال ليو: لقد كبر، وقد استغرق ذلك منه وقتاً طويلاً.

- لقد اختار وقتاً غريباً للاستبشار وطرح عبوسه. الجلسة التي كانت مع الشرطة بالأمس لم تكن مشجعة تماماً، ألا تعتقد ذلك؟

ردّ عليه ليو بهدوء: من المؤلم بالطبع أن يعاد فتح القضية من جديد.

قال فيليب وهو يستعرض رفوف الكتب ويسحب مجلدين دون قصد معين: هل ترى أن شاباً مثل ميكي يمتلك ضميراً حياً؟

- إنه سؤال غريب يا فيليب.

- لا، ليس كذلك. كنت أتساءل عن أمره؛ إنه كالأصم. بعض الناس لا يشعرون بأي وخز من ضمير أو إحساس بالذنب أو الندم أو حتى الأسف على أفعالهم. جاكو منهم.

- صحيح؛ كان جاكو من هذه النوعية بالتأكيد.

- وقد تساءلت عن ميكي... هل تمانع لو سألتك سؤالاً يا سيدي؟ كم تعرف عن خلفية أفراد عائلتك هؤلاء الذين تبنيتهم؟

- ولماذا تريد أن تعرف يا فيليب؟

- أظن أنه مجرد فضول. إن المرء يتساءل دوماً عن مقدار تأثير الوراثة على الإنسان.

لم يجبه ليو. وراقبه فيليب باهتمام شديد ثم قال: ربما كنت أزعجك بمثل هذه الأسئلة؟

قال ليو وهو ينهض عن مقعده: حسناً، لماذا لا تسألهم؟ أنت واحد من العائلة. إنها في الوقت الحالي أسئلة وقحة وغير مناسبة (وهي مسألة لا يمكن إنكارها)، لكن عائلتنا لم يتم تبنيها بالمعنى المعتاد للكلمة. فزوجتك ماري هي التي تبنيناها رسمياً وقانونياً، أما الآخرون فجاؤوا إلينا بطريقة غير رسمية. كان جاكو يتيماً وسلمته لنا جدته العجوز، وقد قتلت في غارة جوية فأقام معنا. كان الأمر بهذه البساطة. أما ميكي فكان ابناً غير شرعي، وكانت أمه لا تهتم إلاّ بالرجال، وقد أرادت مئة جنيه مقابله فدفعناها لها. ولم نعرف الذي حدث لوالدة تينا. لم تكتب لابنتها أية رسالة ولم تطلبها بعد انتهاء الحرب وكان يستحيل معرفة مكانها.

- وهيستر؟

- هيستر أيضاً طفلة غير شرعية. كانت أمها ممرضة أيرلندية شابة وتزوجت جندياً أميركياً بعد أن جاءت هيستر إلينا، وتوسلت إلينا حتى نبقي الطفلة عندنا. لم تكن تعتزم إخبار زوجها عن ولادة طفلتها هذه، وذهبت إلى الولايات المتحدة مع زوجها بعد انتهاء الحرب ولم نسمع عنها أي شيء بعدها.

قال فيليب: كلها قصص تاريخية مأساوية إلى حد ما... كلهم أطفال مساكين منبوذون من أهاليهم.

- نعم، وهذا ما جعل راينا تعطف عليهم جميعاً. كانت عازمة على إشعارهم بأنهم محبوبون مرغوبون، وعلى إعطائهم بيتاً حقيقياً، وعلى أن تكون أمّاً حقيقية لهم.

- كان عملاً جميلاً من جانبها.

- إلاّ... إلاّ أن الأمر لم يكن أبداً لينتهي بالطريقة التي كانت ترجوها. كانت تؤمن بأن رابطة الدم لا تهم... ولكن رابطة الدم تهم فعلاً. إن في الأبناء الحقيقيين شيئاً معيناً، شيئاً أقرب للمزاج أو السمت المعين، شيئاً يجعلك تحس بشعور تدركه وتفهمه دون الاضطرار للكلام والشرح. هذه الرابطة غير موجودة في أطفال التبني؛ فلا توجد لدى المرء معرفة غريزية بما يدور في أذهان أولاده الذين يتبناهم. إنك تحكم عليهم -بالطبع- بنفسك وعن طريق أفكارك وأحاسيسك، ولكن من الحكمة معرفة أن تلك الأفكار والمشاعر قد تكون مختلفة عن أفكارهم ومشاعرهم اختلافاً واسعاً.

- أظن أنك كنت تدرك هذا منذ البداية.

- لقد حذرت راينا من هذا لكنها لم تصدق كلامي بالطبع، لم ترد تصديقه. كانت تريد جعلهم أبناءها الحقيقيين.

- لقد كانت تينا دوماً الشخصية الغامضة بينهم، والتي حققت أفضلية غير متوقعة. ربما كان ذلك بسبب النصف غير الأبيض الذي ورثته. هل تعرف من كان أبوها؟

- أظنه كان بحاراً هندياً. لم تستطع أمها تحديده بالضبط.

- لا يعرف المرء طبيعة ردود أفعالها على الأمور أو بماذا تفكر. إنها لا تقول إلاّ القليل.

سكت فيليب قليلاً ثم أطلق سؤالاً: ما الذي تعرفه تينا عن هذا الأمر ولا تقوله؟

رأى كيف توقفت يد ليو آرغيل بعد أن كانت تقلب الأوراق. سكت الاثنان لحظة ثم قال ليو بعدها: لماذا ترى أنها لا تقول كل ما تعرف؟

- هيّا يا سيدي! الأمر واضح جداً، أليس كذلك؟

- ليس واضحاً لي.

- إنها تعرف شيئاً. أتراه شيئاً من شأنه أن يلحق الضرر بشخص معين؟

- أرجو أن تسامحني يا فيليب إن قلت لك إنه ليس من الحكمة التخمين في مثل هذه الأشياء. يستطيع الإنسان تخيل أشياء كثيرة بسهولة.

- هل تحظر عليّ الخوض في الأمر يا سيدي؟

- أهو حقاً من شأنك يا فيليب؟

- تقصد أنني لست شرطياً؟

- نعم، هذا ما قصدته. الشرطة عليهم القيام بواجبهم، يجب عليهم أن يحققوا في الأمور.

- وأنت لا تريد التحقيق فيها؟

- ربما كنت خائفاً من النتيجة التي سأجدها.

شدّ فيليب على ذراع كرسيه بانفعال ثم قال بهدوء: ربما كنت أنت تعرف مَن فعلها، هل هذا صحيح يا سيدي؟

- لا.

جفل فيليب من جواب ليو الحاسم والقوي. قال ليو وهو يضع يده على المكتب: لا.

فجأة لم يعد ليو صاحب تلك الشخصية المنعزلة سهلة الانقياد التي عرفها فيليب جيداً. أضاف ليو: لا أعرف من فعلها! أتسمعني؟ لا أعرف. لا أعرف أبداً. لا... لا أريد أن أعرف.

* * *

الفصل السابع عشر

سأل فيليب: وماذا تفعلين أنت يا هيستر؟

كان يدفع كرسيه المتحرك عبر الممر وكانت هيستر تخرج رأسها من النافذة في منتصف الممر. جفلت وسحبت رأسها وقالت: آه! إنه أنت.

- هل تتأملين في الكون أم تفكرين بالانتحار؟

- ما الذي يجعلك تقول مثل هذا الكلام؟

- واضح أن هذا ما تفكرين فيه. ولكن بصراحة يا هيستر، إن كنت تفكرين بمثل هذه الخطوة فإن هذه النافذة لا تنفع؛ فهي ليست مرتفعة بما فيه الكفاية! فكري كم هو محزن أن تخرجي بذراع مكسورة وساق مكسورة بدلاً من نعمة النسيان التي تنشدينها.

- كان ميكي معتاداً على النزول من هذه النافذة عن طريق تسلق شجرة المنغوليا. كانت هذه هي طريقه السرية في الدخول والخروج من البيت، ولم تكن أمي تعرف هذا أبداً.

- يا للأشياء التي لا يعرفها الوالدان! يمكن للمرء تأليف كتاب

حولها. ولكن إن كنت تفكرين بالانتحار يا هيستر فقرب البيت الصيفي مكان أفضل للقفز منه.

- هل تقصد المكان المطل على النهر مباشرة؟ نعم، وقد يتهشم الواحد على الصخور أسفل منه!

- مشكلتك يا هيستر أنك تبالغين جداً في تخيلاتك. إن معظم الناس قانعون جداً بالانتحار بواسطة أفران الغاز أو بتناول الكثير من الأقراص المنومة.

- قالت هيستر فجأة: أنا مسرورة لأنك هنا. هل تمانع في الحديث حول بعض الأمور؟

- الواقع أنه لا يوجد لديّ غير الحديث هذه الأيام. تعالي إلى غرفتي لنتابع حديثنا.

ثم تابع يقول حين رأى ترددها: ماري تحت نزلت لتعدّ بيديها الجميلتين ما لا عهد لي به من الطعام ولا خيار.

- ما كانت ماري لتفهم.

وافقها فيليب: نعم؛ ما كانت لتفهم أبداً.

أدار فيليب عجلات كرسيه وسارت هيستر إلى جانبه. فتح باب غرفة الجلوس ودخل ثم تبعته هيستر. قالت: ولكنك تفهم، لماذا؟

- يأتي وقت يفكر فيه المرء بمثل هذه الأمور كما تعلمين. عندما حدث لي هذا الحادث -على سبيل المثال- وعرفت أنني قد أبقى مقعداً طوال حياتي...

- نعم، لا بد أن ذلك كان فظيعاً، فظيعاً حقاً. وقد كنت طياراً أيضاً؛ كنت تطير.

- أطير فوق العالم على ارتفاعات عالية، مثل صينية شاي في السماء.

- أنا آسفة جداً، آسفة حقاً. كان يجب أن أفكر بهذا أكثر وأكون أكثر تعاطفاً!

- الحمد لله أنك لم تكوني كذلك. ولكن تلك المرحلة قد انتهت الآن على أية حال؛ فالمرء يعتاد كل شيء. إنه شيء لا يمكنك تقديره حالياً، ولكنك تعتادين عليه إلاّ إذا فعلت شيئاً متهوراً وسخيفاً منذ البداية. والآن، هيا أخبريني عن كل شيء. ما هي المشكلة؟ أظن أنك تشاجرت مع صديقك الطبيب الشاب الوقور. هل هذه هي المشكلة؟

- لم يكن شجاراً، بل كان أسوأ من ذلك بكثير.

- ستعود الأمور إلى حالها.

- لا، لن تعود. لا يمكن ذلك... أبداً.

- أنت متطرفة جداً في تعبيراتك. ترين كل شيء أسودَ أو أبيض، أليس كذلك يا هيستر؟ لا ترين ألواناً أخرى بينهما.

- لا أملك إلاّ أن أكون هكذا. كنت دائماً هكذا. كل ما ظننت أنني أستطيع عمله أو أريد عمله يفشل دائماً. أردت أن تكون لي حياتي الخاصة، أن أكون فتاة ناجحة وأن أفعل شيئاً. وكل ذلك لم

ينجح، لم أنجح في أي شيء. لقد فكرت كثيراً في الانتحار، منذ أن كنت في الرابعة عشرة من عمري.

راقبها فيليب باهتمام. قال بصوت هادئ واقعي: كثير من المراهقين ينتحرون وهم بين الرابعة عشرة والتاسعة عشرة. إنه سن الحيرة والاضطراب. طلاب المدارس يقتلون أنفسهم لأنهم يعتقدون أنهم لا يستطيعون النجاح في امتحاناتهم، والفتيات يقتلن أنفسهن لأن أمهاتهن لا يسمحن لهن بالخروج إلى السينما مع أصدقائهن السيئين. إنها فترة يظهر فيها كل شيء مضخماً ومبهرجاً: الفرح أو اليأس، الكآبة أو السعادة الجامحة... ولكن المرء يتخلص من ذلك. إن مشكلتك -يا هيستر- أنك احتجت إلى مدة أطول مما يحتاجه أكثر الناس حتى تخلصت من ذلك.

- كانت أمي على حق دائماً. كل الأشياء التي كنت أريد عملها لم تسمح لي بعملها، وكانت تعتبر نفسها على حق بينما أنا المخطئة. لم أستطع تحمل ذلك، لم أستطع ذلك! ولذلك فكرت أن عليّ أن أكون شجاعة، عليّ أن أخرج لأشق حياتي بنفسي، عليّ أن أجرب نفسي. وقد سار كل شيء بطريقة خاطئة. لم أكن ناجحة في التمثيل.

- لم تكوني ناجحة بالطبع؛ فأنت لا تتحلين بالانضباط ولا تستطيعين -كما يقول أهل المسرح- تحمل تبعات الالتزام بالمسرح؛ فأنت مشغولة عن ذلك -يا فتاتي- بتحويل نفسك وحياتك إلى دراما مبالغ بها. بل إنك تفعلين ذلك الآن.

قالت هيستر: ثم فكرت في إقامة علاقة حب ناضجة، علاقة

تختلف عن العلاقات السخيفة للفتيات. كان رجلاً أكبر مني وكان يعيش حياة تعيسة جداً.

قال فيليب: موقف تقليدي مكرر، ولا شك أنه استغل ذلك الموقف.

- كنت أظن أنها ستكون علاقة عاطفية عظيمة. هل تضحك مني؟

سكتت هيستر وهي تنظر إلى فيليب بارتياب، فقال لها بلطف: لا، لا أضحك منك يا هيستر. إنني أرى تماماً أنها كانت تجربة قاسية جداً عليك.

قالت هيستر بمرارة: لم تكن علاقة عاطفية عظيمة. لقد... لقد رميت نفسي عليه وكنت حمقاء مغفلة.

- أحياناً يضطر المرء لتعلم أشياء عن طريق التجربة. لم يضرّك ذلك بشيء يا هيستر، بل ربما ساعدك على النضوج، أو ربما كان سيساعدك لو سمحت للتجربة بأن تساعدك.

قالت هيستر باستياء: كانت أمي بالغة... بالغة الكفاءة في معالجة الموضوع. جاءت وسوّت كل شيء وأخبرتني أنه من الأفضل لي -إن كنت أريد التمثيل- أن أذهب إلى أحد المعاهد المسرحية لأتعلمه بالشكل الصحيح. لكنني لم أكن أريد التمثيل حقاً، وكنت قد أدركت في ذلك الوقت أنني فاشلة في هذا المجال. ولذلك عدت إلى البيت. ماذا كنت أستطيع عمله غير ذلك؟

- ربما كان لديك الكثير مما يمكنك فعله، ولكن العودة إلى البيت كانت القرار الأسهل.

ردّت هيستر متحمسة: آه، نعم؛ ما أعمق فهمك! إنني ضعيفة جداً، ودائماً أريد عمل الشيء السهل، وإذا ما تمردت عليه فإن تمردي يأتي دوماً بطريقة سخيفة لا تنفع.

- أنت غير واثقة من نفسك أبداً، أليس كذلك؟

- ربما كان ذلك لأنني متبناة. إنني لم أكتشف حقيقة كوني متبناة إلاّ بعد أن بلغت السادسة عشرة تقريباً. كنت أعرف أن الآخرين كانوا أولادها بالتبني ثم سألت ذات يوم... فعرفت أنني متبناة مثلهم. وقد جعلني هذا أشعر بالمرارة الشديدة وكأنني لم أكن أنتمي لأي مكان.

- كم أنت فظيعة في تحويل شخصيتك إلى دراما مُبالَغ بها!

- لم تكن والدتي... لم تكن تشعر أو تتفهم أبداً أحاسيسي. كانت تنظر إليّ بعين العطف والود وتضع لي الخطط والمشاريع. آه، كنت أكرهها! إنه شعور بغيض مني، بغيض، لكني كنت أكرهها!

- تمر على معظم الفتيات -في الواقع- فترة قصيرة يكرهن خلالها أمهاتهن الحقيقيات. لم يكن في ذلك الشعور شيء غير عادي في الواقع.

قالت هيستر: كنت أكرهها لأنها كانت على حق. إنه لشيء فظيع أن يكون الناس دائماً على حق... إنه أمر يجعلك تشعر بالنقص. آه! إن كل شيء مخيف جداً يا فيليب. ماذا سأفعل؟ ما الذي أستطيع عمله؟

- تزوجي ذلك الشاب الطيب صديقك واستقري. كوني زوجة طبيب طيبة، أم أن هذا ليس كافياً لك؟

قالت هيستر باكتئاب: إنه لا يريد الزواج بي الآن.

- هل أنت متأكدة؟ هل أخبرك بذلك أم أنك تتخيلين فقط؟

- إنه يظن أنني قتلت أمي.

قال فيليب: "آه..."، ثم سكت لحظة وقال: وهل قتلتِها فعلاً؟

التفتت إليه بسرعة وقالت: لماذا تسألني عن هذا؟ لماذا؟

- كنت أظن أنه من المثير معرفة ذلك. إنه حديث عائلي بيننا وليس لإبلاغ الشرطة.

- لو كنت قتلتها فهل تظن أنني سأخبرك؟

- سيكون أكثر حكمة ألا تخبريني.

- لقد قال لي إنه يعرف أنني قتلتها. قال لي إنني لو اعترفت فقط، اعترفت أمامه، فسيكون أمراً عادياً وسوف نتزوج وسيعتني بي. وقال إنه... إنه لن يدع ذلك يؤثر على حياتنا.

صفر فيليب وقال: جيد، جيد!

سألته هيستر: ما هي الفائدة؟ ما هي الفائدة من إخباره بأنني لم أقتلها؟ إنه لن يصدقني، أليس كذلك؟

- عليه تصديقك إن قلت له ذلك.

- أنا لم أقتلها. هل تفهم؟ لم أقتلها، لم أقتلها، لم أقتلها.

سكتت قليلاً ثم قالت: لا يبدو ذلك مقنعاً.

شجعها فيليب قائلاً: إن الحقيقة تبدو غير مقنعة غالباً.

- نحن لا نعرف، لا أحد يعرف. كلنا ينظر بعضنا إلى بعض؛ ماري تنظر إليّ، وكريستي (وهي طيبة جداً معي وتحميني) هي الأخرى تظن أنني التي قتلتها. ما هي الفرصة أمامي؟ سيكون من الأفضل، من الأفضل بكثير، لو ذهبت إلى ذلك المكان عند النهر وألقيت نفسي من أعلى...

- بالله عليك يا هيستر! لا تكوني حمقاء. توجد أشياء أخرى يمكنك فعلها.

- أية أشياء؟ وكيف يمكن ذلك؟ لقد فقدت كل شيء. كيف أستمر في حياتي يوماً بعد يوم؟

ثم نظرت إلى فيليب وقالت: أنت تراني مضطربة يائسة لدرجة الجنون. حسناً، ربما أكون قد قتلتها. ربما كان الندم هو ما ينهش نفسي، وربما كنت غير قادرة على النسيان... هنا.

ثم وضعت يدها على قلبها بحركة مسرحية، فمدّ فيليب يده وسحبها فوقعت فوقه على كرسيه، فقال: لا تكون سخيفة. إنك غبية وحمقاء يا هيستر.

فجأة فُتح الباب، ووقفت ماري ساكنة أمامه فيما كافحت هيستر حتى وقفت على قدميها، أما فيليب فنظر إلى زوجته بتكشيرة خنوع وقال: إنني أحاول إقناع هيستر بألا تقتل نفسها يا بولي.

لم تجبه زوجته بشيء، بل دخلت الغرفة بحذر ووضعت الصينية على طاولة صغيرة، ثم قربت الطاولة إليه. لم تنظر إلى هيستر. ونقلت هيستر نظراتها بين الرجل وزوجته باضطراب ثم قالت: آه، قد يكون من الأفضل أن أذهب الآن... أذهب و...

لم تكمل عبارتها وخرجت من الغرفة وأغلقت الباب وراءها. قال فيليب: إن هيستر في وضع سيئ. إنها تفكر بالانتحار وقد كنت أحاول ثنيها عن هذا التفكير.

لم تردّ عليه ماري. ومدّ يده إليها فابتعدت عنه، فقال: هل أغضبتك يا بولي؟ أأغضبك هذا الأمر؟

لم تردّ عليه، فقال: ألأنكِ رأيتِها في حضني؟ ما بالك يا بولي؟ لا تسيئي تفسير الأمر. لقد كنت أحاول ثنيها عن تلك الفكرة السخيفة وسحبتها فوقعت على الكرسي. هيا يا بولي، تعالي قبليني لنعود صديقين.

قالت ماري: سيبرد حساؤك إن لم تتناوله.

ثم خرجت من الغرفة ودخلت غرفة النوم وأغلقت الباب وراءها.

* * *

الفصل الثامن عشر

- في مكتب الاستقبال فتاة تريد رؤيتك يا سيدي.

بدا كالغاري مستغرباً وقال: فتاة؟

احتار من تكون هذه الزائرة. نظر إلى الأوراق الكثيرة المبعثرة على مكتبه ثم قطّب جبينه، وتكلم خادم الفندق ثانية وبصوت خافت كمن يفضي بسر: فتاة شابة رائعة، فتاة جميلة جداً.

- آه، جيد! أحضرها إليّ إذن.

لم يستطع دفع الابتسامة عن وجهه، فقد أيقظت روح الدعابة لديه تلك النبرة السرية وذلك التأكيد الذي أبداه الخادم. ثم جاءت لرؤيته، وقد ذهل تماماً عندما رنّ جرس غرفته فذهب ليفتح الباب فإذا به وجهاً لوجه مع هيستر آرغيل.

- أنت؟!

خرجت صيحة التعجب منه وهو يشعر بالذهول الكامل، ثم قال: تفضلي، تفضلي.

ابتعد جانباً لتدخل ثم أغلق الباب. الغريب أن انطباعه عنها هو

نفسه تقريباً الذي أخذه في أول مرة رآها فيها. كانت ترتدي ثيابها دون اعتبار للتقاليد اللندنية، فلم تكن تضع قبعة على رأسها وكان شعرها الأسود يتطاير حول وجهها، وكانت ترتدي معطفاً صوفياً ثقيلاً وتحته تنورة خضراء داكنة وسترة. وبدا وكأنها قد وصلت لتوها من رحلة طويلة سيراً على الأقدام فانقطعت أنفاسها.

قالت هيستر: أرجوك، أرجوك! يجب أن تساعدني.

جفل كالغاري وقال: أساعدك؟ كيف؟ سأساعدك بالطبع إن استطعت.

- لم أعرف ماذا أفعل، لم أعرف لمن أذهب. ولكن يجب أن يساعدني شخص ما. لا أستطيع تحمل المزيد، وأنت الشخص الذي يمكنه مساعدتي، فأنت الذي بدأت هذا الأمر كله.

- هل أنت في مشكلة معينة؟ مشكلة كبيرة؟

- كلنا في مشكلة، ولكن المرء أناني بطبعه أليس كذلك؟ أقصد أنني لا أفكر إلاّ بنفسي.

قال برفق: اجلسي يا عزيزتي.

جمع الأوراق عن أحد الكراسي وأشار إليها بالجلوس عليه، ثم قال لها برفق ولين: لا تقلقي؛ الأمور لا تكون أبداً بمثل ما تبدو عليه من سوء.

- الناس يقولون هذا، لكنه غير صحيح. أحياناً تكون أسوأ مما تبدو عليه.

اعتدلت في جلستها ثم قالت بلهجة اتهام: كنا جميعاً بخير إلى أن جئت. كنّا بخير تماماً. ثم، ثم بدأ كل شيء.

قال آرثر كالغاري: لن أتظاهر بعدم فهم ما تقصدينه. لقد ذهلت تماماً عندما قلتِ لي ذلك أول مرة، لكني فهمت ذلك الآن بصورة أفضل... ذلك الذي سبّبْته لكم معلوماتي.

قالت هيستر: كنّا حتى ذلك الوقت نعتقد أن جاكو...

ثم سكتت، فقال: أعرف يا هيستر، أعرف. ولكن يجب أن تنظري إلى أبعد من ذلك. كنتم تعيشون في أمن زائف، لم يكن أمناً حقيقياً كان مجرد شيء زائف... مجرد تمثيل. وقد يعطي ذلك أحياناً شعوراً بالأمن ولكنه ليس أمناً حقيقياً، ولا يمكن أن يكون أمناً.

- أنت تقول بأنه ينبغي على المرء أن يتحلى بالشجاعة وأنه لا فائدة من التمسك بشيء إن كان زائفاً وسهلاً؟ لقد كنت أنت شجاعاً! إنني أدرك ذلك. كنت شجاعاً إذ جئتنا وأخبرتنا بنفسك دون أن تعرف كيف سنشعر وماذا سيكون ردّ فعلنا. كان تصرفاً شجاعاً منك، وأنا تعجبني الشجاعة لأنني شجاعة كثيراً.

قال كالغاري برفق: أخبريني، أخبريني ما هي المشكلة الآن. هل هو أمر خاص؟

- رأيت حلماً.كان شخص... شاب... طبيب...

- فهمت؛ أنتما صديقان، أو ربما أكثر من صديقين.

- كنت أظن أننا أكثر من صديقين، وكان هو يظن ذلك أيضاً. أما الآن وقد استجدّ هذا الأمر كله...

- نعم؟

قالت هيستر وقد تدافعت كلماتها من فمها: إنه يظن أنني فعلتها، أو أنه قد لا يظن أنني الفاعلة إلاّ أنه غير متأكد. لا يستطيع التأكد. إنه يظن... أعرف أنه يظن... بأنني الشخص الأكثر احتمالاً. وقد أكون كذلك فعلاً، وقد يكون هذا ما يظنه كل واحد منا بالآخر. وقد رأيت أنه لا بد لشخص ما أن يساعدنا في هذه الورطة الكبيرة التي نحن فيها، وقد فكرت فيك بسبب الحلم. رأيت في الحلم أنني كنت ضائعة ولم أستطع العثور على صديقي الطبيب. كان قد تركني، وكان هناك منحدر شديد ما... هاوية. نعم، هاوية، وكانت عميقة جداً ولا مجال لتجسيدها. ورأيتك هناك على الجانب الآخر ومددت إليّ يديك وقلت: "أريد أن أساعدك".

وسحبت هيستر نفَساً عميقاً ثم قالت: ولذلك جئت إليك؛ هربت وجئت إلى هنا لأن عليك مساعدتنا. إن لم تساعدنا فلا أعرف ماذا سيحدث. يجب أن تساعدنا. أنت الذي جلبت لنا كل هذا، وربما قلت إنك غير مسؤول عن ذلك وإنك بمجرد أن أخبرتنا بحقيقة ما حدث لم يعد لك شأن بالأمر. ستقول...

قال كالغاري مقاطعاً: لا، لن أقول شيئاً كهذا؛ إنه شأني يا هيستر. إنني اتفق معك: عندما تشرعين في عمل فيجب أن تكمليه. إنني أشعر بنفس ما تشعرين به تماماً.

- آه!

احمرّ وجه هيستر، وفجأة -كما هي العادة معها- بدت جميلة. وأضافت تقول: إذن لست وحيدة! يوجد شخص آخر معي.

- نعم يا عزيزتي، معك شخص آخر... بكل جهوده وإمكاناته. فحتى الآن لم تكن إمكاناتي ذات فائدة لأحد، ولكني أحاول ولم أتوقف عن محاولة المساعدة أبداً.

جلس على كرسيه وقرّبه إلى كرسيها وقال: أخبريني الآن عن كل شيء. هل كان الأمر سيئاً للغاية؟

قالت هيستر: إنه واحد منا؛ كلنا يعرف هذا. لقد جاء السيد مارشال وتظاهرنا بأن القاتل شخص غريب دخل البيت، لكنه كان يعلم بأن الأمر لم يكن كذلك. إن القاتل واحدٌ منّا بالتأكيد.

- وماذا عن صديقك الشاب... ما اسمه؟

- دون... دونالد كريغ. إنه طبيب.

- هل يرى دونالد أنك أنت القاتلة؟

- إنه يخشى أن أكون أنا.

أطبقت على يديها بحركة مسرحية ثم نظرت إليه وقالت: ربما ترى أنت أيضاً أنني القاتلة؟

- آه، لا، لا! أعرف تماماً أنك بريئة.

- أنت تقول هذا وكأنك متأكد فعلاً.

- أنا متأكد تماماً.

- ولكن لماذا؟ كيف يمكنك أن تتأكد؟

- بسبب ما قلتِه لي عند مغادرتي لبيتكم بعد أن أخبرتكم بالحقيقة. هل تذكرين ما قلتِه لي عن البراءة؟ ما كان ممكناً أن تقولي ذلك... ما كان ممكناً أن تشعري بهذا الشعور إلاّ إذا كنت بريئة فعلاً.

صاحت هيستر: آه، آه؛ يا لارتياحي! يا لارتياحي وأنا أشعر أن شخصاً يحس بهذا الشيء حقيقة!

- إذن هل يمكننا مناقشة الأمر بهدوء الآن؟

- نعم. إن... إن الأمر مختلف تماماً الآن.

- أريد أن أسألك من باب الاهتمام فقط... مع رجائي أن تتذكري دائماً حقيقة شعوري نحو هذه المسألة: لماذا يمكن أن يظن أي شخص أنك يمكن أن تقتلي أمك بالتبني؟

قالت هيستر: لأنه كان يمكن لي أن أقتلها. كنت أشعر بالميل إلى ذلك في كثير من الأحيان. أحياناً يشعر المرء بغضب جنوني، وقد يشعر المرء بأن لا جدوى منه وأنه يائس عاجز. كانت أمي هادئة جداً ومتفوقة وتعرف كل شيء ومحقة في كل شيء، وكنت أفكر أحياناً وأقول في نفسي: "آه، بودي لو أقتلها"!

ثم نظرت إليه وقالت: أفهمت؟ ألم تشعر أبداً بمثل هذا الشعور عندما كنت صغيراً؟

شعر كالغاري بوخزة مفاجئة، وربما كانت نفس الوخزة التي أحس بها عندما قال له ميكي في الفندق في درايموث: "إنك تبدو أكبر من سنّك الحقيقي". "عندما كنتَ صغيراً..."؟ هل ترى هيستر أنه كبير في السن إلى هذا الحد؟ عاد بتفكيره إلى الوراء. تذكر نفسه وهو

في التاسعة من عمره يتشاور مع ولد صغير آخر في حديقة مدرسته الابتدائية حول أفضل الطرق للتخلص من مدرسهم السيد ويربورو، وتذكر حنقه العاجز المكتوم عندما خاطبه السيد ويربورو بعبارات شديدة التهكم والسخرية. رأى أن هذا ما كانت تشعر به هيستر أيضاً، ولكن مهما كان الذي فكر فيه مع ذلك الولد... ماذا كان اسمه؟ بورش، نعم، كان اسم الولد بورش... على الرغم من أنه تشاور مع بورش الصغير وخططا إلاّ أنهما لم يقوما بأية خطوات عملية للتخلص من السيد ويربورو.

- كان يجب أن تتغلبي على تلك الأحاسيس منذ سنوات طويلة. إنني أتفهم أحاسيسك هذه بالطبع.

- كل ما في الأمر أن أمي كان لها مثل هذا التأثير عليّ. لقد بدأت أشعر الآن أنها كانت غلطتي، أشعر بأنها لو ظلت على قيد الحياة فترة أطول قليلاً أو عاشت إلى أن كبرتُ قليلاً واستقرت أحوالي قليلا لأصبحنا... لأصبحنا صديقتين بطريقة غريبة. كنت سأسعد بمساعدتها ونصيحتها، ولكنني... ولكنني لم أستطع تحمل الأمر على صورته تلك لأنه جعلني أشعر بأنني غبية عديمة التأثير، كان كل ما كنت أفعله ينتهي نهاية فاشلة، وقد تأكدت الآن من أن كل ما فعلته كان أشياء سخيفة غبية. لقد فعلت تلك الأشياء بسبب شعوري بالحاجة إلى التمرد ولأنني كنت أريد إثبات ذاتي، ولم أكن مجرد نكرة. لقد كنت سائلاً مائعاً، نعم؛ هذه هي العبارة بالضبط: «سائلاً مائعاً»! لم يكن لي شكل محدد بل كنت أكتفي بتجربة عدة أشكال وأشكال... أشكال أناس آخرين كنت معجبة بهم، وقد رأيت أنني إن هربت وعملت في التمثيل وأقمت علاقة غرامية مع شخص ما فإن ذلك...

- فإن ذلك يجعلك تشعرين بذاتك، أو تشعرين -في أسوأ الأحوال- بأنك شخص ما، أليس كذلك؟

- نعم، نعم؛ هكذا بالضبط. وأنا أعرف الآن -طبعاً- بأنني كنت أتصرف كطفلة غبية. لكنك لا تعلم يا دكتور كالغاري كم أتمنى لو أن والدتي على قيد الحياة الآن. لأنه ظلم... ظلم وقع عليها. لقد عملت لنا الكثير وأعطتنا الكثير، وفي المقابل لم نعطها أي شيء. وقد فات الوقت الآن.

سكتت ثم قالت بحماسة مفاجئة: هذا هو سبب إصراري على وقف تصرفاتي الغبية والطفولية. وسوف تساعدني، أليس كذلك؟

- لقد قلت بأنني سأفعل أي شيء لمساعدتك.

ابتسمت له ابتسامة سريعة جميلة فقال: أخبريني بالضبط ما الذي كان يحدث؟

- ما رأيتُ أنه سيحدث تماماً. كنّا جميعاً ننظر إلى بعضنا البعض ونتساءل دون أن ندري. والدي ينظر إلى غويندا ويحسب أنها قد تكون هي، وهي تنظر إليه وهي تشك في أنه قد يكون هو. لا أظن أنهما سيتزوجان الآن؛ فلقد أفسد هذا الأمر كل شيء. وتينا تعتقد أن لميكي علاقة بالأمر. لا أدري لماذا، فهو لم يكن موجوداً هناك في تلك الليلة. وكريستي تظن أنني الفاعلة وتحاول حمايتي، وماري (وهي أختي الكبرى التي لم تلتقِ بها) ترى أن كريستي هي التي قتلت أمي!

- ومن برأيك الذي قتلها يا هيستر؟

بدت هيستر وقد فوجئت: تسألني أنا؟

- نعم، أنت. أظن أن من المهم معرفة ذلك.

شرعت هيستر ذراعيها وصاحت بأسى: لا أدري، لا أدري. إنني... إن قول ذلك أمر فظيع، ولكنني خائفة من الجميع، وكأن وراء كل وجه وجهاً آخر، وجهاً شريراً... لا أعرفه. إنني لا أشعر بالثقة في أن والدي هو والدي، وكريستي لا تنفك توصيني بألاّ أثق بأحد... ولا حتى بها. وغويندا... لقد أحببت غويندا دائماً وكنت سعيدة جداً لأن والدي سيتزوجها. لكني لم أعد واثقة من غويندا الآن. إنني أراها الآن إنسانة مختلفة وقاسية... ميالة للانتقام. لا أدري حقيقة أحد ويسيطر عليّ إحساس فظيع بالكآبة.

- نعم، أستطيع أن أتخيل هذا جيداً.

- أحس بقدر هائل من الكآبة لا أملك معه إلاّ أن أشعر بأنه ربما كانت للقاتل أيضاً حصته من الكآبة. هل ترى ذلك ممكناً؟

- أظنه ممكناً، ومع ذلك أشك. أنا لست خبيراً بالطبع... أشك في أن يشعر قاتل أبداً بالكآبة.

- ولم لا؟ أعتقد أن أكثر شيء مفزع هو أن تعرف بأنك قتلت إنساناً.

- نعم، إنه شيء فظيع؛ ولذلك أرى أن القاتل لا بد أن يكون واحداً من اثنين: إمّا شخصاً يرى أن قتل الإنسان ليس بالعمل الفظيع، شخصاً يقول في نفسه: "من المؤسف بالطبع القيام بمثل هذا العمل لكنه كان ضرورياً لمصلحتي. كما أنها ليست غلطتي؛ فلقد كنت مضطراً لفعل ذلك"، أو أن يكون...

قالت هيستر: نعم؟ ما هو النوع الآخر من القتلة؟

- أرجو أن تتذكري بأنني أخمّن فقط. أنا لا أعرف، لكني أعتقد أنك لو كنت ما تسمينه بالنوع الآخر من القتلة فإنك لن تقدري على العيش وأنت تشعرين بالتعاسة والكآبة بسبب ما فعلتِه، وعندها ستضطرين إما للاعتراف أو لإعادة صياغة القصة لإقناع نفسك مثلاً، فتضعين اللوم على شخص آخر وتقولين: "ما كان يجب أن أفعل مثل هذا العمل لو لم يحدث كذا وكذا. إنني -في الحقيقة- لست قاتلة لأنني لم أكن أقصد القتل. لقد حدث ذلك ولذلك فهو القدر وليس أنا". هل تفهمين ولو قليلاً مما أرمي إليه؟

قالت هيستر: "نعم، وأظن أنه مثير جداً"، ثم أغمضت عينيها قليلاً وقالت: إنني أحاول التفكير.

قال كالغاري: نعم يا هيستر، فكري. فكري إلى أقصى حد ممكن لأنني إن كنت سأساعدك فينبغي عليّ رؤية الأشياء من خلال عقلك أنت.

قالت هيستر ببطء: كان ميكي يكره والدتي. كان يكرهها دائماً... لا أعرف لماذا. وأظن أن تينا كانت تحبها. غويندا لم تكن تحبها. وكانت كريستي مخلصة لأمي رغم أنها لم تكن ترى والدتي محقة في كل ما فعلته. أما أبي...

سكتت لوقت طويل. وشجعها كالغاري قائلاً: نعم؟

- لقد عاد والدي للابتعاد كثيراً. لقد كان مختلفاً تماماً بعد وفاة والدتي، لم يكن... لم يكن على هذا القدر من البعد والانعزال. لقد

كان أكثر إنسانية وحيوية، لكنه عاد الآن إلى شيء من... إلى شيء من العزلة الضبابية حيث لا يمكنك الوصول إليه. لا أدري ما الذي كان يشعر به حقاً تجاه أمي، أظن كان يحبها عندما تزوجها. لم يتشاجرا أبداً لكني لا أعرف كيف كان شعوره تجاهها. آه!

مدّت ذراعيها من جديد وأضافت تقول: لا أحد يعرف بماذا يشعر الآخر، أليس كذلك؟ أقصد ما الذي يجري خلف أقنعة وجوههم ووراء كلماتهم اليومية اللطيفة؟ ربما كانت الكراهية أو كان الحب أو اليأس ينهشهم نهشاً دون أن يدري المرء! هذا مخيف... آه، هذا مخيف يا دكتور كالغاري!

أمسك بيديها وقال: "لم تعودي طفلة. الأطفال وحدهم الذين يخافون. لقد كبرت يا هيستر". ثم أرخى يديها وقال بنبرة واقعية: هل يوجد مكان تقيمين فيه بلندن؟

بدت هيستر محتارة بعض الشيء وقالت: أظن ذلك، لا أعرف. كانت أمي تقيم في العادة في فندق كيرتس.

- حسناً، إنه فندق جميل هادئ. لو كنت مكانك لذهبت إلى هناك وحجزت غرفة.

- سأفعل أي شيء تطلبه مني.

- عظيم. كم الساعة الآن؟

نظر إلى ساعة الحائط وقال: الساعة الآن السابعة. ما رأيك أن تذهبي وتحجزي لنفسك غرفة ثم آتيك في الثامنة إلاّ ربعاً لأصحبك إلى العشاء. هل هذا يناسبك؟

- إنه رائع. هل تعني ما تقول حقاً؟

- نعم، أعني ما أقول.

- ولكن بعد ذلك، ماذا سيحدث بعدها؟ لا يمكنني الإقامة في فندق كيرتس إلى الأبد؟

- إن أفقك مُشرع دائماً على الأبدية!

سألته بارتياب: هل تضحك مني؟

قال وهو يبتسم: قليلاً فقط.

ترددت تعابير وجهها ثم ما لبثت هي الأخرى أن ابتسمت وقالت كمن يفضي بسر: أحسب أنني عدت إلى «مَسْرَحة» نفسي إذا صح التعبير.

- أظن تلك إحدى عاداتك.

- هذا ما جعلني أعتقد بأنني سأنجح على خشبة المسرح. لكني لم أنجح؛ لم أكن ناجحة أبداً. آه، لقد كنت ممثلة تافهة!

- أظن أن بوسعك أن تحصلي على كل الدراما التي تريدينها من الحياة العادية. سأطلب لك الآن -يا عزيزتي- سيارة أجرة تأخذك إلى فندق كيرتس. اغسلي وجهك ومشطي شعرك. هل معك أمتعة؟

- نعم؛ لقد أحضرت معي حقيبة ملابس صغيرة.

- جيد.

ثم ابتسم لها وقال: لا تقلقي يا هيستر؛ سنفكر في شيء ما.

* * *

الفصل التاسع عشر

قال فيليب: أريد الحديث معك يا كريستي.

- نعم، بالطبع يا فيليب.

توقفت كريستي ليندستروم عن عملها. كانت قد أدخلت الغسيل وبدأت ترتبه في أدراج الخزانة، فقال فيليب: أريد أن أتحدث معك حول هذا الأمر كله. هل عندك أي مانع؟

- لقد جرت فيه الكثير من الأحاديث، هذه هي وجهة نظري.

- ولكن قد يكون من الأفضل أن نصل إلى نتيجة ما فيما بيننا. أنت تعرفين ما يدور الآن، أليس كذلك؟

- الأمور تسير بطريق معكوس في كل شيء.

- هل تظنين أن ليو وغويندا سيتزوجان قط بعد الآن؟

- ولم لا؟

- لأسباب عديدة. ربما كان أولها هو أن ليو آرغيل (وهو الرجل الذكي) يعرف أن الزواج بغويندا سيعطي الشرطة ما يريدون؛ يعطيهم

دافعاً مثالياً لقتل زوجته. أو لأن ليو يشك -من جهة أخرى- بأن غويندا هي القاتلة، وكونه رجلاً حساساً فإنه لا يحب حقاً الزواج بامرأة قتلت زوجته الأولى. ماذا تقولين في هذا؟

قالت كريستي: لا شيء. وماذا يمكن أن أقول؟

- أنت تحتفظين بما تعرفينه لنفسك، أليس كذلك يا كريستي؟

- أنا لا أفهمك.

- على من تتسترين يا كريستي؟

- أنا لا أتستر على أحد. أظن أننا يجب أن نقلل من الكلام، وأظن أن الناس يجب ألاّ يبقوا في هذا البيت لأنه ليس من مصلحتهم. وأرى يا فيليب أنك يجب أن تعود إلى بيتك مع زوجتك.

- آه، حقاً؟ ولماذا نحن على وجه الخصوص؟

- أنت الذي تسأل الأسئلة وتحاول اكتشاف الأشياء، وزوجتك لا تريدك أن تفعل ذلك. إنها أكثر حكمة منك. قد تكشف شيئاً لا تريد أنت اكتشافه أو أن زوجتك لا تريد لك أن تكتشفه. يجب أن تذهب إلى بيتك يا فيليب، يجب أن تذهب إلى بيتك بأسرع وقت.

- لا أريد الذهاب إلى البيت.

كان يتكلم كولد صغير شقي. قالت كريستي: هذا ما يقوله الأطفال. يقولون: "لا نريد أن نفعل هذا، ولا نريد القيام بذلك"، ولكن الذين يعرفون عن الحياة أكثر والذين يفهمون ما يحدث بطريقة أفضل ينبغي عليهم أن يقنعوهم بفعل ما لا يريدون فعله.

- إذن هذه هي فكرتك عن الإقناع؟ بإصدار الأوامر لي.

- لا، أنا لا أصدر لك أوامر؛ إنني أنصحك فقط.

تنهدت ثم قالت: هذه نصيحتي للجميع؛ يجب أن يعود ميكي إلى عمله كما عادت تينا إلى مكتبتها، وأنا سعيدة لأن هيستر قد رحلت؛ فسوف ستكون في مكان لا تضطر فيه لتذكّر كل هذا الأمر باستمرار.

قال فيليب: نعم؛ أتفق معك في هذا. أنت على حق بخصوص هيستر، ولكن ماذا عنك أنت يا كريستي؟ ألا ينبغي أن تذهبي أيضاً؟

قالت كريستي وهي تتنهد: نعم؛ ينبغي أن أذهب.

- ولماذا لا تفعلين؟

- أنت لن تفهم. لقد فات أوان رحيلي!

نظر فيليب إليها متأملاً ثم قال: يوجد الكثير من التنويعات، أليس كذلك؟ تنويعات على موضوع واحد. يرى ليو أن غويندا هي التي قتلتها، وغويندا تظن أن ليو هو الذي قتلها، وتينا تعرف شيئاً يجعلها تشك في الفاعل، وميكي يعرف الفاعل لكنه لا يهتم، وماري تعتقد أن هيستر هي الفاعلة.

سكت قليلاً ثم أكمل يقول: لكن الحقيقة -يا كريستي- أن هذه مجرد تنويعات على موضوع واحد كما قلت. إننا نعرف مَن قتلها معرفة جيدة، أليس كذلك يا كريستي؟ أنت وأنا؟

نظرت إليه نظرة سريعة مرعوبة فقال فيليب متهللاً: هذا ما ظننته.

- ماذا تعني؟ ماذا تريد أن تقول؟

- لا أعرف حقاً مَن الذي قتلها، لكنك تعرفين. أنت تعرفين فعلاً من قتلها. ليس من باب الظن، بل من باب التأكد. كلامي صحيح، أليس كذلك؟

ذهبت كريستي إلى الباب ففتحته ثم التفتت وتكلمت: أريد أن أقول شيئاً مع أنه غير مهذب. أنت أحمق يا فيليب. إن ما تحاول عمله خطير جداً؛ إنك تفهم نوعاً واحداً من الخطر. لقد كنتَ طياراً وواجهت الموت وأنت في السماء، أفلا يمكنك أن تفهم بأنك إن اقتربت من الحقيقة تصبح في خطر داهم لا يقل عن أي خطر واجهته أثناء الحرب؟

- وماذا عنك يا كريستي؟ ألست في خطر أيضاً إن كنت تعرفين الحقيقة؟

ردّت كريستي بحزم: بوسعي أن أهتم بنفسي. يمكنني أخذ الحيطة والحذر، أما أنت يا فيليب فإنك تجلس على كرسيك مقعداً لا حول لك ولا قوة. فكر في هذا! كما أنني لا أعلن وجهات نظري. أنا مقتنعة بترك الأمور على ما هي عليه لأنني أعتقد -بصدق- بأن هذا هو الأفضل للجميع. لو أن كل واحد ذهب واهتم بأموره الخاصة فلن تحدث أي مشكلات أخرى. ولو شئت أنا فلديّ وجهة نظري الرسمية: ما زلت أقول بأن جاكو هو الفاعل.

حملق فيليب إليها وقال: جاكو؟!

- ولِمَ لا؟ كان جاكو ذكياً، وكان يستطيع تخطيط أمر والتأكد من أنه لن يعاني من تبعاته. كان يفعل هذا كثيراً عندما كان طفلاً، ولم

يكن الأمر يقتضي على كل حال إلاّ تلفيق دفع بالغيبة. ألا يتم يومياً تلفيق مثل هذا الأمر؟

- لا يمكنه أن يلفق مثل هذا الدافع؛ فالدكتور كالغاري...

قالت كريستي وقد نفد صبرها: الدكتور كالغاري... الدكتور كالغاري! ألأنه رجل معروف، ألأن له اسماً مشهوراً تقول اسمه وكأن كلامه كتاب منزَّل! ولكن دعني أخبرك هذا: عندما تصاب بارتجاج في الدماغ (كما حدث له) فإن ذاكرتك عن التواريخ والأزمنة ستتغير تماماً!

نظر فيليب إليها وقد أمال رأسه جانباً. قال: إذن هذه هي روايتك وأنت متمسكة بها. إنها محاولة جديرة بالإكبار، لكنك -شخصياً- لا تصدقينها، أليس كذلك يا كريستي؟

- لقد حذرتك، ولا أستطيع تحذيرك أكثر من ذلك.

ذهبت ثم أدارت رأسها مرة أخرى لتقول بصوتها الواقعي المعتاد: أخبر ماري بأنني وضعت الثياب المغسولة في الدرج الثاني هناك.

ابتسم فيليب قليلاً لهذه الخاتمة الباردة، ثم تلاشت ابتسامته.

ازداد شعوره الداخلي بالإثارة وتملكه إحساس بأنه يقترب كثيراً من الحقيقة. كانت تجربته مع كريستي مرضية جداً لكنه شك في قدرته على الحصول منها على المزيد، وقد أثاره اهتمامها به. إن كونه عاجزاً مقعداً لا يعني أنه يمكن أن يكون صيداً سهلاً كما استنتجت هي؛

فهو أيضاً يستطيع أخذ الحيطة والحذر. وفوق ذلك، أليس هو محاطاً برقابة مستمرة؟ إن ماري لا تكاد تتركه أبداً.

سحب ورقة وبدأ يكتب ملاحظات مختصرة وأسماء وعلامات استفهام... نقطة ضعف ينبغي التأكد منها. وفجأة أومأ برأسه وكتب: تينا...

فكر في الأمر... ثم سحب ورقة أخرى. وعندما دخلت ماري لم يرفع بصره.

- ماذا تفعل يا فيليب؟

- أكتب رسالة.

- إلى هيستر؟

- هيستر؟ لا؛ إنني لا أعرف أين تقيم. لقد استلمت كريستي منها قبل قليل بطاقة معايدة مكتوباً في أعلاها كلمة لندن، هذا كل ما نعرفه.

ابتسم لها وقال: أظن أنك تغارين يا بولي، أليس هذا صحيحاً؟

نظرت إليه بعينيها الزرقاوين الباردتين وقالت: ربما.

أحس بشيء من عدم الارتياح. واقتربت أكثر وقالت: إلى من تكتب؟

- إلى المدعي العام.

قالها فيليب مظهِراً البهجة رغم ما ثار داخله من الغضب. ألا

يمكن للمرء أن يكتب رسالة دون أن يتعرض إلى تحقيق بشأنها. ثم رأى وجهها فزال غضبه وقال: مجرد مزحة يا بولي؛ إنني أكتب إلى تينا.

- إلى تينا؟ لماذا؟

- تينا هي هجومي التالي. إلى أين أنت ذاهبة يا بولي؟

قالت ماري وهي تخرج من الغرفة: إلى الحمام.

ضحك فيليب. إلى الحمّام... كما حدث ليلة الجريمة! ضحك ثانية وهو يتذكر الحديث الذي دار بينهما بخصوص ذلك.

* * *

قال الضابط هوش مشجعاً: هيا يا ولدي؛ لنسمع ما عندك حول الأمر.

سحب ماستر سيريل غرين نَفَساً عميقاً. وقبل أن يتكلم تدخلت أمه قائلة: كما تعرف -يا سيد هوش- فإنني لم أنتبه للأمر كثيراً في ذلك الوقت. أنت تعرف كيف يكون هؤلاء الأطفال؛ دائماً يتكلمون حول سفن الفضاء ويفكرون بها. وكان يأتي إليّ ويقول: "لقد رأيت قمراً صناعياً يا أمي، وقد هبط على الأرض". كانت «الموضة» قبل ذلك الوقت عن الأطباق الطائرة. إن هؤلاء الروس هم الذين يضعون في رؤوسهم هذه الأشياء!

تنهد الضابط هوش وفكر كم سيكون من السهل لو أن الأمهات لا يرافقن أولادهن ويتحدثن نيابة عنهم. قال: هيا يا سيريل. لقد عدتَ

إلى البيت وأخبرت أمك... هل هذا صحيح؟ أخبرتها بأنك شاهدت ذلك القمر الصناعي الروسي.

قال سيريل: لم أكن أعرف أكثر من ذلك وقتها؛ فقد كنت طفلاً صغيراً. كان ذلك قبل سنتين، أنا أعرف الآن أكثر بالطبع.

تدخلت أمه: هذه السيارات الصغيرة ذات القبة الزجاجية كانت جديدة في ذلك الوقت. لم تكن في منطقتنا سيارة منها ولذلك كان طبيعياً عندما رآها (وكانت حمراء لامعة أيضاً) أن لا يدرك أنها مجرد سيارة عادية. وعندما سمعنا صباح اليوم التالي بأن السيدة آرغيل قُتلت قال لي سيريل: "أمي، إنهم هؤلاء الروس! لقد نزلوا من القمر الصناعي ودخلوا بيتها وقتلوها". وقلت له: "لا تتحدث بكلام فارغ كهذا". ثم بعد ذلك، وفي نفس اليوم، عرفنا أن ابنها قد اعتُقل بتهمة قتلها.

وجّه هوش كلامه بصبر إلى الولد سيريل مرة أخرى قائلاً: علمت أن ذلك كان وقت المساء؟ هل تذكر الوقت؟

قال سيريل وهو يجاهد نفسه في محاولة للتذكر: كنت قد تناولت الشاي، وكانت أمي قد خرجت إلى الجمعية ولذلك خرجت ثانية لألعب مع الصبية، ثم تمشينا في ذلك الطريق الجديد.

تدخلت أمه قائلة: أريد أن أعرف ما الذي كنت تفعله هناك.

تدخل الشرطي غود الذي أحضر هذا الشاهد الواعد. كان يعرف جيداً ما الذي كان يفعله سيريل والصبية في الشارع الجديد، فقد أبلغ العديد من أصحاب البيوت عن سرقة الأزهار من حدائق بيوتهم، وكان يعلم جيداً بأن بعضاً من أصحاب السلوك المنحرف

في القرية كانوا يشجعون الصبية سراً على تزويدهم بالأزهار حتى يبيعوها في الأسواق. لكن الشرطي كان يعلم أن هذا ليس هو الوقت المناسب لنبش قضايا الأحداث الجانحين التي وقعت في الماضي، فقال بصوت متثاقل: الأولاد هم الأولاد يا سيدة غرين! إنهم يحبون التسكع في المكان.

قال سيريل: نعم، كنا نلعب ونلهو. وهناك رأيتها. قلت: ما هذا؟ إنني أعرف الآن ذلك الذي رأيته. لم أعد طفلاً ساذجاً. كانت واحدة من هذه السيارات الصغيرة ذات القبة الزجاجية، وكانت حمراء لامعة.

قال هوش صابراً: وكم كانت الساعة؟

- كما قلت؛ شربت الشاي ثم خرجنا للهو واللعب وسمعت الساعة تدق وظننت أن أمي ستعود إلى البيت وستحدث مشكلة إن لم تجدني فيه، ولذلك عدتُ إلى البيت. قلت لها إنني ظننت أنني رأيت القمر الصناعي الروسي وقد هبط، وقالت أمي بأن هذا كله كذب... لكنه لم يكن كذلك. إلاّ أنني أعرف الآن الحقيقة. كنت مجرد طفل صغير في ذلك الوقت، أفهمت؟

ردّ عليه الضابط هوش بأنه فهم. وبعد بضع أسئلة أخرى صرف السيدة غرين وابنها. تخلف الشرطي غود مظهِراً سيماء المرؤوسين في جهاز الشرطة الذين يقومون بعمل يتسم بالذكاء ويأملون أن يُسجَّل ذلك لصالحهم. قال: لقد تساءلت عما كان يقوله ذلك الولد من قتل الروس للسيدة آرغيل، وقلت في نفسي إن ذلك قد يعني شيئاً.

قال هوش: إنه يعني شيئاً فعلاً؛ فالآنسة تينا آرغيل عندها

سيارة حمراء مُقبّاة، ويبدو أنني مضطر لأن أطرح عليها بعض الأسئلة الإضافية.

* * *

- هل كنت هناك في تلك الليلة يا آنسة آرغيل؟

نظرت تينا إلى الضابط. كانت ترخي يديها على جحرها وبدت عيناها خاليتين من التعابير. قالت: لقد مضى وقت طويل على ذلك ولا أستطيع حقاً أن أتذكر.

- لقد شوهدت سيارتك هناك.

- حقاً؟

- هيا يا آنسة آرغيل. عندما سألناك عن وصف تحركاتك في تلك الليلة قلت لنا إنك عدت إلى شقتك ولم تخرجي في ذلك المساء بل أعددت لنفسك العشاء وسمعت الموسيقى. لكن هذا غير صحيح؛ فقد شوهدت سيارتك في الطريق قريباً جداً من «صني بوينت» قبل السابعة بقليل. ما الذي كنت تفعلينه هناك؟

لم تجبه. وانتظر هوش بضع لحظات ثم تكلم ثانية: هل دخلت البيت يا آنسة آرغيل؟

قالت تينا: لا.

- لكنك كنت هناك؟

- أنت تقول ذلك.

- المسألة ليست مسألة قولي ذلك؛ لدينا دليل على أنك كنت هناك.

تنهدت تينا ثم قالت: نعم؛ لقد خرجت بسيارتي إلى المنطقة في تلك الليلة.

- لكنك تقولين إنك لم تدخلي البيت؟

- نعم؛ لم أدخل البيت.

- وماذا فعلت؟

- عدت إلى ريدمن ثانية. ثم -كما قلت لك- جهزت لنفسي طعاماً وشغّلت جهاز التسجيل.

- ولماذا ذهبت إلى هناك بالسيارة إن كنتِ لا تريدين الدخول إلى البيت؟

- لقد غيرت رأيي.

- وما الذي جعلك تغيرين رأيك يا آنسة آرغيل؟

- عندما وصلت إلى هناك لم أشأ الدخول.

- بسبب شيء رأيتِه أو سمعتِه؟

لم تجبه.

- اسمعي يا آنسة آرغيل. كانت تلك هي الليلة التي قُتلت فيها أمك، لقد قُتلت ما بين السابعة والسابعة والنصف في تلك الليلة، وأنت كنتِ هناك، كانت سيارتك هناك قبل السابعة بوقت قليل. لا نعرف إلى متى ظلت هناك، ومن الممكن أنها ظلت هناك لبعض

الوقت. ربما دخلت إلى البيت، وأعتقد أن معك مفتاحاً...

- نعم، معي مفتاح.

- ربما دخلت البيت، وربما دخلت إلى غرفة جلوس والدتك ووجدتها هناك ميتة. أو ربما...

رفعت تينا رأسها وقالت: أو ربما قتلتها؟ هل هذا ما تريد قوله يا حضرة الضابط؟

- إنه أحد الاحتمالات، لكني أعتقد بأن الأرجح -يا آنسة آرغيل- هو أن يكون القاتل شخصاً آخر. إن كان هذا صحيحاً فأعتقد أنك تعرفين... أو أن لديك اشتباهاً قوياً جداً بالقاتل.

قالت تينا: أنا لم أدخل إلى البيت.

- إذن فقد رأيتِ شيئاً أو سمعتِ شيئاً. رأيت شخصاً يدخل البيت أو يغادره وربما كان شخصاً لا يعرف أحد بوجوده هناك. هل هو أخوك مايكل يا آنسة آرغيل؟

- لم أر أحداً.

ردّ عليها هوش بذكاء: لكنك سمعت شيئاً. ما الذي سمعتِه يا آنسة آرغيل؟

- قلت لك بأنني غيرت رأيي فقط.

- أرجو أن تعذريني يا آنسة آرغيل إن قلت لك إنني لا أصدق ما تقولين. لماذا تأتين بسيارتك من ريدمن لتزوري عائلتك ثم تعودين

دون أن تريهم؟ لا شك أن شيئاً ما قد جعلك تغيرين رأيك؛ شيئاً رأيتِه أو سمعتِه.

ثم مال إلى الأمام وقال: أحسب أنك تعرفين من قتل والدتك يا آنسة آرغيل.

هزت رأسها ببطء شديد علامة النفي فقال هوش: أنت تعرفين شيئاً، شيئاً تصرّين على ألاّ تقوليه. ولكن فكري يا آنسة آرغيل، فكري بحذر شديد. هل تدركين بأنك في هذه الحالة تحكمين على جميع أفراد عائلتك بالشقاء والمعاناة؟ هل تريدين لهم جميعاً أن يبقوا عرضة للشبهة... لأن هذا ما سيحدث ما لم نتوصل إلى الحقيقة. إن من قتل والدتك (كائناً من كان) لا يستحق التستر عليه لأن هذا هو ما يحدث، أليس كذلك؟ إنك تتسترين على شخص ما.

نظرت إليه مرة أخرى بعينيها السوداوين وقالت: لا أعرف شيئاً؛ لم أسمع أي شيء، ولم أرَ أي شيء. لقد... لقد غيرت رأيي فقط.

* * *

الفصل العشرون

تبادل كالغاري وهوش النظرات. رأى كالغاري في عيني الرجل الجالس أمامه عبوساً واكتئاباً لم يرَ مثله من قبل، فقد بدا محبَطاً جداً مما جعل كالغاري يفترض أن مهمة هوش كانت سلسلة طويلة من الفشل. وقد فوجئ عندما اكتشف -فيما بعد- أن الضابط هوش كان رجلاً ناجحاً جداً في عمله. رأى هوش أمامه رجلاً نحيلاً غزا الشيب رأسه قبل الأوان مع كتفين منحدرتين قليلاً ووجه حساس وابتسامة جذابة جداً.

بدأ كالغاري الحديث: أظن أنك لا تعرفني.

قال هوش: آه، إننا نعرف عنك كل شيء يا دكتور كالغاري. أنت «الجوكر» الذي أفسد قضية آرغيل.

ثم بدت ابتسامة حزينة غير متوقعة على فمه الحزين، فقال كالغاري: إذن فأنت لا تكاد تنظر إليّ بعين الرضا.

- يحدث هذا في عملنا كثيراً. كانت تبدو قضية واضحة ولا يمكن لوم أحد على هذا التفكير، لكن مثل هذه الأمور تحدث، وهي أمور تأتي لامتحاننا كما كانت أمي تقول. إننا لا نحمل أي حقد

عليك يا دكتور كالغاري؛ فنحن نمثل العدالة في نهاية المطاف، أليس كذلك؟

- هذا ما كنت أعتقد دائماً وما زلت. «لن نبخل بالعدالة على أي إنسان».

قال هوش: من العهد العظيم؛ «الماغنا كارتا»؟

- نعم، هذا ما اقتبسته لي الآنسة تينا آرغيل.

رفع الضابط هوش حاجبيه دهشة وقال: إنك تفاجئني. أحسب أن تلك الفتاة لم تكن نَشِطة في مساعدتنا على تحقيق العدالة.

- ولماذا تقول هذا؟

- بصراحة، بسبب إخفائها للمعلومات. لا شك في ذلك.

- لماذا؟

- إنه شأن عائلي، والعائلات تتضامن مع بعضها البعض. ولكن لماذا كنت تريد رؤيتي؟

- أريد معلومات.

- بخصوص قضية آرغيل؟

- نعم، رغم أنني أدرك أنكم تعتبرونني متطفلاً وأتدخل في مسألة لا تعنيني.

- بل هي من شأنك فعلاً، أليس كذلك؟

- آه، ها أنت تقدّر هذا. نعم، أشعر بالمسؤولية. المسؤولية عن التسبب بمتاعب.

- لا يمكنك عمل عجة دون أن تكسر بيضاً... كما يقول الفرنسيون!

- توجد أشياء أود معرفتها.

- مثل ماذا؟

- أريد المزيد من المعلومات عن جاكو آرغيل.

- بخصوص جاكو آرغيل؟ حسناً، لم أتوقع منك هذا الطلب.

- أعرف أن سجله سيئ، لكني أريد بعض التفاصيل من ذلك السجل.

- هذا بسيط؛ لقد أُطلق سراحه لفترة اختبار مرتين، وفي حادثة أخرى عُلِّقت عقوبته بتهمة اختلاس أموال بعد أن استطاع سداد الأموال المختلسة في الوقت المناسب.

- مشروع مجرم صغير، أليس كذلك؟

- تماماً. إنه ليس قاتلاً كما أوضحتَ ذلك لنا، لكنه ارتكب كثيراً من الجُنح الأخرى، رغم أنه لم يصل إلى ارتكاب جرائم كبرى. لم يكن يملك الذكاء أو الجرأة ليقوم بعملية احتيال كبيرة. كان مجرماً تافهاً؛ ينشل النقود من أدراج الخزائن ويخدع النساء ليأخذ منهن النقود.

قال كالغاري: وكان بارعاً في هذا. أقصد إغواء النساء والحصول منهن على النقود.

- وهو تخصص لطيف وآمن جداً، فالنساء يقعن في حبائله بسهولة تامة. كانت النساء الكهلات أو اللاتي في وسط العمر هن

أهدافه المختارة، ولسوف يدهشك لو عرفت مدى سذاجة هذا النوع من النساء. كان ينجح في عمله هذا كثيراً، فيجعلهن يعتقدن أنه يحبهن حباً حقيقياً. وما من شيء تتردد المرأة في تصديقه إن هي أرادت تصديقه.

- ثم ماذا؟

رفع هوش كتفيه وقال: كانت تزول الغشاوة عن أعينهن عاجلاً أو آجلاً. لكنهن لا يُقِمن دعاوى عليه؛ إذ لا يردن أن يعرف الناس أنه استغفلهن. نعم، كان ذلك اختصاصاً آمناً جداً بالنسبة له.

- هل كان يقوم بالابتزاز؟

- لم نعرف عنه ذلك، ولكني ما كنت لأستغرب قيامه به. ولا أعني هنا الابتزاز المكشوف الخطير، ربما بعض التلميحات: رسائل، رسائل حمقاء، أشياء لا يرضى عنها الأزواج إذا ما اكتشفوها... كان يستطيع إسكات النساء بتلك الطريقة.

- فهمت.

- أهذا كل ما أردت معرفته؟

- بقي واحد من عائلة آرغيل لم أره بعد. الابنة الكبرى.

- آه! السيدة ديورانت.

- ذهبت إلى بيتها لكنه كان مقفلاً، وأخبرني الجيران أنها رحلت مع زوجها.

- إنهما في «صني بوينت».

- ما زالا هناك؟

- نعم؛ فزوجها يريد البقاء. فهمت أن السيد ديورانت يقوم ببعض التحريات.

- إنه مقعد، أليس كذلك؟

- بلى؛ مصاب بالشلل. محزن جداً، ولكن لديه الكثير من أوقات الفراغ. رجل مسكين. هذا ما يجعله يتحمس لموضوع الجريمة هذه، كما أنه يرى أنه بصدد التوصل إلى شيء ما.

- وهل هو كذلك؟

رفع هوش كتفيه حيرة ثم قال: قد يكون. إن فرصته أفضل منّا؛ فهو يعرف العائلة، كما أنه رجل ذو إحساسٍ وذكاء بالغين.

- هل تعتقد بأنه سيصل إلى شيء؟

- ممكن، لكنه لن يخبرنا لو توصل إلى شيء، بل سيبقى الأمر بين أفراد العائلة.

- هل تعرف أنت من هو المجرم يا حضرة الضابط؟

- يجب ألاّ تسألني أسئلة كهذه يا دكتور كالغاري.

- أيعني هذا أنك تعرف؟

- ربما ظن المرء أنه يعرف شيئاً، ولكن إذا لم يوجد دليل فلا يمكن عمل أي شيء.

- أوَ ليس مرجحاً أن تحصل على الدليل الذي تريد؟

- آه، نحن صبورون جداً؛ وسنواصل المحاولة.

- ما الذي سيحدث لهم إن لم تنجحوا؟ هل فكرتم في هذا؟

نظر هوش إليه ثم قال: هل هذا ما يقلقك يا سيدي؟

- يجب أن يعرفوا. مهما كان الذي سيحدث، يجب أن يعرفوا.

- ألا تعتقد أنهم يعرفون؟

هزّ كالغاري رأسه وقال ببطء: لا؛ وهذه هي المأساة.

* * *

قالت مورين كليغ: آه، أنت ثانية؟!

- أنا آسف جداً جداً لإزعاجك.

- أنت لا تزعجني. تفضل، إنه يوم راحتي.

كانت تلك حقيقة يعرفها كالغاري، وهي سبب وجوده هناك. قالت مورين: أتوقع عودة جو الآن. إنني لم أرَ أي شيء في الصحف عن جاكو... أقصد منذ أن قالت الصحف بأنه قد حصل على تبرئة، إضافة إلى شيء حول سؤال تمّ طرحه في البرلمان، ثم القول بأنه واضح تماماً أنه لم يقتلها. ولكني لم أقرأ شيئاً عما يقوم به الشرطة وعن الذي قتلها فعلاً. ألا يمكنهم معرفة الحقيقة؟

- أما زلت لا تعرفين شيئاً؟

- الحق أنني لا أعرف. ومع ذلك لن أفاجَأ إن كان الفاعل أخاه الآخر. إنه غريب الأطوار جداً ومتقلب المزاج، وأحياناً يراه جو وهو

يُركب الناس معه في السيارة ويدور بهم. إنه يعمل في شركة بينس، وهو وسيم لكنه متقلب المزاج. لقد سمع جو إشاعة تقول إنه سيسافر إلى الخليج العربي، وأظن أن هذا يجعل الأمر سيئاً، أليس كذلك؟

- لا أرى لماذا يمكن أن يكون سيئاً يا سيدة كليغ.

- إنه مكان لا تصل الشرطة فيه إليه.

- هل تظنين أن سفره من باب الهروب؟

- ربما أحس أن عليه أن يفعل ذلك.

- أظن أن هذا ما يقوله الناس.

- تدور الكثير من الإشاعات. يقولون إن الزوج وسكرتيرته سيتزوجان، ولكن لو كان الزوج هو الفاعل فإن الاحتمال الأكبر هو أن يقتلها بالسم. هذا ما يفعله الأزواج في العادة، أليس كذلك؟

- أنت تشاهدين أفلام السينما أكثر مني يا سيدة كليغ.

- الحق أنني لا أتابع الأفلام على الشاشة. لو قُدِّر لك أن تعمل في دار سينما لشعرت بالضجر من الأفلام. حسناً، ها قد جاء جو.

بدا جو كليغ مدهوشاً أيضاً لرؤية كالغاري، وربما لم يكن مسروراً. تحدثوا معاً لبعض الوقت، ثم جاء كالغاري إلى الغرض من زيارته وقال: هل يمكنك إعطائي اسم شخص وعنوانه؟

ثم سجّله في دفتره بعناية.

* * *

كانت في الخمسين من عمرها تقريباً حسب ما رآه، امرأة ثقيلة بطيئة الحركة لا يمكن أن تكون جميلة في أيام صباها. ومع ذلك فقد كانت عيناها جميلتين بنيتين يشع منهما بريق الود. قالت بشيء من الريبة والانزعاج: حسناً يا دكتور كالغاري... حسناً، أنا واثقة من أنني لا أعرف.

مال إلى الأمام محاولاً جهده إزالة ترددها وتهدئتها ولكي يجعلها تشعر بكامل تعاطفه معها. قالت: لقد مضى وقت طويل الآن. إن... الحق أنني لا أريد أن يذكّرني أحد بهذه... بهذه الأشياء.

قال كالغاري: أنا أفهم هذا، كما أنني لم أقل بأنني سأدفع أي شيء. إنني أؤكد لك هذا فعلاً.

- ومع ذلك فأنت تقول إنك تريد تأليف كتاب حول هذا الأمر؟

- إنه مجرد كتاب لتوضيح نمط معين من الشخصيات. شخصية مثيرة من وجهة النظر الطبية أو السيكولوجية. لن أذكر فيه أسماء، بل سأشير إلى الشخصيات بالسيد «أ» أو السيدة «ب» مثلاً.

قالت فجأة: كنتَ في القطب الجنوبي، أليس كذلك؟

فوجئ بهذا السؤال غير المتوقع الذي غيرت به الموضوع. قال: بلى، بلى، كنت مع حملة «هايس بنتلي» الاستكشافية.

علت الحمرة وجهها فبدت أصغر سناً، واستطاع للحظة أن يرى كيف كانت في صباها. قالت: كنت أقرأ عنها. إنني مولعة دائماً بمعرفة أي شيء له علاقة بالقطبين. ذلك النرويجي أموندسين الذي وصل إلى

هناك أول مرة، أليس كذلك؟ أظن أن القطبين مكانان مثيران أكثر من قمة إيفرست أو من محاولة السفر إلى القمر أو ما شابه ذلك.

توقف عن أداء مهمته التي جاء من أجلها وبدأ يتحدث معها عن الحملة. غريب أن يكون اهتمامها الرومنسي منصباً على حملات استكشاف القطبين. وأخيراً قالت وهي تتنهد: "أمر رائع أن أسمع كل ذلك من شخص كان هناك فعلاً". ثم قالت: تريد أن تعرف كل شيء عن... عن جاكو؟

- نعم.

- ألن تذكر اسمي أو أي شيء آخر عني؟

- بالطبع لن أفعل؛ لقد أخبرتك بذلك. أنت تعرفين كيف تتم مثل هذه الأشياء. نقول السيدة «م» والليدي «ي»، هكذا.

- نعم، نعم، لقد قرأت مثل هذه الكتب، وأظن أنك قلت بأنه باث... باثو...

- باثولوجيا، نعم، علم الأمراض.

- نعم، كان جاكو حالة مرضية بالتأكيد. كان حلو المعشر دائماً، كان رائعاً، كان يقول أشياء فتصدق كل كلمة يقولها.

قال كالغاري: ربما كان يعنيها.

- كنت أقول له دائماً: "أنا في سن أمك"، وكان يردّ عليّ بأنه لا يميل إلى الفتيات الصغيرات ويصفهن دائماً بعدم النضج. كان يقول لي إن النساء الناضجات الكبيرات يجذبنه أكثر.

- هل كان يحبك كثيراً؟

- قال لي إنه يحبني. كان يبدو كذلك.

ارتعشت شفتاها وأضافت: ولكني أظن أنه كان يجري خلف المال فقط طوال الوقت.

قال كالغاري وهو يجهد نفسه بالتغاضي عن الحقيقة قدر المستطاع: ليس بالضرورة، فربما كان منجذباً إليك انجذاباً حقيقياً أيضاً. إلاّ أنه... لم يستطع تمالك انحرافه.

أشرق وجه المرأة المثير للشفقة وقالت: نعم، جميل أن ترى ذلك. هذا ما حصل. كنّا نضع الخطط: كيف كنّا سنذهب إلى فرنسا معاً أو إلى إيطاليا إن نجح مشروعه هذا، وكان يقول إن الأمر بحاجة إلى بعض المال فقط.

فكر كالغاري قائلاً في نفسه إن هذا هو المدخل المعتاد، وتساءل كم من النساء أمثالها وقعن في هذا الفخ.

- لا أدري ما الذي أصابني. كنت على استعداد لأن أفعل أي شيء من أجله، أي شيء!

قال كالغاري: أنا واثق من هذا.

ثم قالت بمرارة: أظن أنني لم أكن الوحيدة.

نهض كالغاري ثم قال: أمر جميل منك أن تخبريني بكل هذا.

- إنه ميت الآن، لكني لن أنساه. وجهه الذي يشبه القرد! كيف

كان يبدو حزيناً جداً ثم يضحك. آه، كان ذا جاذبية! لم يكن سيئاً تماماً. أنا واثقة من أنه لم يكن سيئاً تماماً.

نظرت إليه باكتئاب، لكن كالغاري لم يكن يمتلك إجابة على ذلك.

* * *

الفصل الحادي والعشرون

لم يكن في هذا اليوم أي شيء يدل فيليب ديورانت على أنه يوم مختلف عن أي يوم آخر، لم يكن يعرف أن هذا اليوم سيحدد مستقبله مرة واحدة وإلى الأبد. صحا من نومه وهو يتمتع بصحة جيدة ومعنويات عالية. الشمس، شمس الخريف الباهتة أرسلت أشعتها إلى الغرفة من خلال النافذة. وأبلغته كريستي رسالة هاتفية رفعت من معنوياته أكثر.

أخبر ماري عندما دخلت عليه ومعها الإفطار: ستأتي تينا لشرب الشاي عصر اليوم.

- حقاً؟ آه، نعم بالطبع، إنه وقت عطلتها، أليس كذلك؟

بدت ماري مشغولة البال فسألها: ما بالك يا بولي؟

- لا شيء.

قشّرت له البيضة. وأحس بالغضب على الفور وقال: ما زلت أستطيع استخدام يديّ يا بولي.

- آه، ظننت أن ذلك سيوفر عليك العناء.

- كم ترين عمري؟

أبدت بعض الدهشة، ثم قالت بسرعة: ستأتي هيستر اليوم.

- حقاً؟

تكلم معها بأسلوب غامض لأنه كان مشغول الذهن بخططه حول كيفية التعامل مع تينا، ثم رأى تعابير وجه زوجته فقال: بالله عليك يا بولي! هل تظنين أنني أحمل أي عاطفة خاصة تجاه تلك الفتاة؟

أدارت رأسها جانباً وقالت: أنت تقول دائماً إنها جميلة جداً.

قال: "هي كذلك فعلاً، إن كان المرء يميل إلى الرشاقة وإلى تلك المسحة من الغموض". ثم أضاف بجفاء: لا تكوني سخيفة يا بولي؛ لم أكن أعرف أبداً أن لديك مثل هذه النزعة إلى الغيرة.

- أنت لا تعرف عني شيئاً.

أراد أن يدفع عن نفسه هذه التهمة لكنه سكت. خطر بباله بشيء من الصدمة أنه قد لا يعرف عن ماري الكثير. ثم أكملت تقول: أريدك لنفسي، أريدك كلّك لي ولا أريد أن يكون معي ومعك أحد في هذا العالم.

- لقد استنفدنا الأحاديث يا بولي.

قال ذلك بشكل عرضي عابر، ولكنه شعر بعدم الارتياح. بدا وهج الصباح المضيء وكأنه قد غيّم فجأة. قالت: لنذهب إلى البيت يا فيليب، أرجوك، دعنا نعد إلى البيت.

- سنعود قريباً جداً ولكن ليس الآن. الأمور تسير سيراً متقدماً، وكما قلت لك فإن تينا ستأتي عصر اليوم.

ثم أكمل على أمل أن يبعد تفكيرها نحو موضوع آخر: إنني أعلق آمالاً عظاماً على تينا.

- كيف؟

- تينا تعرف شيئاً.

- تقصد... بخصوص الجريمة؟

- نعم.

- ولكن كيف لها أن تعرف؟ إنها لم تكن هنا تلك الليلة.

- هذا ما أشك به الآن؛ أظن أنها كانت هنا. غريب كيف تظهر الأشياء الصغيرة وتساعدنا. إن تلك الخادمة الطويلة السيدة ناراكوت... لقد قالت لي شيئاً.

- ما الذي قالته لك؟

- شيئاً من أقاويل القرية. لقد ذهبت سيدة تدعى السيدة سيريل (أو اسماً كهذا) مع ابنها الصغير إلى مركز الشرطة. لقد رأى شيئاً ليلة مقتل السيدة آرغيل المسكينة.

- وما الذي رآه؟

- كانت السيدة ناراكوت غير واضحة في هذا. إنها لم تأخذ الخبر من تلك السيدة بعد، ولكن يمكن لنا أن نخمّن، أليس كذلك يا بولي؟ لم يكن سيريل داخل البيت ولذلك لا بد أن يكون قد رأى

شيئاً في الخارج. وهذا يعطينا احتمالين؛ إما أنه رأى ميكي أو رأى تينا. وتخميني هو أن تينا قد جاءت إلى هنا تلك الليلة.

- لو جاءت لقالت ذلك.

- ليس بالضرورة. من الواضح جداً أن تينا تعرف شيئاً لا تريد قوله. ربما خرجت بسيارتها تلك الليلة ودخلت إلى البيت ووجدت أمك مقتولة.

- ثم خرجت ثانية دون أن تقوم أي شيء؟ هراء.

- ربما توجد أسباب... قد تكون شاهدت أو سمعت شيئاً جعلها تعرف من الذي قتلها.

- هي لم تكن تحب جاكو كثيراً؛ أنا واثقة من أنها لم تكن ستتستر عليه.

- إذن قد لا يكون جاكو هو الذي اشتبهت به. ولكن عندما اعتُقل جاكو بعد ذلك اعتقدت أن ما اشتبهت به كان خطأً، وبما أنها قالت إنها لم تكن موجودة في البيت فقد كان عليها أن تصرّ على أقوالها هذه. ولكن الأمور الآن مختلفة بالطبع.

قالت ماري وقد نفد صبرها: هذه خيالاتك فقط يا فيليب. إنك تتخيل أموراً كثيرة لا يمكن أن تكون صحيحة.

- بل هي أمور يُحتمَل كثيراً أن تكون صحيحة. سأحاول حمل تينا على إخباري بما تعرفه.

- لا أظن أنها تعرف أي شيء. هل تعتقد حقاً أنها تعرف القاتل؟

- لا أريد أن أذهب إلى هذا الحد. أظن أنها رأت شيئاً أو سمعت شيئاً، وأريد أن أعرف ما هو هذا الشيء.

- لن تخبرك تينا إن كانت لا تريد ذلك.

- نعم، أتفق معك. كما أنها ماهرة جداً في كتمان الأمور ولا يظهر عليها أي شيء. لكنها ليست بارعة في الكذب... ليست بارعة في الكذب مثلك على سبيل المثال! سوف أتبع معها أسلوب التخمين؛ سأضع تخميني أمامها على هيئة سؤال لكي تجيب عليه بنعم أو بلا. أتعرفين ما الذي سيحدث عندها؟ واحد من ثلاثة: إما أن تقول نعم (وعندها سيتضح الأمر)، أو ستقول لا (وبما أنها ليست بارعة في الكذب فسوف أعرف إن كانت كلمة «لا» هذه حقيقية أو لا)، أو أنها سترفض الإجابة وتُظهر وجهاً خالياً من التعبير... وسيكون هذا -يا بولي- كما لو أنها أجابتني بنعم. هيا، لا بد أن تعترفي بأن في هذا الأسلوب الذي سأتبعه احتمالات معينة.

- آه، اترك هذا الأمر يا فيليب. أرجوك، اتركه ولا تتدخل! كل شيء سيهدأ ويتم نسيانه.

- لا. يجب توضيح هذا الأمر وكشفه، وإلاّ سنجد هيستر تلقي بنفسها من النافذة وتصاب كريستي بانهيار عصبي، أما ليو فهو مرعوب أصلاً، وبالنسبة لغويندا المسكينة فإنها على وشك قبول وظيفة في روديسيا.

- وماذا يهمك فيما يحدث لهم؟

- لا أحد يهم سوانا... هل هذا ما تعنينه؟

تصلب وجهه وامتلأ غضباً مما أخاف ماري. لم تشاهد زوجها على هذه الحال من قبل أبداً. واجهته بتحدٍّ وسألته: ولماذا أهتم بالآخرين؟

- أنت لم تهتمي بهم أبداً، أليس كذلك؟

- لا أفهم ما تعنيه.

تنهد فيليب بحدة، ثم دفع صينية الإفطار جانباً وقال: أبعدي هذه عني؛ لا أريد أي طعام.

- ولكن يا فيليب...

لوّح بيده معرباً عن نفاد صبره، فرفعت ماري الصينية وحملتها معها خارج الغرفة. دفع فيليب كرسيه إلى طاولة الكتابة. ثم نظر إلى خارج النافذة والقلم بيده، وأحسّ بكبت واكتئاب غريبين في روحه. لقد كان مليئاً بالنشاط والانفعال قبل وقت قصير، أما الآن فقد أحسّ بالتململ وعدم الارتياح. لكنه استجمع قواه على الفور، فملأ ورقتين بكتابة سريعة، ثم جلس يفكر. كان أمراً مقبولاً... كان ممكناً، ولكنه لم يكن مقتنعاً تماماً. هل كان يسير في الاتجاه الصحيح حقاً؟ لم يستطع الجزم بذلك. الدافع... الدافع هو الشيء الناقص الذي لا أثر له. يوجد عامل معين في مكان ما لكنه لا يعرفه.

تنهد بنفاد صبر. إنه لا يكاد يطيق انتظار وصول تينا. لو أنه استطاع فقط توضيح هذا الأمر بينهم فقط؛ كان ذلك كل ما هو مطلوب. عندما يعرفون الحقيقة سيكونون جميعاً أحراراً، أحراراً من جو الشبهات واليأس الذي يغلف حياتهم، كلهم جميعاً -باستثناء

واحد منهم- سيتمكنون من مواصلة حياتهم الطبيعية. ويستطيع هو وماري بعدها العودة إلى بيتهما و...

توقفت أفكاره وتلاشت الإثارة من جديد. لقد واجه مشكلته الخاصة؛ إنه لا يريد العودة إلى البيت. فكّر في نظافة منزله وترتيبه، الستائر النظيفة والنحاسيات اللامعة... قفص نظيف لامع معتنى به جيداً. وهو في القفص، مربوط بكرسيه المتحرك ومحاط برعاية زوجته.

زوجته... عندما كان يفكر في زوجته كان يبدو أنه يرى امرأتين. الأولى الفتاة التي تزوجها، الشقراء ذات العيون الزرق، اللطيفة المتحفظة. تلك هي الفتاة التي أحبها، الفتاة التي كان يغبطها بينما تحدق هي إليه عابسة حائرة. كانت تلك فتاته بولي. ولكن كانت هناك ماري أخرى. ماري الصلبة القاسية كالفولاذ التي كانت انفعالية ولكنها غير قادرة على الحب، ماري التي لم يكن يهمها أحد سواها، وحتى هو لم يكن يهمها إلاّ لأنه ملك لها فقط. وهو لم يحب ذلك الجزء الآخر من ماري، فوراء هاتين العينين الزرقاوين الباردتين كانت توجد امرأة غريبة... غريبة لم يعرفها!

ثم ضحك من نفسه، فقد أدرك أنه يزداد عصبية واهتياجاً مثله مثل أي واحد آخر في البيت. تذكر حماته عندما كانت تتحدث معه عن زوجته، عن الفتاة الصغيرة الشقراء الجميلة في نيويورك، عن اللحظة التي طوقت فيها الطفلة رقبة السيدة آرغيل بذراعيها وصاحت: "أريد أن أبقى معك؛ لا أريد تركك أبداً"!

كان ذلك حُباً، أليس كذلك؟ ومع هذا... لَكَم يبدو ذلك غريباً عن شخصية ماري. هل يمكن للطفلة أن تتغير إلى هذا الحد إذا ما

كبرت وأصبحت امرأة؟ كم كان صعباً (بل مستحيلاً) على ماري أن تبوح بحبها وأن تظهره علانية؟

ومع ذلك فقد انقطع حبل أفكاره عند تلك الحادثة. أم أن الأمر كان بسيطاً جداً؟ أتراه لم يكن حباً ما أظهرته آنذاك... بل مجرد تصرف محسوب؟ أيكون وسيلة لغاية معينة؟ أتراه مشهد حب تمّ إدراجه عمداً؟ إلى أي مدى كان من شأن ماري أن تذهب لتحقيق ما تريد؟ إلى كل مدى تقريباً! هكذا رأى، وقد صدمه تفكيره بذلك.

ألقى بقلمه غاضباً وحرّك كرسيه خارج غرفة الجلوس إلى غرفة النوم المجاورة. ذهب إلى طاولة الزينة وأمسك بمشطه ومشط شعره إلى الخلف بعد أن كان قد تدلّى فوق جبينه، فبدا له وجهه غريباً في المرآة. فكر في نفسه قائلاً: من أنا وإلى أين أنا ذاهب؟

أفكار لم تخطر بباله من قبل.ثم اقترب بكرسيه من النافذة وأطل خارجها، وهناك في الخارج كانت إحدى الخادمات واقفة خارج نافذة المطبخ تتحدث مع زميلة لها في الداخل. وصلت أصواتهما الناعمة باللهجة المحلية إلى أسماعه، وفيما أخذت عيناه تتسعان بقي هناك ساكناً كالمسحور.

نبهه صوت قادم من الغرفة المجاورة وانتشله من أفكاره، فحرك كرسيه إلى الباب الموصل إلى غرفة الجلوس. كانت غويندا فوغان تقف قرب طاولة الكتابة، فالتفتت إليه فجفل مما رآه من تعب وإرهاق في وجهها تحت أشعة شمس الصباح. قال: مرحباً يا غويندا.

- أهلاً يا فيليب. لقد ظن ليو أنك ربما تريد جريدة «أخبار لندن المصورة».

- آه، شكراً لك.

قالت غويندا وهي تنظر حولها: هذه غرفة جميلة. لا أظن أنني دخلتها قبل هذه المرة.

- إنها مثل الجناح الملكي، أليس كذلك؟ بعيدة عن الجميع. إنها غرفة مثالية للمعاقين والعرسان في شهر العسل.

لكنه تمنى بعد فوات الأوان لو أنه لم يقل تلك الكلمات الأخيرة. ارتعش وجه غويندا وقالت بشكل مبهم: أريد أن أقوم ببقية أعمالي.

- السكرتيرة المثالية.

- لست مثالية هذه الأيام؛ إنني أرتكب أخطاء.

قال: "كلنا يخطئ، أليس كذلك؟"، ثم أضاف عامداً: متى ستتزوجان أنت وليو؟

- قد لا نتزوج أبداً.

- سيكون هذا خطأ حقيقياً.

- يعتقد ليو أن زواجنا قد يسبب تعليقات غير مستحبة... من قبل الشرطة!

كانت المرارة بادية في صوتها، فأجابها: بغضّ النظر عن كل ذلك يا غويندا، لا بد للمرء من بعض المجازفة.

- أنا مستعدة للمجازفة. لم أهتم أبداً بخوض المجازفات، بل إنني مستعدة لأقامر من أجل السعادة. لكن ليو...

- نعم؟ ما بال ليو؟

- قد يموت ليو كما عاش زوجاً لراينا آرغيل.

فوجئ بمنظر الغضب والمرارة في عينيها. قالت: إنها تبدو كما لو أنها ما زالت على قيد الحياة. إنها هنا في البيت... طول الوقت!

* * *

الفصل الثاني والعشرون

أوقفت تينا سيارتها على العشب القريب من حائط مقبرة الكنيسة. أزاحت الورقة التي كانت تغطي الأزهار التي اشترتها ثم دخلت بوابة المقبرة وسارعت على الممر الرئيسي. لم تعجبها المقبرة الجديدة، بل كانت تتمنى لو أن السيدة آرغيل قد دُفنت في المقبرة القديمة التي كانت تحيط بالكنيسة، فهناك كان يوجد هدوء العالم القديم الذي توحي به الحجارة المكسوة بالطحالب، أما في هذه المقبرة الجديدة جداً والمرتبة جداً بممراتها وطرقها التي تحيط بها فإن كل شيء كان يبدو مصقولاً ومبنياً وفق مبدأ الإنتاج الجماهيري، وكأنه محتويات المخازن.

كان قبر السيدة آرغيل يجد عناية جيدة. كان محاطاً بأحجار مربعة من الرخام المليء بشظايا الغرانيت ومن وراء القبر بُني حجر الشاهد من الغرانيت أيضاً. مالت تينا إلى أسفل لتقرأ النقش على الحجر وهي تحمل أزهار القرنفل. كان منقوشاً عليه: «في ذكرى راينا لويس آرغيل العطرة». وأسفل منها كانت توجد عبارة: «سيكبر أبناؤها ويدعون لها بالرحمة».

سمعت تينا وقع أقدام وراءها فالتفتت مرعوبة ثم هتفت: ميكي!

- لقد رأيت سيارتك فتبعتك، وكنت قادماً إلى هنا على أية حال.

- كنتَ قادماً إلى هنا؟ لماذا؟

- لا أدري، ربما جئت لأقول وداعاً.

- وداعاً... لها؟

أومأ برأسه وقال: نعم؛ لقد أخذت الوظيفة التي حدثتك عنها في شركة النفط، وأنا راحل خلال ثلاثة أسابيع.

- وجئت إلى هنا لتودع أمي أولاً.

- نعم، وربما لأشكرها وأقول لها بأنني آسف.

- وعلام تأسف يا ميكي؟

- لست آسفاً على قتلها إن كان هذا ما تحاولين التلميح إليه. هل كنتِ تعتقدين بأنني قتلتها يا تينا؟

- لم أكن واثقة.

- كما لا يمكنك أن تكوني واثقة الآن أيضاً، أليس كذلك؟ أعني أن لا فائدة من إخبارك بأنني لم أقتلها.

- لماذا أنت آسف؟

ردّ عليها ميكي ببطء: لقد فعلت لي الكثير ولم أُبدِ لها أي

امتنان أبداً. كنت أكره كل شيء قامت به، ولم تكن تسمع مني كلمة طيبة واحدة أو ترى مني نظرة حب. أتمنى الآن لو أنني أبديت لها كل ذلك... هذا كل ما في الأمر.

- متى توقفت عن كراهيتها؟ بعد موتها؟

- نعم، أظن ذلك.

- لم تكن تكرهها هي، أليس كذلك؟

- بلى، بلى؛ لم أكرهها أبداً؛ لقد كنتِ محقة في هذا. كنت أكره أمي الحقيقية لأنني أحببتها، لأنني أحببتها ولم تكن تهتم بي أبداً.

- أماّ الآن فإنني لا أراك حتى غاضباً من ذلك؟

- نعم. لا أظن أنها كانت تستطيع غير ذلك؛ فالإنسان يولد على ما هو عليه. كانت امرأة مرحة لاهية، تحب الرجال وتحب الشراب، وكانت لطيفة مع أولادها عندما كان يعجبها أن تكون لطيفة وما كانت لتدع أي شخص آخر يؤذيهم. حسناً، لم تكن تهتم بي! لقد رفضت العيش مع هذه الفكرة طول هذه السنين، أما الآن فقد قبلتها.

مدّ يده وقال: أعطني زهرة واحدة مما معك يا تينا.

أخذها منها وانحنى ثم وضعها على القبر أسفل الكلام المنقوش وقال: هاك يا أمي. كنت ولداً عاقاً لك ولا أظن أنك تصرفت معي تصرف أم حكيمة، لكنك كنت تقصدين لي الخير.

ثم نظر إلى تينا وقال: هل هذا اعتذار كافٍ؟

قالت: "أظنه كذلك"، ثم انحنت ووضعت رزمة الأزهار التي

تحملها هناك. سألها ميكي: هل تأتين إلى هنا كثيراً وتضعين الأزهار على قبرها؟

- آتي إلى هنا مرة في العام.

بعد ذلك استدارا معاً وعادا أدراجهما على ممر المقبرة. قال ميكي: أنا لم أقتلها يا تينا، أقسم أنني لم أقتلها وأريدك أن تصدقيني.

قالت تينا: كنتُ أنا هناك في تلك الليلة.

التفت بسرعة وقال: كنتِ هناك؟ تقصدين في «صني بوينت»؟

- نعم؛ كنت أفكر في تغيير وظيفتي، وأردت استشارة والدي ووالدتي بخصوص ذلك.

- حسناً، أكملي.

وعندما لم تتكلم أمسك بذراعها وهزها ثم قال: أكملي يا تينا. يجب أن تخبريني.

- لم أخبر أحداً حتى الآن.

كرّر ميكي ثانية: أكملي.

- ذهبت إلى هناك بسيارتي. لم آخذ سيارتي إلى البوابة، فأنت تعرف أنَ في منتصف الطريق مكاناً حيث يكون من الأسهل الالتفاف منه؟

أومأ ميكي مجيباً فأكملت تينا: خرجت من السيارة هناك وسرت باتجاه البيت، وأحسست بعدم الثقة في نفسي. أنت تعرف كم هو صعب الحديث مع والدتي. أقصد أنها كانت تمتلك دوماً آراءها

الخاصة، وكنت أريد توضيح القضية قدر الإمكان. ولذلك مشيت باتجاه البيت ثم عدت باتجاه السيارة وانطلقت بها لكي أفكر بالأمر أكثر.

- كم كانت الساعة وقتها؟

- لا أعرف، لا أستطيع أن أتذكر الآن. إنني... الوقت لا يعني لي الكثير.

- نعم يا عزيزتي؛ كانت لديك دوماً تلك الطبيعة التي تتصرف على راحتها دون أن تحفل بالوقت.

- كنت تحت الأشجار أسير بخطوات هادئة جداً...

- مثل القطة الصغيرة.

- ... عندما سمعتهم.

- سمعتِ ماذا؟

- شخصين يتهامسان.

توترت أعصاب ميكي وقال: نعم؟ ماذا قالا؟

- قالا... أحدهم قال: "بين السابعة والسابعة والنصف، هذا هو الوقت. تذكر هذا الآن وإياك أن تتهاون فيه... بين السابعة والسابعة والنصف"، فتحمس الآخر وقال: "يمكنك أن تثق بي"، ثم قال صاحب الصوت الأول: "وبعد ذلك يا عزيزي سيكون كل شيء رائعاً".

صمت الاثنان قليلاً، ثم قال ميكي: حسناً، لماذا تكتمت على هذا الأمر؟

- لأنني لم أعرف، لم أعرف اللذين كانا يتكلمان.

- ولكنك تعرفين بالتأكيد إن كان صوت رجل أو امرأة؟

- لا أعرف. عندما يتهامس اثنان فإنك لا تميز الصوت. كان مجرد... مجرد همس. أظن أنهما كانا رجلاً وامرأة لأن...

- بسبب ما قالاه؟

- نعم، لكني لم أعرف من هما.

- هل ظننتِ أنهما قد يكونان أبي وغويندا؟

- هذا محتمل، أليس كذلك؟ ربما كان ذلك يعني أن على غويندا مغادرة البيت والعودة بين هذين الوقتين، أو قد تكون غويندا هي التي تقول لأبي بأن ينزل بين السابعة والسابعة والنصف.

- لو كانا أبي وغويندا فإنك لا تريدين إبلاغ الشرطة عنهما. هل هذا صحيح؟

- إذا كنت متأكدة، لكني لست متأكدة. ربما كانا شخصين آخرين. قد تكون هيستر وشخصاً آخر... بل ربما تكون ماري، ولكن ليس فيليب. لا، ليس فيليب بالطبع.

- عندما تقولين هيستر وشخص آخر، فمن تعنين؟

- لا أعرف.

- هل رأيتِه... أقصد الرجل؟

- لا؛ لم أره.

قالت تينا: استدرت وعدت باتجاه السيارة، ثم جاء شخص كان

يسير على الجانب الآخر من الطريق بخطوات سريعة جداً. كلا مجرد ظلٍّ في الظلمة. ثم ظننت... ظننت أنني سمعت صوت سيارة تحركت عند الطرف الآخر من الطريق.

قال ميكي: لقد ظننتِ أنه أنا.

- لم أعرف. كان يمكن أن تكون أنت، كان في حجمك وطولك تقريباً.

كانا قد وصلا إلى سيارة تينا الصغيرة، فقال ميكي: هيّا يا تينا، اركبي. سآتي معك، سنذهب إلى «صني بوينت».

- ولكن يا ميكي...

- لا فائدة من تأكيدي لك أنني لم أكن ذلك الشخص. ماذا أقول أكثر من هذا؟ هيّا، انطلقي إلى «صني بوينت».

- ما الذي ستفعله يا ميكي؟

- ولماذا تظنين أنني سأفعل شيئاً؟ ألم تكوني ذاهبة إلى «صني بوينت» على أية حال؟

- نعم، كنت ذاهبة إلى هناك. لقد تلقيت رسالة من فيليب.

أدارت محرك السيارة. كان ميكي جالساً إلى جانبها متجهماً ومتوتراً، وسألها: تلقيت رسالة من فيليب؟ وماذا لديه؟

- طلب مني أن أذهب إليه لأنه يريد رؤيتي. إنه يعرف أنني لا أذهب للعمل بعد ظهر اليوم.

- آه! وهل أخبرك عن سبب استدعائه لك؟

- قال إنه يريد أن يسألني سؤالاً واحداً ويرجو إعطاءه إجابة عليه. قال إنه لا حاجة بي لأن أخبره بأي شيء... بل هو الذي سيخبرني، وما عليّ إلاّ أن أقول له «نعم» أو «لا»، وقال إنه سيبقي كل ما أقول له في طي الكتمان.

- إذن فهو مقبل على أمرٍ ما. إنه مثير.

كانت المسافة قصيرة جداً إلى البيت، وعندما وصلا إلى هناك قال ميكي: ادخلي أنت يا تينا. سأتمشى في الحديقة قليلاً أفكر في أمور معينة. هيا، اذهبي وقابلي فيليب.

- هل ستذهب إلى... إنك لن...

ضحك ميكي ضحكة قصيرة وقال: تقصدين أنني سأنتحر وألقي بنفسي عن قمة العشاق؟ هيا يا تينا، تعلمين أنني لا أفعل هذه الأشياء.

قالت تينا: أعتقد أن المرء لا يعرف الآخرين أحياناً.

ثم ذهبت مبتعدة عنه وسارت نحو البيت بخطوات بطيئة. نظر ميكي إليها وهي ذاهبة ورأسه إلى الأمام ويداه في جيوبه، كان يعبس، ثم مشى والتف عند زاوية المنزل رافعاً بصره إليه متأملاً. تذكر كل ذكريات صباه. كانت هناك شجرة المغنوليا القديمة التي كان يتسلق عليها ليدخل البيت من النافذة، وكانت هناك قطعة الأرض الصغيرة التي كان يفترض أن تكون حديقته الخاصة. لم يكن هذا يعني أنه كان يحب الحدائق، بل كان يفضل دائماً تفكيك ألعابه. قال في نفسه: "شيطان صغير مدمر".

حسناً، إن المرء لا يتغير كثيراً.

* * *

في داخل البيت التقت تينا بماري في الصالة. جفلت ماري عندما رأتها وقالت: تينا! هل جئت من ريدمن؟

- نعم، ألم تعرفي أنني قادمة؟

- لقد نسيت. أظن أن فيليب ذكر لي ذلك.

ثم ابتعدت وهي تقول: سأذهب إلى المطبخ لأرى إن كانت الكعكة جاهزة لأن فيليب يحب تناولها كآخر شيء في الليل. إن كريستي ذاهبة ومعها بعض القهوة له. إنه يحب القهوة أكثر من الشاي ويقول إن الشاي يسبب له عسر الهضم.

- لماذا تعاملينه كالمريض العاجز يا ماري؟ إنه ليس عاجزاً فعلاً؟

ظهر في عيني ماري أثر من غضب وقالت: عندما يكون لك زوج يا تينا ستعرفين أفضل كيف يحب الأزواج أن يُعامَلوا.

قالت تينا بلطف: أنا آسفة.

- لو استطعنا فقط أن نخرج من هذا البيت. ليس من المفيد لفيليب البقاء هنا، كما أن هيستر ستعود اليوم.

بدت تينا ذاهلة: هيستر؟ حقاً؟ لماذا؟

- وكيف لي أن أعرف؟ اتصلت الليلة الماضية وقالت ذلك. لا

أدري في أي قطار ستأتي. أعتقد أنه القطار السريع كالعادة، ولا بد أن يذهب أحدنا لاستقبالها في درايموث.

اختفت ماري ودخلت المطبخ. وترددت تينا لحظة ثم صعدت الدرج، وفي أعلى الدرج فُتح أول باب جهة اليمين وخرجت منه هيستر. بدت مرعوبة عند رؤيتها لتينا.

- هيستر! سمعت أنك ستأتين لكني لم أعرف أنك وصلت.

قالت هيستر: أحضرني الدكتور كالغاري بسيارته، وقد جئت إلى غرفتي مباشرة. لا أظن أن أحداً في البيت يعلم بوصولي.

- هل الدكتور كالغاري موجود هنا الآن؟

- لا؛ لقد أنزلني هنا وأكمل طريقه إلى درايموث، فهو يريد رؤية شخص هناك.

- ماري لا تعلم أنك وصلت.

- ماري لا تعلم شيئاً أبداً، فهي وفيليب يعزلان نفسيهما عن أي شيء يجري. أظن أن والدي موجود في المكتبة مع غويندا. يبدو أن كل شيء يسير كالمعتاد.

- ولماذا لا يكون كذلك؟

- لا أدري. لقد شككت في أن كل شيء سيكون مختلفاً إلى حد ما.

ثم مرّت من أمام تينا ونزلت الدرج. وأكملت تينا طريقها فمرت من جانب المكتبة ثم سارت في الممر إلى الجناح في نهايته حيث

يقيم فيليب وزوجته. كانت كريستي ليندستروم تقف خارج باب غرفة فيليب حاملة صينية بيدها، والتفتت بحدة قائلة: تينا! لقد جعلتني أجفل. كنت ذاهبة لتقديم القهوة والبسكويت لفيليب.

رفعت يدها لتطرق الباب، فجاءت تينا إليها. وبعد أن طرقت كريستي الباب فتحته ودخلت. كانت متقدمة عن تينا قليلاً، وقد منع طولها تينا من رؤية الذي أمامها. لكن تينا سمعت شهقة كريستي. وارتخت يداها فسقطت الصينية على الأرض وتحطمت الفناجين والصحون.

صاحت كريستي: آه، لا، لا!

قالت تينا: فيليب؟

ثم تخطت المرأة الأخرى وتقدمت إلى حيث كان كرسي فيليب ديورانت قد دُفع إلى المكتب. ظنت أنه كان يكتب، وكان قلم الحبر على الطاولة قريباً من يده اليمنى، لكن رأسه كان ساقطاً إلى الأمام في وضع ملتوٍ غريب، وعند أسفل جمجمته رأت شيئاً أشبه بمربع أحمر لامع يلطخ بياض ياقته من الخلف.

قالت كريستي: "لقد قُتل، لقد قتل... طعن! هناك في مؤخرة دماغه. طعنة واحدة صغيرة وقاتلة". ثم أضافت وقد ارتفع صوتها: لقد حذرته... لقد فعلت كل ما أستطيع، لكنه كان مثل الطفل... يستمتع بألعاب خطيرة دون أن يفهم إلى أين هو ذاهب.

رأت تينا الأمر أشبه بحلم مزعج. وقفت هناك قرب ذراع فيليب هادئة تنظر إليه بينما رفعت كريستي ذراعه المرتخية وتحسست رسغه لترى نبضه الذي كان ساكناً. وتساءلت تينا: ما الذي كان يريد

سؤالها عنه؟ أياً كان الذي يريده فإنه لن يسألها عنه الآن. ودون تفكير موضوعي كان ذهن تينا يستوعب ما يجري ويسجل التفصيلات المختلفة. كان يكتب، نعم؛ فقد كان القلم هناك، ولكنْ لم يكن أمامه أي ورقة أو أي شيء مكتوب. لا بد أن الذي قتله قد أخذ معه كل ما كتبه.

قالت بصوت هادئ وآلي: يجب أن نخبر الآخرين.

- نعم، نعم؛ يجب أن ننزل إليهم. يجب أن نخبر والدك.

ذهبت المرأتان نحو الباب جنباً إلى جنب، كانت كريستي تلف ذراعها حول تينا، واتجهت عينا تينا إلى حيث سقطت الصينية والفناجين المكسورة.

قالت كريستي: هذا لا يهم؛ يمكن تنظيف ذلك كله فيما بعد.

كادت تينا تتعثر ولكن ذراع كريستي أسندتها: احذري، ستقعين.

سارتا في الممر. وفُتح باب المكتبة فخرج منه ليو وغويندا. قالت تينا بصوتها الواضح الخافت: لقد قُتل فيليب... طُعن.

رأت تينا أنه أشبه بحلم. عبارات الصدمة من والدها وغويندا وهي تتجاوزها لتهرع إلى فيليب... إلى فيليب الذي مات. تركتها كريستي وأسرعت تنزل الدرج وهي تقول: يجب أن أخبر ماري، لا بد أن أخبرها برفق. مسكينة ماري، ستكون صدمة عنيفة لها.

تبعتها تينا تسير ببطء، وأحسّت أكثر من أي وقت مضى بالذهول وكأن الأمر كله حلم فظيع. أصاب قلبَها شعورٌ غريب بالألم.

إلى أين كانت ذاهبة؟ لم تكن تعرف، لم يكن أي شيء حقيقياً. جاءت إلى الباب الرئيسي المفتوح فخرجت منه، وفي تلك اللحظة شاهدت ميكي وهو قادم من زاوية المنزل. ذهبت إليه تلقائياً وكأن قدميها كانتا تقودانها في ذلك الاتجاه وقالت: ميكي... آه، ميكي!

كان يفتح ذراعيه فألقت بنفسها عليه. قال ميكي: لا بأس، فأنت معي.

انهارت تينا بين يديه ثم سقطت على الأرض مثل كومة صغيرة، فيما خرجت هيستر راكضة من البيت. قال ميكي يائساً: لقد أغمي عليها. لأول مرة أرى تينا يغمى عليها.

قالت هيستر: إنها الصدمة.

- ماذا تقصدين بالصدمة؟

- لقد قُتل فيليب، ألم تعرف؟

- وكيف أعرف؟ متى؟ كيف؟

- الآن فقط.

حدّق إليها، ثم رفع تينا بيديه وأخذها بمساعدة هيستر إلى غرفة جلوس السيدة آرغيل ووضعها على الأريكة. قال: اتصلي بالدكتور كريغ.

قالت هيستر وهي تطل من النافذة: ها هي ذي سيارته. كان والدي قد اتصل به بالهاتف من أجل فيليب. لا...

نظرت حولها وأضافت تقول: "لا أريد مقابلته"، ثم هربت خارج الغرفة وصعدت الدرج.

خرج دونالد كريغ من سيارته ودخل البيت من الباب المفتوح. جاءت كريستي من المطبخ للقائه فقال: مساء الخير يا آنسة ليندستروم. ما هذا الذي سمعته؟ لقد أخبرني السيد آرغيل بأن فيليب ديورانت قد قُتل. قُتل؟

قالت كريستي: صحيح.

- هل اتصل السيد آرغيل بالشرطة؟

- لا أعرف.

سأل: "هل يوجد أي أمل في أن يكون قد جُرح فقط؟"، ثم استدار ليذهب ويخرج حقيبته الطبية من السيارة.

قالت كريستي بصوت فاتر مجهد: "لا؛ لقد مات. أنا متأكدة من هذا تماماً. لقد طعن... هنا". ووضعت يدها على مؤخرة رأسها.

خرج ميكي إلى الصالة وقال: مرحباً دون، من الأفضل أن تأتي وترى تينا. لقد أغمي عليها.

- تينا؟ آه، نعم، إنها... القادمة من ريدمن، أليس كذلك؟ أين هي؟

- إنها في الداخل هناك.

- سألقي نظرة عليها قبل أن أصعد.

وعندما كان ذاهباً إلى الغرفة التفت برأسه وخاطب كريستي: يجب أن تظل دافئة. أحضري فنجان شاي أو قهوة ساخن لها حالما تفيق من غيبوبتها. لكنك تعلمين التمرينات التي يجب إجراؤها لها...

أومأت كريستي بالإيجاب. وجاءت ماري من المطبخ إلى الصالة، فذهبت إليها كريستي، ونظر ميكي إليها عاجزاً.

قالت ماري بصوت عالٍ أجش: كريستي! هذا ليس صحيحاً! إنها كذبة لفقتها أنت. لم يكن به شيء عندما تركته قبل قليل. كان بخير... كان يكتب، وقلت له ألاّ يكتب. قلت له ألا يفعل ذلك. ما الذي جعله يكتب؟ لماذا كان عنيداً؟ لماذا لم يترك هذا البيت ويطيعني؟

بذلت كريستي كل جهدها لتهدئتها وجعلها تستريح. ثم خرج دونالد كريغ من غرفة الجلوس وسأل: مَن الذي قال بأن الفتاة قد أُغمي عليها؟

حدّق ميكي إليه وقال: لقد أُغمي عليها فعلاً.

- أين كانت عندما أُغمي عليها؟

- كانت معي. خرجت من الباب وجاءت لملاقاتي، ثم... سرعان ما انهارت.

- انهارت؟ نعم، لقد انهارت دون شك!

كان دونالد كريغ يتكلم متجهماً، وأسرع إلى الهاتف بسرعة وقال: يجب أن أحضر سيارة إسعاف على الفور.

- سيارة إسعاف؟

حدّق إليه كلٌّ من كريستي وميكي.

بدت ماري، وكأنها لم تسمع. أما دونالد فكان يتصل بالرقم ويقول: نعم؛ إن الفتاة لم تقع مغشياً عليها. لقد طُعنت! هل تسمعون؟ طُعنت في ظهرها. يجب أن نرسلها إلى المستشفى فوراً.

* * *

الفصل الثالث والعشرون

قام آرثر كالغاري في غرفته في الفندق بمراجعة الملاحظات التي كتبها مرة تلو الأخرى، وكان يومئ برأسه من وقت لآخر.

نعم... لقد أصبح على الطريق الصحيح الآن. لقد أخطأ -ابتداءً- في التركيز على السيدة آرغيل. كان ذلك هو الإجراء السليم في الغالبية العظمى من الحالات، لكن هذه كانت مختلفة.

لقد أحسّ بوجود عاملٍ مجهول منذ البداية، ولو استطاع عزل ذلك العامل وتحديده لكان بالإمكان حل هذه القضية فوراً. عندما كان يبحث عن ذلك العامل كانت تستحوذ عليه المرأة القتيلة، لكنه عرف الآن أن المرأة القتيلة لم تكن هي المهمة في حقيقة الأمر. بمعنى أن أية ضحية كانت ستؤدي الغرض!

كان قد نقل منظور تفكيره... نقله عائداً إلى اللحظة التي بدأ فيها كل هذا. لقد عاد به إلى جاكو.

ليس فقط جاكو كونه شاباً حُكم عليه ظلماً بجريمة لم يرتكبها... ولكن كإنسان أصلاً. هل كان جاكو (كما يقول مذهب كالفين القديم): «وعاء قُدِّر عليه الدمار»؟ لقد أُعطي كل فرصة في الحياة، أليس

كذلك؟ وعلى أية حال فإن الدكتور ماكماستر كان يرى أنه شخص قد وُلد ليكون منحرفاً ولا يمكن لأية بيئة أن تساعده أو تنقذه. هل كان رأيه هذا صحيحاً؟ لقد تكلم ليو آرغيل عن جاكو بتسامح وشفقة. ما الذي قاله عنه بالضبط؟ "أحد شواذ الطبيعة". لقد قبل هذا التعليل السيكولوجي الحديث. شاب مريض وليس مجرماً. ما الذي قالته هيستر؟ قالت -بفظاظة- إن جاكو كان فظيعاً دائماً!

قول طفولي بسيط. وما الذي قالته كريستي ليندستروم؟ أن جاكو كان شريراً! نعم، لقد ذهبت في وضعه إلى هذا الحد: شرير! وكانت تينا قد قالت: "لم أحبه أبداً أو أثق به". إذن فقد كانوا جميعاً متّفقين على نفس الرأي بشكل عام، أليس كذلك؟ لكنهم في قضية أرملته نزلوا من العام إلى الخاص. لقد فكرت مورين كليغ بجاكو من وجهة نظرها هي كلياً. لقد ضيعت نفسها بسببه، لقد انساقت بسحره وكانت ساخطة من هذه الحقيقة. أما الآن -وقد تزوجت ثانية واستقرت- فإنها تكرر آراء زوجها. لقد أعطت كالغاري سرداً صريحاً ومباشراً عن بعض ممارسات جاكو المريبة، الأساليب التي حصل بها على المال. المال...

بدت هذه الكلمة وكأنها تتراقص على الجدار أمام آرثر كالغاري بحروف ضخمة. المال! المال! المال! رآها أشبه باللحن الرئيسي الذي تدور حوله الأوبرا. أموال السيدة آرغيل... مال يوضع في صندوق ائتمان... مال يوزع على شكل مرتبات دورية... عقار تتركه لزوجها... مال يؤخذ من البنك... مال في درج المكتب... هيستر تهرع إلى سيارتها دون أن يكون معها نقود في حقيبتها وتحصل على جنيهين من كريستي ليندستروم... مال يضبط مع جاكو... مال أقسم بأن أمه قد أعطته له.

الأمر كله تجمع ليعطي شكلاً ونمطاً... نمطاً نُسِج من تفاصيل غير مترابطة حول المال، وبالتأكيد فإن العامل المجهول أخذ يتضح داخل ذلك النموذج.

نظر إلى ساعته. كان قد وعد هيستر بأن يتصل بها في موعد متفق عليه. سحب الهاتف وطلب الرقم، وسرعان ما سمع صوتها واضحاً وطفولياً بعض الشيء.

- هيستر! هل أنت بخير؟

- آه، نعم، أنا بخير.

استغرق لحظات قليلة قبل أن يفهم تركيزها على أنها هي بخير، ثم قال بحدة: ما الذي حدث؟

- لقد قُتل فيليب.

- فيليب! فيليب ديورانت؟

بدا كالغاري غير مصدق.

- نعم. وتينا أيضاً... إنها لم تمت بعد، إنها في المستشفى.

قال لها بلغة الأمر: أخبريني.

أخبرته بالتفاصيل، وقام بسؤالها واستجوابها استجواباً دقيقاً إلى أن حصل على كل الحقائق، ثم قال عابساً: انتظريني يا هيستر، إنني قادم. سأكون معك خلال ساعة. سأذهب لرؤية الضابط هوش أولاً.

* * *

سأل الضابط هوش الدكتور كالغاري: ما الذي تريد أن تعرفه بالضبط يا دكتور كالغاري؟

ولكن قبل أن يتكلم كالغاري رنّ جرس الهاتف على طاولة هوش. رفع الضابط السماعة وقال: نعم، نعم، أتكلم معك... لحظة واحدة.

قرّب ورقة إليه وأخذ قلماً وراح يكتب: نعم، نعم. ماذا؟ كيف تهجّي تلك الكلمة الأخيرة؟ آه، فهمت. نعم، لا يبدو ذلك مفهوماً بعد، أليس كذلك؟ حسناً. هل يوجد شيء آخر؟ حسناً، شكراً لك.

ثم وضع السماعة وقال: إنه المستشفى.

سأله كالغاري: تينا؟

أومأ الضابط برأسه وقال: لقد استعادت وعيها لبضع دقائق.

- هل قالت شيئاً؟

- لا أدري إن كان ينبغي عليّ إخبارك بهذا يا دكتور كالغاري.

- لقد طلبتُ منك أن تخبرني لأنني أظن أن باستطاعتي مساعدتك في هذا الأمر.

نظر هوش إليه متأملاً وقال: لقد اهتممتَ كثيراً بهذا الأمر يا دكتور كالغاري؟

- نعم؛ لقد أحسست أنني كنت مسؤولاً عن إعادة فتح القضية، بل إنني أشعر بمسئوليتي حتى عن هاتين المأساتين. هل ستعيش الفتاة؟

- يعتقدون ذلك. لقد أخطأ نصل السكين قلبها، ولكن النتيجة قد لا تكون معروفة.

هزّ رأسه ثم قال: هذه هي المشكلة دائماً؛ لا يصدق الناس بأن القاتل خطير. يبدو كلاماً غريباً لكن هذه هي الحقيقة، كلهم كانوا يعرفون أن القاتل موجود بينهم، وكان يجب أن يقولوا ما كانوا يعرفونه. الشيء الوحيد الآمن عندما يكون القاتل قريباً منك هو إخبار الشرطة بأي شيء تعرفه على الفور. لكنهم لم يبلغونا، لقد رفضوا إخباري بشيء. كان فيليب ديورانت رجلاً لطيفاً وذكياً... لكنه اعتبرها أشبه باللعبة وصار يبحث ويتدخل ويضع الأفخاخ للناس، وقد توصل إلى شيء ما، أو ظن أنه توصل، كما رأى شخص آخر أنه قد توصل إلى شيء. والنتيجة: تلقيت مكالمة تقول بأنه مات، طُعن في مؤخرة عنقه. هذا هو ما ينتج عن العبث في جرائم القتل دون إدراك أخطارها.

سكت قليلاً ثم تنحنح، فسأله كالغاري: والفتاة؟

- كانت الفتاة تعرف شيئاً، شيئاً لم تكن تريد قوله. أظن أنها كانت على علاقة حب مع الشاب.

- هل تعني... ميكي؟

أومأ هوش بالإيجاب وقال: نعم، وأعتقد أن ميكي كان يحبها أيضاً إلى حد ما. ولكن الحب لا يكفي إذا كان الخوف مسيطراً عليك حتى الجنون. إن ما عرفته الفتاة (كائناً ما كان) يبدو أخطر كثيراً مما خطر في بالها، وهذا هو السبب الذي جعله يستغل الفرصة ويطعنها

عندما جاءته بعد أن وجدت ديورانت مقتولاً وألقت بنفسها بين يديه.

- إن هذا مجرد حدس من طرفك يا حضرة الضابط، أليس كذلك؟

- ليس حدساً كله يا دكتور كالغاري. لقد كانت السكين في جيبه.

- السكين الحقيقية؟

- نعم، وكان عليها الدم. سوف نختبر هذا الدم لكنه دمها بلا شك. دمها ودم فيليب ديورانت!

- ولكن... لا يمكن ذلك.

- من يقول إنه لا يمكن؟

- هيستر. لقد خابرتها وأخبرتني بكل شيء.

- هل فعلت ذلك حقاً؟ حسناً، الحقائق بسيطة جداً. لقد نزلت ماري إلى المطبخ وتركت زوجها على قيد الحياة عند الساعة الرابعة إلاّ عشر دقائق. في ذلك الوقت كان في البيت الأشخاص التالية أسماؤهم: ليو آرغيل وغويندا فوغان في المكتبة، وهيستر آرغيل في غرفة نومها في الطابق الأول، وكريستي ليندستروم في المطبخ. وبعد الساعة الرابعة بقليل وصل ميكي وتينا بالسيارة. ذهب ميكي إلى الحديقة وصعدت تينا إلى الطابق العلوي على إثر كريستي التي كانت قد صعدت لتوها حاملة القهوة والبسكويت لفيليب، وتوقفت تينا لتتحدث مع هيستر ثم أكملت طريقها لتنضم إلى الآنسة ليندستروم ودخلتا معاً فوجدتا فيليب مقتولاً.

- وطوال هذا الوقت كان ميكي في الحديقة. إن في ذلك -بالتأكيد- دفعاً بالغيبة عن مكان الجريمة.

- إن ما لا تعرفه يا دكتور كالغاري هو أن شجرة مغنوليا كبيرة تمتد بجانب البيت، وقد اعتاد الأطفال تسلقها، وخصوصاً ميكي. كانت وسيلة من وسائل خروجه ودخوله إلى البيت، وكان يستطيع تسلق تلك الشجرة ليدخل غرفة ديورانت ويطعنه ثم يعود ويخرج من نفس الطريق ثانية. آه، كان الأمر يحتاج إلى توقيت بالغ الدقة، ولكن ما تفعله الجرأة أحياناً مدهش حقاً. وقد كان يائساً، إذ كان عليه منع لقاء تينا وديورانت مهما كلف ذلك. وحتى يكون آمناً اضطر لقتلهما معاً.

- لقد قلتَ قبل قليل -أيها الضابط- إن تينا قد أفاقت من غيبوبتها. ألم تكن قادرة على التصريح باسم الذي طعنها بالتحديد؟

قال هوش ببطء: "لم يكن كلامها متماسكاً، والحقيقة أنني أشك أنها استعادت وعيها بمعنى الكلمة". ثم ابتسم ابتسامة رجل متعب وقال: حسناً يا دكتور كالغاري، سأخبرك بما قالته بالضبط. قالت أولاً اسماً... ميكي.

- إذن فقد اتهمته.

قال هوش وهو يومئ برأسه: هذا ما يبدو. أما بقية ما قالته فلم يكن له معنى، شيء غريب بعض الشيء.

- وماذا قالت؟

نظر هوش إلى الدفتر أمامه على الطاولة وقال: قالت "ميكي"،

ثم سكتت. ثم قالت: "كان الفنجان خالياً"، ثم سكتت مرة أخرى ثم قالت: "الحمامة على السارية".

ثم نظر إلى كالغاري وقال: هل تفهم أي شيء من هذا؟

قال كالغاري: "لا"، ثم هزّ رأسه وقال متعجباً: "الحمامة على السارية..." يبدو كلاماً قريباً جداً.

قال هوش: ما من سَوارٍ ولا حمائم حسب علمنا. لكن تلك العبارات كانت تعني لها شيئاً، شيئاً في عقلها هي. ولكن قد لا تعني شيئاً له علاقة بالجريمة. الله وحده يعلم عالم الخيال الذي نسج فيه.

صمت كالغاري بعض الوقت. جلس يفكر ويقلب الأمور ثم قال: هل اعتقلتم ميكي؟

- لقد وضعناه في الحجز، وسوف توجه إليه التهمة خلال أربع وعشرين ساعة.

نظر هوش إلى كالغاري بفضول ثم قال: أعتقد أن هذا الولد ميكي لم يكن هو جوابك أنت على المشكلة؟

قال كالغاري: "لا، لا. لم يكن ميكي هو جوابي. وحتى هذه اللحظة... لا أعرف". ثم نهض وقال: ما زلت أعتقد أنني على حق، لكني أفهم بأنني لا أملك ما يكفي لجعلك تصدقني. يجب أن أذهب إلى هناك ثانية، يجب أن أراهم جميعاً.

قال هوش: حسناً، حاذر على نفسك يا دكتور كالغاري. بالمناسبة، ما هي فكرتك أنت؟

- هل سيعني ذلك شيئاً بالنسبة لك إن قلت إنني أراها جريمة عاطفية؟

رفع هوش حاجبيه دهشة وقال: يوجد الكثير من العواطف يا دكتور كالغاري؛ الكراهية والجشع والطمع والخوف، كلها عواطف.

قال كالغاري: عندما قلت بأنها جريمة عاطفية كنت أعني ما تعنيه هذه الكلمة عادة.

- إن كنت تعني غويندا فوغان وليو آرغيل فإن هذا ما فكرنا فيه من البداية، لكن هذا لا يبدو منسجماً مع الحقائق.

قال آرثر كالغاري: الأمر أكثر تعقيداً من هذا.

* * *

الفصل الرابع والعشرون

مرة أخرى كان الوقت غسقاً عندما جاء آرثر كالغاري إلى «صني بوينت» في أمسية تشبه كثيراً تلك التي جاء فيها إلى هناك أول مرة. وخطر بباله اسم «فايبرز بوينت» وهو يضغط على جرس المنزل.

ومرة أخرى بدت الأحداث وكأنها تكرر نفسها؛ فهيستر هي التي فتحت له الباب. وكان يرى في عينيها نفس التحدي الذي رآه أول مرة، ملامح اليأس والمأساة نفسها، ورأى من ورائها في الصالة -كما رأى من قبل- كريستي ليندستروم الحذرة المترقبة المرتابة. كان التاريخ يعيد نفسه.

ثم تغير سياق الأحداث. فقد غادر الشك واليأس وجه هيستر وظهرت عليه ابتسامة جميلة، ابتسامة ترحيب. قالت: أنت. آه، أنا سعيدة لأنك جئت!

أمسك بيديها وقال: أريد رؤية والدك يا هيستر. هل هو فوق في المكتبة؟

- نعم، نعم. إنه هناك مع غويندا.

جاءت كريستي ليندستروم إليهما وقالت بأسلوب اتهامي: لماذا

جئت ثانية؟ انظر إلى المشكلة التي أحضرتها معك في المرة الأخيرة! انظر ماذا حدث لنا جميعاً. لقد تحطمت حياة هيستر وتحطمت حياة السيد آرغيل... واثنان ماتا. اثنان! فيليب ديورانت وتينا الصغيرة. وكل هذا بسببك...كله بسببك!

- تينا لم تمت بعد، كما أن لديّ شيئاً أفعله هنا لا يمكنني تركه دون أن أتمّه.

قالت كريستي وهي تقف في طريقه إلى الدرج: ما الذي عليك أن تفعله؟

- يجب أن أنهي ما بدأته.

وضع يده على كتفها برفق بالغ وأزاحها جانباً، وصعد الدرج وتبعته هيستر، ثم التفت إلى الوراء وقال مخاطباً كريستي: تعالي أنت أيضاً يا آنسة ليندستروم، أريدكم جميعاً أن تكونوا هنا.

في المكتبة، كان ليو آرغيل جالساً على كرسي قريب من مكتبه، وكانت غويندا فوغان تجثو على ركبتها أمام النار تحدق إلى الجمرات. رفعا بصرهما ببعض الدهشة. قال كالغاري: أنا آسف لدخولي عليكما هكذا، ولكن -كما كنت أقول لهاتين المرأتين قبل قليل- فقد جئت لأنهي ما بدأته.

ثم نظر حوله وقال: هل ما زالت السيدة ديورانت في البيت؟ أريدها أن تكون موجودة هنا.

قال ليو: أظن أنها ترقد في الطابق الأرضي. لقد... لقد أصيبت بصدمة شديدة.

- أريدها أن تكون موجودة رغم ذلك.

ثم نظر إلى كريستي وقال لها: هل لك أن تذهبي وتحضريها.

ردّت عليه كريستي عابسة: قد لا تريد الحضور.

قال كالغاري: أخبريها بوجود أشياء قد تريد سماعها عن وفاة زوجها.

قالت هيستر: هيا يا كريستي، اخرجي من كل هذه الشكوك وكل هذا الحدب علينا جميعاً. لا أدري ما الذي سيقوله الدكتور كالغاري ولكن يجب أن نكون جميعاً هنا.

قالت كريستي: "كما تشائين"، ثم خرجت من الغرفة.

قال ليو وهو يشير إلى كرسي عند الطرف الآخر من النار: تفضل اجلس.

جلس كالغاري هناك فقال له ليو: أرجو أن تعذرني إن قلت الآن بأنني أتمنى لو أنك لم تأت إلى هنا منذ البداية يا دكتور كالغاري.

قالت هيستر بعنف: إنه كلام مجحف، مجحف جداً.

قال كالغاري: أعرف ما تشعرون به، وأحسب أنني كنت سأشعر بنفس الشيء لو كنت مكانكم. بل إن الأمر بلغ بي أنني شاركتكم وجهة نظركم لفترة قصيرة، لكنني حين أفكر في الأمر فإنني ما زلت لا أستطيع تصور إمكانية قيامي بأي شيء آخر.

عادت كريستي إلى الغرفة وقالت: ماري قادمة.

جلسوا في صمت ينتظرون قدومها، وسرعان ما دخلت ماري

الغرفة. نظر كالغاري إليها باهتمام، إذ كانت المرة الأولى التي يراها فيها. بدت هادئة ورابطة الجأش ومتأنقة في ثيابها وشعرها مرتب تماماً، لكن وجهها أشبه بالقناع في خلوه من التعابير، وكان فيها شيء جعلها أشبه بامرأة تمشي في نومها.

قام ليو بالتعريف، فأومأت لكالغاري برأسها إيماءة خفيفة.

قال كالغاري: جميل منك أن تأتي يا سيدة ديورانت. رأيت أنك يجب أن تسمعي ما سأقوله.

قالت ماري: كما تشاء، ولكن لا شيء مما ستقوله أو يقوله غيرك سيعيد فيليب إلى الحياة.

ذهبت بعيداً عنهم قليلاً ثم جلست على كرسي قرب النافذة. ونظر كالغاري حوله ثم قال: دعوني أقل هذا في البداية: عندما جئت إلى هنا أول مرة، عندما قلت لكم بأنني أستطيع تبرئة جاكو وردَّ الاعتبار إليه، حيرني استقبالكم لخبري هذا. وقد فهمت الآن سبب الحيرة. لكن أكثر ما أثّر في نفسي أعظم تأثير هو ما قالته هذه البنت هنا (كان ينظر إلى هيستر) حيث قالت لي عندما غادرت بأن العدالة ليست هي المهمة وإنما ما يحدث للبريء. ونتيجة للخبر الذي جئت به رأيت أنكم كنتم تعانون من عقدة الفاجعة التي أصابت البريء، فما كان للبريء أن يعاني ويجب ألاّ يعاني، ومن أجل إنهاء معاناة البريء جئت إلى هنا لأقول ما أريد قوله.

سكت لحظة ولكن أحداً لم يتكلم، فأكمل حديثه بصوته الهادئ: عندما جئت إلى هنا أول مرة لم أرَ أني قادمٌ لأجلب لكم أنباء سعيدة، إذ كنتم قد قبلتم جميعاً إدانة جاكو. كنتم جميعاً قانعين

بتهمته إن جاز لي التعبير، وكان ذلك هو أفضل حل ممكن لمقتل السيدة آرغيل.

سأله ليو: أليس هذا الكلام قاسياً بعض الشيء؟

قال كالغاري: لا، إنه الحقيقة. كنتم جميعاً راضين بأن يكون جاكو هو المجرم طالما لا يوجد احتمال حقيقي لدخول شخص غريب من خارج البيت، ولأنكم كنتم تجدون الأعذار والمبررات الضرورية في حالة جاكو، إذ كان يمكنكم وصفه بأنه كان شاباً يدعو للأسف، مريضاً نفسياً وغير مسؤول عن تصرفاته ومنحرفاً! كل العبارات التي يمكننا استخدامها هذه الأيام بكل ارتياح لتبرير الجرائم. لقد قلتَ -يا سيد آرغيل- إنك لا تلومه، وقلت إن أمه (الضحية) لم تكن لتلومه هي الأخرى. شخص واحد فقط هو الذي لامه...

نظر كالغاري إلى كريستي ليندستروم وقال يخاطبها: أنت لمتِه. قلتِ صراحةً إنه كان شريراً. هذه هي الكلمة التي استخدمتِها؛ لقد قلتِ: "كان جاكو شريراً".

قالت كريستي ليندستروم: ربما... ربما... نعم، ربما قلت هذا. كانت حقيقة.

- نعم، كانت حقيقة. كان شريراً فعلاً. لو لم يكن شريراً لما حدث أي شيء من هذا، ومع ذلك تعرفين جيداً بأن الدليل الذي كان معي برأه من الجريمة الفعلية.

قالت كريستي: لا يمكننا تصديق الدليل دائماً. لقد أُصبتَ بارتجاج في المخ، وأعرف جيداً ما الذي يفعله ارتجاج الدماغ في الناس. إنهم يتذكرون الأشياء بوضوح وإنما بنوع من الضبابية.

- إذن ما زال هذا هو الحل عندك؟ تعتقدين أن جاكو هو الذي ارتكب جريمة القتل وأنه نجح في تلفيق دليل غياب عن مكان الجريمة؟ هل هذا ما تعتقدينه حقاً؟

- لا أعرف التفاصيل. نعم، شيئاً من هذا القبيل. ما زلت أقول إنه المجرم. إن كل المعاناة التي حدثت هنا وجرائم القتل... نعم، هذه الجرائم الفظيعة كلها من فعله. كلها من فعل جاكو!

صاحت هيستر: لكنك كنت دوماً تحبين جاكو يا كريستي.

- ربما، نعم، ربما. لكني ما زلت أقول بأنه كان شريراً.

قال كالغاري: أعتقد أنك على حق في هذا، لكنك مخطئة من طريق آخر. سواء حدث لي ارتجاج أو لم يحدث فإن ذاكرتي نقية واضحة تماماً. لقد أركبت جاكو معي في سيارتي ليلة مقتل السيدة آرغيل في الوقت الذي بيّنته. لا يوجد أي احتمال... وأكرر تلك الكلمات بقوة: لا يوجد أي احتمال بأن يكون جاكو هو الذي قتل والدته بالتبني تلك الليلة. إن دليل غيابه عن مكان الجريمة ثابت ولا مطعن فيه.

تحرك ليو في مجلسه بنوع من التململ، فأكمل كالغاري حديثه: هل تظنون أنني أكرر نفس الكلام الذي قلته مرات ومرات؟ ليس ذلك تماماً. لدينا نقاط أخرى يجب أخذها بعين الاعتبار. أحدها هي الأقوال التي حصلت عليها من الضابط هوش والتي تقول بأن جاكو كان واثقاً جداً وعفوياً وسريعاً في إجاباته عندما أدلى بأقواله بخصوص مكان تواجده ساعة الجريمة. كان دقيقاً جداً بخصوص الأوقات والمكان وكأنه يعلم بأنه قد يحتاج إليها. إن هذا يمكن ربطه مع الحديث الذي

دار بيني وبين الدكتور ماكماستر حوله، وقد كان الدكتور ماكماستر على دراية واسعة بقضايا الأحداث الجانحين والأحداث الذين يقفون على شفا الجنوح. لقد قال إن وجود بذور القتل في نفس جاكو لا يدهشه كثيراً، لكنه فوجئ عندما علم أنه ارتكب فعلياً جريمة قتل. قال إن الجريمة التي كان من شأنه أن يتوقعها من جاكو هي أن يحث شخصاً آخر على ارتكاب جريمة قتل، ولذلك سألت نفسي السؤال التالي: هل كان جاكو يعلم أن جريمة قتل ستحدث في تلك الليلة؟ هل كان يعلم أنه سيحتاج إلى إثبات مكان وجوده ساعة وقوع الجريمة وهل تعمد إيجاد دليل له؟ إن كان الأمر كذلك فإن شخصاً آخر هو الذي قتل السيدة آرغيل، ولكن... جاكو كان يعلم أنها ستُقتَل، وبوسع المرء أن يقول إن جاكو هو المحرض على الجريمة.

ثم قال يخاطب كريستي ليندستروم: إنك تشعرين بهذا، أليس كذلك؟ أما زلت تشعرين به أم أنك تريدين أن تشعري به؟ تشعرين بأن جاكو هو الذي قتلها، وليس أنت... تشعرين بأنك قتلتها بناء على أوامره وتحت تأثيره، ولذلك تريدين أن يقع كل اللوم عليه؟!

قالت كريستي ليندستروم: أنا؟ أنا؟ ما هذا الذي تقوله؟

- إنني أقول بأن شخصاً واحداً فقط في هذا البيت يصلح لأن يكون شريكاً لجاكو في الجريمة، وهذا الشخص هو أنت يا آنسة ليندستروم. كان يوجد لجاكو سجل حافل، سجل في قدرته على إثارة عواطف النساء اللاتي في وسط العمر، وقد استخدم تلك القدرة استخداماً متعمداً. كانت لديه موهبة في جعل الآخرين يصدقونه.

ثم مال إلى الأمام وقال: لقد فاتحك بحبه، أليس كذلك؟ جعلك تصدقين أنه يهتم بك وأنه كان يريد الزواج بك وأنه (بعد أن

ينتهي هذا كله وتزداد سيطرته على أموال أمه) سيتزوجك وتذهبان إلى مكان بعيد لتعيشا فيه. هذا صحيح، أليس كذلك؟

حدقت كريستي إليه. لم تتكلم وبدت وكأنها أصيبت بالشلل.

قال آرثر كالغاري: لقد وقعت الجريمة بوحشية وقسوة وعن سابق إصرار. جاء إلى هنا تلك الليلة يائساً يطلب بعض النقود، والخوف من الاعتقال أو السجن يخيم عليه. وقد رفضت السيدة آرغيل إعطاءه نقوداً، وعندما رفضت إعطاءه جاء وطلبها منك.

قالت كريستي ليندستروم: هل تظن... هل تظن بأنني يمكن أن آخذ نقود السيدة آرغيل لأعطيها له بدلاً من أن أعطيه من نقودي؟

- لا. كنتِ ستعطينه من نقودك لو كان معك نقود. لكني لا أظن أنك كنت تملكين نقوداً. كنت تحصلين على مرتب دوري كبير من الحصة التي خصصتها لك السيدة آرغيل، لكني أعتقد بأنه كان قد احتال عليك وأخذ كل ما معك من نقود، ولذلك كان يائساً في تلك الليلة. وعندما صعدت السيدة آرغيل إلى زوجها في المكتبة خرجتِ أنت من البيت حيث كان ينتظر وأخبرك بما عليك أن تفعليه. أولاً كان يجب أن تعطيه النقود ثم يجب قتل السيدة قبل اكتشاف السرقة، لأنها ما كانت لتتستر عليها. وقال إن ذلك سيكون سهلاً؛ فما عليك إلاّ أن تسحبي الأدراج حتى يبدو الأمر وكأن لصاً دخل هناك وأن تضربيها على مؤخرة رأسها. قال لك إنها ستكون طريقة غير مؤلمة لأنها لن تشعر بشيء، وقال إنه سيوجِد لنفسه دليل غياب يبرئه ولذلك يجب أن تكوني حذرة في هذا العمل وتنفذيه في غضون الوقت المحدد بين السابعة والسابعة والنصف.

قالت كريستي وقد بدأت ترتجف: هذا غير صحيح؛ أنت مجنون إذ تقول مثل هذه الأشياء.

ومع ذلك لم تَبدُ على صوتها علامات السخط! كان الغريب أن كلامها بدا آلياً سئماً، قالت: حتى لو كان ما تقوله صحيحاً فهل ترى أنني كنت سأتركه يُتَّهم بجريمة القتل؟

- آه، نعم. فهو الذي قال لك إنه سيدبر لنفسه دليل غياب. ربما توقعتِ أن يجري اعتقاله ثم تثبت براءته، وكان ذلك جزءاً من الخطة.

قالت كريستي: ولكن عندما لم يتمكن من إثبات براءته، ألم يكن من شأني أن أنقذه وفقاً لفرضيتك؟

- ربما... ربما، لولا حقيقة واحدة منعتك. حقيقة أنه في صباح اليوم التالي للجريمة ظهرت زوجة جاكو هنا. لم تكوني على علم بزواجه، وكان على الفتاة أن تكرر كلامها أكثر من مرة قبل أن تصدقيها. في تلك اللحظة تحطم عالمك من حولك وأدركتِ حقيقة جاكو... قاسي القلب مخادعاً دون ذرة من عاطفة أو حب نحوك. أدركتِ -لحظتها- ما الذي جعلك تفعلينه.

وفجأة بدأت كريستي ليندستروم الكلام. كانت الكلمات تندفع من فمها دون ترابط. قالت: لقد أحببته... أحببته من كل قلبي. كنت حمقاء، كنت كهلة ساذجة مغفلة، وجعلني أعتقد ذلك...جعلني أصدق. قال إنه لا يهتم للفتيات أبداً. لقد قال... لا أستطيع أن أروي كل ما قاله. لقد أحببته فعلاً، ثم جاءت تلك الطفلة السخيفة بابتسامتها

المتكلفة إلى هنا، تلك الفتاة السوقية. وأدركت عندها أن كل شيء كان كذباً، كان شراً كله... شراً... شره هو لا شرّي أنا.

قال كالغاري: في تلك الليلة التي جئتُ فيها هنا كنتِ خائفة، أليس كذلك؟ خائفة ممّا كان سيحدث. خائفة على الآخرين: هيستر التي كنت تحبينها، وليو الذي كنت تحبينه أيضاً. ربما أدركتِ قليلاً ممّا قد يحدث لهم، لكنك كنت خائفة بشكل رئيسي على نفسك. وترين الآن إلى أين قادك خوفك هذا... لقد ارتكبت جريمتي قتل غيرها بيديك.

- أتريد أن تقول إنني قتلت تينا وفيليب؟

- لقد قتلتِهما أو حاولت ذلك، ولكن تينا استعادت وعيها.

أرخت كريستي كتفيها يائسة وقالت: إذن فقد أخبرتك تينا أنني طعنتها. لم أكن أظن أنها أحست بذلك. كنت مجنونة بالطبع، كنت مجنونة وقتها، مجنونة رعباً. كانت الدائرة تضيق عليّ... تضيق كثيراً.

- هل أُخبرك بما قالته تينا عندما استعادت وعيها؟ لقد قالت: "الفنجان كان فارغاً". لقد عرفَتْ ماذا يعني ذلك. لقد تظاهرتِ بأنك ستأخذين فنجان قهوة إلى فيليب ديورانت، لكنك كنت قد طعنته وخرجت من تلك الغرفة عندما سمعت تينا قادمة، ولذلك استدرت وتظاهرت بأنك تريدين إدخال الصينية إلى الغرفة. وبعد ذلك، وعلى الرغم من الصدمة التي أفقدَتْها وعيها تقريباً عندما رأته مقتولاً، لاحظت -تلقائياً- أن الفنجان الذي سقط على الأرض كان فنجاناً فارغاً ولم يترك أية آثار على الأرض.

صاحت هيستر: لكن لا يمكن أن تكون كريستي قد طعنتها! لقد نزلت تينا الدرج وخرجت للقاء ميكي وكانت على ما يرام.

قال كالغاري: يا عزيزتي! إن من يتلقى طعنة يمكنه المشي مسافة طويلة دون أن يعلم بما حدث له. في لحظة الصدمة لم يكن من المحتمل أن تشعر تينا بأي شيء... وخزة صغيرة وقليل من الألم فقط.

ثم نظر إلى كريستي ثانية وقال: وبعد ذلك قمت بدسّ تلك السكين في جيب ميكي، وكان ذلك أخسّ عملٍ في المسألة كلها.

مدّت كريستي يديها وكأنها تتوسل: لم أستطع تفادي ذلك... لم أستطع تفادي ذلك! كان الخطر يقترب جداً... بدؤوا كلهم يكتشفون الحقيقة. كان فيليب يكتشف الحقيقة، وتينا... أعتقد أن تينا سمعت جاكو وهو يتحدث معي خارج المطبخ في تلك الأمسية. بدؤوا كلهم يعرفون، وكنت أريد الأمان لنفسي. أردت... لا يمكن للمرء أن يكون آمناً أبداً!

ثم أسقطت يديها وقالت: لم أكن أريد قتل تينا. وأما فيليب...

نهضت ماري فعبرت الغرفة بخطوات بطيئة ولكن بعزم متزايد وقالت: أنت قتلتِ فيليب؟ أنت قتلتِ فيليب؟

وفجأة قفزت على المرأة كما يقفز النمر. كانت غويندا سريعة الذكاء هي التي قامت من مكانها بسرعة وأمسكت بها، وساعدها كالغاري وأعاداها إلى مكانها.

صاحت ماري: أنتِ... أنتِ!

نظرت كريستي ليندستروم إليها وسألتها: وما شأنه هو بالموضوع؟ لماذا كان يتطفل ويسأل؟ لم يكن هو في خطر؛ لم تكن مسألة حياة أو موت بالنسبة له. كان عمله مجرد تسلية.

التفتت وسارت نحو الباب بخطوات بطيئة، ثم خرجت دون أن تنظر إليهم.

صاحت هيستر: أوقفوها. آه، يجب أن نمنعها.

قال ليو آرغيل: دعيها تذهب يا هيستر.

- ولكنها... ستقتل نفسها.

قال كالغاري: أشك في ذلك.

قال ليو: كانت صديقة مخلصة للعائلة منذ زمن طويل. مخلصة ووفية... والآن نرى هذا!

قالت غويندا: هل تعتقد أنها ستسلّم نفسها؟

قال كالغاري: الأرجح أن تذهب إلى أقرب محطة وتركب قطاراً إلى لندن. لكنها لن تستطيع الهروب بالطبع، فسوف يتبعها الشرطة ويقبضون عليها.

قال ليو ثانية: "كريستي الغالية"، ثم ارتعش صوته وهو يقول: مخلصة جداً، كانت طيبة معنا جميعاً.

أمسكت غويندا به من ذراعه وهزته وهي تقول: كيف تقول هذا يا ليو، كيف تقوله؟ فكر فيما فعلته لنا جميعاً... والمعاناة التي جعلتنا نكابدها!

قال ليو: أعرف، لكنها هي أيضاً عانت. أعتقد أن ما شعرنا به في هذا البيت هو معاناتها هي.

قالت غويندا: كان يمكن أن نظل نعاني إلى الأبد لو ترك الأمر لها، لو لم يتدخل الدكتور كالغاري.

ثم التفتت إليه بامتنان، فقال كالغاري: وأخيراً فعلت شيئاً لمساعدتكم، رغم أنه قد تأخر كثيراً.

قالت ماري بمرارة: تأخر كثيراً. كثيراً جداً! آه، لماذا لم نعرف... لماذا لم نخمن؟

ثم التفتت إلى هيستر وقالت بلهجة اتهام: كنت أعتقد أنه أنت، كنت دائماً أعتقد أنه أنت.

قالت هيستر وهي تنظر إلى كالغاري: لكنه لم يكن يعتقد ذلك.

قالت ماري بهدوء: ليتني كنت ميتة.

قال ليو: يا ابنتي الغالية! ليتني أستطيع مساعدتك.

قالت ماري: لا أحد يمكنه مساعدتي. إنها غلطة فيليب، هو الذي كان يريد البقاء هنا. كان يريد إقحام نفسه في هذا الأمر... هو الذي سبّب لنفسه القتل.

ثم نظرت حولها، وقالت: "لا أحد منكم يفهم ما بي"، ثم خرجت من الغرفة.

تبعها كالغاري وهيستر، وعندما وصلا إلى الباب التفت كالغاري

إلى الوراء فرأى ليو يطوّق كتف غويندا بذراعه. قالت هيستر وعيناها تتسعان من الدهشة والخوف: لقد حذّرتني كريستي. قالت لي من البداية بألاّ أثق فيها وأن أخشى منها كما أخشى من أي شخص آخر!

قال كالغاري: انسي الأمر يا عزيزتي. هذا ما عليك أن تفعليه الآن... أن تنسي. كلكم الآن أحرار؛ لم يعد البريء يحيا في ظلام الشك.

- وتينا؟ هل ستتحسن حالتها؟ هل ستموت؟

- لا أظن أنها ستموت. إنها تحب ميكي، أليس كذلك؟

قالت هيستر وقد فوجئت: أظن ذلك. لم أفكر في هذا الأمر من قبل أبداً. كانا دائماً أخاً وأختاً في خيالي... لكنهما ليسا كذلك في الواقع.

- بالمناسبة يا هيستر، هل تعلمين ماذا كانت تينا تعني عندما قالت: «الحمامة على السارية»؟

قطبت هيستر جبينها وهي تقول: «الحمامة على السارية»؟ انتظر لحظة. تبدو لي عبارة مألوفة. «الحمامة على السارية، ونحن نبحر في البحار العالية، وهي تنوح، تنوح، تنوح». أليست هذه هي؟

- ربما.

- ربما سيتزوجان. عندما تتعافى تينا يمكنها الذهاب معه إلى الكويت. كانت تينا تحب دائماً العيش في مكان دافئ. والجو دافئ كثيراً في منطقة الخليج العربي، أليس كذلك؟

- أظنه أدفأ قليلاً من المطلوب.

- لن يضايق ذلك تينا.

قال وهو ممسك بيد هيستر: أظن أنك ستكونين سعيدة الآن يا عزيزتي.

حاول أن يبتسم ثم قال: سوف تتزوجين الطبيب الشاب وتعيشان معاً ولن يكون عندكما مزيد من هذه التخيلات والأفكار اليائسة.

قالت هيستر بنبرة شخص فوجِئ: أتزوج دون؟ لن أتزوج دون بالطبع.

- لكنك تحبينه.

- لا؛ لا أظن ذلك، كنت أظن ذلك فقط. لكنه لم يصدقني، لم يعرف أنني كنت بريئة... كان يجب أن يعرف.

نظرت إلى كالغاري وقالت: أنت عرفت! أظنني أحب الزواج بك.

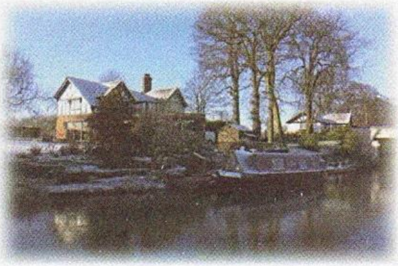
- ولكني أكبر منك بكثير يا هيستر. لا يمكنك أن...

قالت هيستر بارتياب مفاجئ: هذا... إن كنت تريدني.

- آه، إنني أريدك!

* * *

Agatha Christie



Ordeal By Innocence

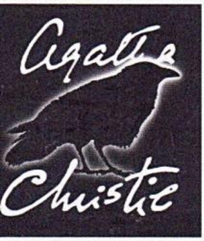
مِحنَة البَريء

كان الوقت غسقاً عندما وصل إلى القارب. وقد كان قادراً على الوصول في وقت أبكر من ذلك بكثير، لكنه أجّل الأمر بقدر استطاعته.

وصل الدكتور كالغاري إلى البيت المدعو صني بوينت بعد سنتين من تلك الحادثة. لقد قتل جاكو أمه، هذا هو الحكم الذي انتهت إليه المحاكمة التي حكمت عليه بالسجن المؤبَّد، لكنه ما لبث أن مات في سجنه بعد أمد يسير.

لماذا أراد كالغاري أن ينكأ الجرح القديم؟

رواية جديدة من روايات الكاتبة العملاقة التي تُعتبَر أعظم مؤلفة في التاريخ من حيثُ انتشار كتبها وعدد ما بيع منها من نسخ، وهي -بلا جدال- أشهر مَن كتب قصص الجريمة في القرن العشرين وفي سائر العصور. وقد تُرجمت رواياتها إلى معظم اللغات الحية، وقارب عدد ما طُبع منها ألفَي مليون نسخة!





٥٩

رقم هذه الرواية حسب ترتيب صدور الروايات بالإنكليزية

الناشر وصاحب الحق الحصر
بالطبعة العربية في جميع أنحاء العا

الأجيال للترجمة والنشر
AJYAL Publishers

ISBN 2-1957-2701-3
978219572701

US $ 4.00

سعر البيع ١٥ ريالاً